* * *

تفسير سورة الشورى

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة. وقد روى ابن جرير هاهنا أثراً غريباً عجيباً منكراً، فقال: حدثنا أحمد بن زُهَير، حدثنا عبد الوهاب بن نَجْدَةَ الحَوْطي، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، عن أرطاة بن المنذر قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال له ـ وعنده حُذيفة بن اليمان ـ: أخبرني عن تفسير قول الله: ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾، قال: فأطرق ثم أعرض عنه، ثم كرر مقالته فأعرض عنه، فلم يجبه بشيء وكره مقالته، ثم كررها الثالثة فلم يُحِرْ إليه شيئاً. فقال حذيفة: أنا أنبئك بها، قد عرفت لم كرهها؟ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله ـ أو: عبد الله ـ ينزل على نهر من أنهار المشرق تُبْنى عليه مدينتان، يشق النهر بينهما شقاً، فإذا أذن الله في زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدتهم، بعث الله على إحداهما ناراً ليلاً، فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت، كأنها لم تكن مكانها، وتصبح صاحبتها متعجبة: كيف أفلتت؟ فما هو إلا بياض يومها ذلك، حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم، ثم يخسف الله بها وبهم جميعاً، فذلك قوله: ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾، يعني: عزيمة من الله تعالى وفتنة وقضاء حُمّ: ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾، عين: يعني عدلاً منه، سين: يعني سيكون، ق: يعني واقع بهاتين المدينتين. وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في الجزء الثاني من مسند ابن عباس، وعن أبي ذر، عن النبي ﷺ في ذلك، ولكن إسناده ضعيف جداً ومنقطع، فإنه قال: حدثنا أبو طالب عبد الجبار بن عاصم، حدثنا أبو عبد الله الملك الحسن بن يحيى الخُشَني الدمشقي، عن أبي معاوية قال: صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال: أيها الناس، هل سمع منكم أحد رسول الله ﷺ يفسر ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾؟ فوثب ابن عباس فقال، أنا: قال: ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ اسم من أسماء الله تعالى، قال: فعين؟ قال: «عاين المولون عذاب يوم بدر»، قال: فسين؟ قال: «سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» قال: فقاف؟ فسكت، فقام أبو ذر ففسر كما قال ابن عباس، رضي الله عنهما، وقال: قاف: قارعة من السماء تغشى الناس. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ أي: كما أنزل إليك هذا القرآن، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: في انتقامه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله. قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صَلْصَلَة الجَرَس، وهو أشده عَلَيّ فيفصم عنّي قد وَعَيت ما قال. وأحياناً يأتيني الملك رجُلاً فيكلمني، فأعي ما يقول». قالت عائشة: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصِم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً. أخرجاه في الصحيحين، ولفظه للبخاري. وقد رواه الطبراني عن عبد الله بن الإمام أحمد، عن أبيه، عن عامر بن صالح، عن هشام ابن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة، عن الحارث بن هشام؛ أنه سأل رسول الله ﷺ: كيف ينزل عليك الوحي؟ فقال: «مثل صلصلة الجرس، فيفصمُ عني وقد وعَيتُ ما قاله» قال: «وهو أشده عليّ» قال: «وأحياناً يأتيني الملك فيتمثل لي فيكلمني، فأعي ما يقول». وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تُقبَض». تفرد به أحمد. وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحي إلى رسول الله ﷺ في أول شرح البخاري، بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة. وقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الجميع عبيد له وملك له، تحت قهره وتصريفه، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، كقوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، والآيات في هذا كثيرة. وقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والسدي، وكعب الأحبار: أي فَرَقاً، من العظمة ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: إعلام بذلك وتنويه به. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: المشركين، ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدها عداً، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: إنما أنت نذير، والله على كل شيء وكيل.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك، ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: واضحاً جلياً بيناً، ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ وهي مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: من سائر البلاد شرقاً وغرباً، وسميت مكة أم القرى؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها. ومن أوجز ذلك وأدله ما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزُّهْرِي، أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عَدِي بن الحمراء الزهري أخبره: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ـ وهو واقف بالحَزْوَرَة في سوق مكة ـ: «والله، إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرِجْتُ منك ما خرجت». وهكذا رواية الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من حديث الزهري، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد. وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في وقوعه، وأنه كائن لا محالة. وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾، كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] أي: يَغْبَن أهل الجنة أهل النار، وكقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: ١٠٣ ـ ١٠٥]. قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا لَيث، حدثني أبو قبيل المعَافري، عن شُفَيّ الأصبحي، عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله. قال للذي في يده اليُمنى: «هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً» ثم قال للذي في يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء إذاً نعمل إن كان هذا أمر قد فُرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «سَدِّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة، وإن عَمِلَ أي عَمل، وإن صاحب النار ليختم له بعمل النار، وإن عمل أي عمل» ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم ﷻ من العباد» ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: «فريق في الجنة»، ونبذ باليسرى فقال: «فريق في السعير».

وهكذا رواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن قتيبة، عن الليث بن سعد وبكر بن مضر، كلاهما عن أبي قَبِيل، عن شُفَيّ بن ماتع الأصبحي، عن عبد الله بن عمرو، به. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وساقه البغوي في تفسيره من طريق بشر بن بكر، عن سعيد بن عثمان، عن أبي الزاهرية، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ، فذكره بنحوه. وعنده زيادات منها: ثم قال: «فريق في الجنة وفريق في السعير، عدل من الله ﷻ». ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ عن الليث، به. ورواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي قَبِيل، عن شُفَي، عن رجل من الصحابة، فذكره. ثم روى عن يونس، عن ابن وَهْب، عن عمرو بن الحارث وحَيْوَة بن شُرَيْح، عن يحيى بن أبي أسيد؛ أن أبا فراس حدثه: أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: إن الله لما خلق آدم نفضه نفض المزوَد، وأخرج منه كل ذريته، فخرج أمثال النَّغَف، فقبضهم قبضتين، ثم قال: شقي وسعيد، ثم ألقاهما، ثم قبضهما. فقال: فريق في الجنة وفريق في السعير. وهذا الموقوف أشبه بالصواب، والله أعلم. وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد ـ يعني ابن سلمة ـ أخبرنا الجُرَيري، عن أبي نضرة، أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له: أبو عبد الله ـ دخل عليه صحابه يعودونه وهو يبكي، فقالوا له: ما يبكيك؟، ألم يقل لك رسول الله ﷺ: «خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني» قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أبالي» فلا أدري في أي القبضتين أنا. وأحاديث القدر في الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جداً، منها حديث علي، وابن مسعود، وعائشة، وجماعة جمة. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وَهْب، أخبرني عَمرو بن الحارث، عن أبي سويد، حدثه عن ابن حجيرة: أنه بلغه أن موسى، عليه السلام، قال: يا رب خَلقُك الذين خلقتهم، جعلت منهم فريقاً في الجنة وفريقاً في النار، لو ما أدخلتهم كلهم الجنة؟! فقال: يا موسى، ارفع ذَرْعك. فرفع، قال: قد رفعت. قال: ارفع. فرفع، فلم يترك شيئاً، قال: يا رب، قد رفعت، قال: ارفع. قال: قد رفعت، إلا ما لا خير فيه. قال: كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة، إلا ما لا خير فيه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير. ثم قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام في جميع الأشياء، ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبيه ﷺ، كقوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي: الحاكم في كل شيء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع في جميع الأمور. وقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما وما بينهما، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: من جنسكم وشكلكم، منةً عليكم وتفضلاً جعل من جنسكم ذكراً وأنثى، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج. وقوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يخلقكم فيه، أي: في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم فيه ذكوراً وإناثاً، خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، ونسلاً بعد نسل، من الناس والأنعام. وقال البغوي، رحمه الله ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في الرحم. وقيل: في البطن. وقيل: في هذا الوجه من الخلقة. قال مجاهد: ونسلاً بعد نسل من الناس والأنعام. وقيل: في بمعنى الباء، أي: يذرؤكم به. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الزمر، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾.

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح، عليه السلام، وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، عليهم السلام. وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية [الأحزاب: ٧]. والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وفي الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» أي: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: وصى الله سبحانه و تعالى جميع الأنبياء، عليهم السلام، بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد. ثم قال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: هو الذي يُقدّر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾، أي: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغيُ والعنادُ والمشاقة. ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعجل لهم العقوبة في الدنيا سريعاً. وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ يعني: الجيل المتأخر بعد القرن الأولى المكذّب للحق ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشك مريب، وشقاق بعيد.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التي قبلها، لها حكم برأسه ـ قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه. وقوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ﴾ أي: فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم، فادعُ الناس إليه.

وقوله: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله ﷻ. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني: المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه، وافتروه من عبادة الأوثان. وقوله: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ أي: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، لا نفرق بين أحد منهم. وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: في الحكم كما أمرني الله. وقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً، فله يسجد من في العالمين طوعاً واختياراً. وقوله: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: نحن براء منكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١]. وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة. قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف. وهذا مُتَّجه؛ لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة. وقوله: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: يوم القيامة، كقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبا: ٢٦]. وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى ـ متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ـ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: باطلة عند الله، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أي: منه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يوم القيامة. قال ابن عباس، ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية. وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولى بالله منكم. وقد كذبوا في ذلك. ثم قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿وَالْمِيزَانَ﴾، وهو: العدل والإنصاف، قاله مجاهد، وقتادة. وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩]. وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وتزهيد في الدنيا. وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي: يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبا: ٢٩]، وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً، وكفراً وعناداً، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون وَجِلُون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها. وقد رُوي من طرق تبلغ درجة التواتر، في الصحاح والحسان، والسنن والمسانيد، وفي بعض ألفاظه؛ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جَهْوَرِيّ، وهو في بعض أسفاره، فناداه فقال: يا محمد. فقال له النبي ﷺ نحواً من صوته «هاؤم». فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟». فقال: حُب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت». فقوله في الحديث: «المرء مع من أحب»، هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها. وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي: يحاجّون في وجودها ويدفعون وقوعها، ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في جهل بين؛ لأن الذي خلق السموات والأرض قادرٌ على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحد منهم، سواء في رزقه البرّ والفاجر، كقول تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦]. ولها نظائر كثيرة. وقوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يوسع على من يشاء، ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أي: لا يعجزه شيء. ثم قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي: عمل الآخرة، ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي: نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر نماءه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أي: ومن كان

إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة همَّة البتة بالكلية، حَرَمه الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة. والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التي في «سبحان» وهي قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ١٨ ـ٢١]. وقال الثوري، عن مُغيرة، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسَّناء والرفعة، والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب». وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ﴾ أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة، التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عَمرو بن لُحَيّ بن قَمَعَة يَجُر قُصْبَه في النار». لأنه أول من سيب السوائب. وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حَمَل قريشا على عبادة الأصنام، لعنه الله وقبحه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ﴾، أي: لعوجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد موجع في جهنم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي: في عرصات القيامة، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ﴾ أي: الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم في هذا الخوف والوجل، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ﴾، فأين هذا من هذا: أين من هو في العَرَصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو في روضات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشاربَ وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. قال الحسن بن عرفة: حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري، عن أبي طَيْبَة، قال: إن الشَّرْب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول: ما أمطِرُكُم. قال: فما يدعو داع من القوم بشيء إلا أمطرتهم، حتى إن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أتراباً. رواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، به. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: الفوز العظيم، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ﴾ أي: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به. وقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني، وتذروني أبلغ رسالات ربي، إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة. قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاوساً عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ﴾، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد. فقال ابن عباس: عَجِلْتَ، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة. انفرد به البخاري. ورواه الإمام أحمد، عن يحيى القطان، عن شعبة به. وهكذا روى عامر الشعبي، والضحاك، وعلي بن أبي طلحة، والعَوْفي، ويوسف بن مِهْران، وغير واحد، عن ابن عباس، مثله. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وأبو مالكَ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن يزيد الطبراني وجعفر القلانسي قالا: حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شريك، عن خُصيف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تَوَدّوني في نفسي لقرابتي منكم، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم».

وروى الإمام أحمد، عن حسن بن موسى: حدثنا قَزَعة، يعين ابن سُوَيد ـ وابن أبي حاتم ـ عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قَزَعة بن سويد ـ عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال: «لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجراً، إلا أن تُوادوا الله، وأن تقربوا إليه بطاعته». وهكذا روى قتادة عن الحسن البصري، مثله. وهذا كأنه تفسير بقول

ثان، كأنه يقول: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى. وقول ثالث: وهو ما حكاه البخاري وغيره، رواية عن سعيد بن جبير، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تودوني في قرابتي، أي: تحسنوا إليهم وتبروهم. وقال السدي، عن أبي الديلم قال: لما جيء بعلي بن الحسين أسيراً، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم، وقطع قرني الفتنة. فقال له علي بن الحسين: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن، ولم أقرأ آل حم. قال: ما قرأت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؟ فقال: وإنكم أنتم هم؟ قال: نعم. وقال أبو إسحاق السَّبِيعي: سألت عمرو بن شعيب عن قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، فقال: قربى النبي ﷺ. رواهما ابن جرير. ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام، حدثني يزيد ابن أبي زياد، عن قسم، عن ابن عباس قال: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا، وكأنهم فخروا. فقال ابن عباس - أو: العباس، شك عبد السلام -: لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم في مجالسهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفلا تجيبوني؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ أو لم يكذبوك فصدقناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك»؟ قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله. قال: فنزلت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن علي بن الحسين، عن عبد المؤمن بن علي، عن عبد السلام، عن يزيد بن أبي زياد - وهو ضعيف - بإسناده مثله، أو قريباً منه. وفي الصحيحين - في قسم غنائم حنين - قريب من هذا السياق، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية. وذكْرُ نزولها في المدينة فيه نظر؛ لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا رجل سماه، حدثنا حسين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: «فاطمة وولدها، عليهم السلام». وهذا إسناد ضعيف، فيه مبهم لا يعرف، عن شيخ شيعي مُتخَرِّق، وهو حسين الأشقر، ولا يقبل خبره في هذا المحل. وذِكْرُ نزول هذه الآية في المدينة بعيد؛ فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلي إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة. والحق تفسير الآية بما فسرها به الإمام حَبرُ الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخاري رحمه الله: ولا تنكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلي وأهل بيته وذريته، رضي الله عنهم أجمعين. وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بِغَدِير خُمّ: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله، إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشر حَسَن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها؟ قال: فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً، وقال: «والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله». ثم قال أحمد: حدثنا جرير، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد المطلب ابن ربيعة قال: دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال: إنا لنخرج فنرى قريشاً تُحدّث، فإذا رأونا سكتوا. فغضب رسول الله ﷺ ودَرّ عِرْقٌ بين عينه، ثم قال: «والله لا يدخل قلب امرىء إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتي». وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا خالد، حدثنا شعبة، عن واقد قال: سمعتُ أبي يحدّث عن ابن عمر، عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قال: ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته. وفي الصحيح: أن الصديق قال لعلي، رضي الله عنهما: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل في قرابتي. وقال عمر بن الخطاب للعباس، رضي الله عنهما: والله لإسلامك يوم أسلمت، كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب. فحال الشيخين، رضي الله عنهما، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك؛ ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضي الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أبي حَيّان التيمي، حدثنا يزيد بن حَيّان قال: انطلقت أنا

وحُسَين بن مَيْسَرة، وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيد خيراً كثيراً، رأيتَ رسول الله ﷺ، وسمعت حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ معه. لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. فقال: يا أخي، والله كَبُرت سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي عن رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوه، وما لا فلا تُكلِّفونيه. ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا، بماء يدعى خُمّاً ـ بين مكة والمدينة ـ فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين، أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه، وقال: «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي». فقال له حصين: ومَنْ أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس. قال: أكل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم. وهكذا رواه مسلم في الفضائل، والنسائي من طرق عن يزيد بن حَيّان به. وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا علي بن المنذر الكوفي، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد ـ والأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن زيد بن أرقم ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، والآخر عترتي: أهل بيتي، ولن يتفرّقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما».

تفرد بروايته الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن غريب. وقال الترمذي أيضاً: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفي، حدثنا زيد بن الحسن، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة، وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: «يا أيها الناس، إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي: أهل بيتي». تفرد به الترمذي أيضاً، وقال: حسن غريب، وفي الباب عن أبي ذر، وأبي سعيد، وزيد بن أرقم، وحذيفة بن أسيد. ثم قال الترمذي: حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث، حدثنا يحيى بن مَعِين، حدثنا هشام بن يوسف، عن عبد الله بن سليمان النوفلي، عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي بحبي». ثم قال: حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه. وقد أوردنا أحاديث أُخر عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، بما أغنى عن إعادتها هاهنا، ولله الحمد والمنة. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سويد بن سَعِيد، حدثنا مُفَضّل بن عبد الله، عن أبي إسحاق، عن حَنَش قال: سمعت أبا ذر وهو آخذ بحلقة الباب يقول: يأيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن أنكرني فأنا أبو ذر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثل أهل بيتي فيكم مَثَل سفينة نوح، من دخلها نجا، ومن تخلف عنها هلك». هذا بهذا الإسناد ضعيف.

وقوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: ومن يعمل حسنة ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: أجراً وثواباً، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]. وقال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر. وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: لطبع على قلبك وسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧] أي: لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه. وقوله: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ ليس معطوفاً على قوله: ﴿يَخْتِمْ﴾ فيكون مجزوماً، بل هو مرفوع على الابتداء، قاله ابن جرير، قال: وحذفت من كتابته «الواو» في رسم المصحف الإمام، كما حذفت في قوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق: ١٨]، وقوله: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١]. وقوله: ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ معطوف على ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ أي: يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه بكلماته، أي بحججه وبراهينه، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر، كقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠]، وقد ثبت في صحيح مسلم، رحمه الله، حيث قال: حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قال: حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إسحاق بن أبي طلحة، حدثني أنس بن مالك ـ وهو عمه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم، أنت عبدي وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح». وقد ثبت أيضاً في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود نحوه. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾: إن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في المكان الذي يخاف أن يقتله العطش فيه». وقال همام بن الحارث: سئل ابن مسعود عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ الآية رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث شريك القاضي، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم النخعي، عن همام، فذكره. وقوله: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: يقبل التوبة في المستقبل، ويعفو عن السيئات في الماضي، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ قال السدي: يعني يستجيب لهم. وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب الدعاء لهم لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. ثم روى هو وابن أبي حاتم، من حديث الأعمش، عن شقيق بن سلمة، عن سلمة بن سبرة قال: خطبنا معاذ بالشام، فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة. والله إني أرجو أن يدخل الله من تَسْبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له ـ يعني أحدَكم عملاً ـ قال: أحسنت رحمك الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل مثل قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٨] أي: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] والمعنى الأول أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك؛ ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا بقية، حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكندي، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، قال: «الشفاعة لمن وجبت له النار، ممن صنع إليهم معروفاً في الدنيا». وقال قتادة عن إبراهيم النخعي اللخمي في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، قال: يشفعون في إخوانهم، ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ قال: يشفعون في إخوان إخوانهم. وقوله: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض، أشراً وبطراً. وقال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك. وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله من زهرة الحياة الدنيا»، وسؤال السائل: أيأتي الخير بالشر؟ الحديث. وقوله: ﴿وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر. كما جاء في الحديث المروي: «إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ أي: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الروم: ٤٩]. وقوله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: يعم بها الوجود على أهل ذلك القُطر وتلك الناحية. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قُحط المطر وقنط الناس؟ فقال عمر، رضي الله عنه: مطرتم، ثم قرأ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.



﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ أي: ذرأ فيهما، أي: في السموات والأرض، ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم، وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار الأرض والسموات، ﴿وَهُوَ﴾ مع هذا كله ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ أي: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو عن سيئات تقدمت لكم، ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]. وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده، ما يصيب المؤمن من نَصَب ولا وَصَب ولا هم ولا حَزَن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة يشاكها». وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب قال: قرأت في كتاب أبي قِلابَة قال: نزلت: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، إني لراء ما عملت من خير وشر؟ فقال: «أرأيت ما رأيت مما تكره، فهو من مثاقيل ذَرّ الشر، وتدخر مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة» قال: قال أبو إدريس: فإني أرى مصداقها في كتاب الله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾. ثم رواه من وجه آخر، عن أبي قِلابَة، عن أنس، قال: والأول أصح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا مروان بن معاوية الفَزَاري، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلي، عن الخَضر بن القَوّاس البجلي، عن أبي سخيلة، عن علي، رضي الله عنه، قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله ﷻ، وحدثنا به رسول الله ﷺ، قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾. وسأفسرها لك يا علي: «ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا، فبما كسبت أيديكم، والله تعالى أحلم من أن يُثَنّي عليه العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه». وكذا رواه الإمام أحمد، عن مروان بن معاوية وعَبْدة، عن أبي سُخَيلة قال: قال علي: . . . فذكر نحوه مرفوعاً. ثم رواه ابن أبي حاتم نحوه من وجه آخر موقوفاً فقال: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا أبو سعيد بن أبي الوضاح، عن أبي الحسن، عن أبي جُحَيفَة قال: دخلت على علي ابن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يَعيه؟ قال: فسألناه، فتلا هذه الآية: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾. قال: ما عاقب الله به في الدنيا فالله أحلم من أن يُثَنّي عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة. وقال الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا طلحة ـ يعني ابن يحيى ـ عن أبي بُرْدَةَ، عن معاوية ـ هو ابن أبي سفيان، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كَفّرَ الله عنه به من سيئاته». وقال أحمد أيضاً: حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، عن مجاهد، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله بالحَزَن ليكفرها». وقل ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا أبو أسامة، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن ـ هو البصري ـ قال في قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ قال: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما من خَدْش عود، ولا اختلاج عِرْق، ولا عَثْرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر». وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمر بن علي، حدثنا هُشَيم، عن منصور، عن الحسن، عن عمران بن حصين، رضي الله عنه، قال: دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلي في جسده، فقال له بعضهم إنا لَنَبْتَئِسُ لك لما نرى فيك. قال: فلا تبتئس بما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾. قال: وحدثنا أبي: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحِمّاني، حدثنا جرير، عن أبي البلاد قال: قلت للعلاء بن بدر: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وقد ذهب بصري وأنا غلام؟ قال: فبذنوب والديك. وحدثنا أبي: حدثنا علي بن محمد الطَّنافسي، حدثنا وكيع، عن عبد العزيز بن أبي رواد، عن الضحاك قال: ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب، ثم قرى الضحاك: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ

عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾. ثم يقول الضحاك: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه، تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره، وهي الجواري في البحر كالأعلام، أي: كالجبال، قاله مجاهد، والحسن، والسدي، والضحاك، أي: هي في البحر كالجبال في البر، ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ أي: التي تسير بالسفن، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن، بل تظل راكدة لا تجيء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أي: على وجه الماء ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: في الشدائد ﴿شَكُورٍ﴾ أي: إن في تسخيره البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، لدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: في الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء. وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي: ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها، ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: من ذنوبهم. ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر. وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق، ولا إلى جهة مقصد. وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقت وهلكت. ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيراً جداً لهدم البنيان، أو قليلاً لما أنبت الزرع والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم. وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ أي: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

يقول تعالى محقراً بشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهر والنعيم الفاني، بقوله: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: وثواب الله خير من الدنيا، وهو باق سرمدي، فلا تقدموا الفاني على الباقي؛ ولهذا قال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات. ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾، وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش في «سورة الأعراف» ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: سجيتهم وخلقهم وطبعهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس. وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله. وفي حديث آخر: «كان يقول لأحدنا عند المعتبة: ماله؟ تربت جبينه». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن زائدة، عن منصور، عن إبراهيم قال: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفوا.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ أي: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وهي أعظم العبادات لله ﷻ، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان عليه الصلاة السلام، يشاورهم في الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهم أجمعين، فاجتمع رأى الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، رضي الله عنهم، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا وعفوا، كما قال يوسف، عليه السلام، لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن غَوْرَث بن الحارث، الذي أراد الفتك به عليه السلام حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ عليه السلام، وهو في يده صَلْتًا، فانتهره، فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ

السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم، الذي سحره، عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية ـ وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمود بن مسلمة ـ التي سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: «ما حملك على ذلك» قالت: أردت إن كنت نبياً لم يضرك، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك، فأطلقها، عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً، والحمد لله.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾، كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وكقوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]، فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾ [المائدة: ٤٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾أي: لا يضيع ذلك عند الله كما صح في الحديث: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا». وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾أي: المعتدين، وهو المبتدىء بالسيئة. وقال بعضهم: لما كانت الأقسام ثلاثة: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية فذكر المقتصد وهو الذي يفيض بقدر حقه لقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾، ثم ذكر السابق بقوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، ثم ذكر الظالم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى من الظلم. ثم قال: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾أي: ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم. قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيع، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا ابن عَوْن قال: كنت أسأل عن الانتصار: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾، فحدثني علي ابن زيد بن جدعان، عن أم محمد ـ امرأة أبيه ـ قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة ـ قالت: قالت أم المؤمنين: دخل علينا رسول الله ﷺ وعندنا زينب بنت جحش، فجعل يصنع بيده شيئاً فلم يَفْطِنْ لها، فقلت بيده حتى فَطَّنته لها، فأمسك. وأقبلت زينب تقحم لعائشة، فنهاها، فأبت أن تنتهي. فقال لعائشة: «سُبِّيها» فسبتها فغلبتها، وانطلقت زينب فأتت علياً فقالت: إن عائشة تقع بكم، وتفعل بكم. فجاءت فاطمة فقال لها: «إنها حبة أبيك ورب الكعبة» فانصرفت، وقالت لعلي: إني قلت له كذا وكذا، فقال لي كذا وكذا. قال: وجاء علي إلى النبي ﷺفكلمه في ذلك. هكذا ورد هذا السياق، وعلي بن زيد بن جدعان يأتي في رواياته بالمنكرات غالباً، وهذا فيه نكارة، والحديث الصحيح خلاف هذا السياق، كما رواه النسائي وابن ماجه من حديث خالد بن سلمة الفأفاء، عن عبد الله البَهِيّ، عن عروة قال: قالت عائشة، رضي الله عنها: ما علمتُ حتى دخلت عليَّ زينب بغير إذن وهي غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبي بكر ذُرَيْعَتَيها ثم أقبلت علي فأعرضت عنها، حتى قال النبي ﷺ «دونك فانتصري» فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها في فمها، ما ترد علي شيئاً. فرأيت النبي ﷺيتهلل وجهه. وهذا لفظ النسائي. وقال البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي حمزة، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر». ورواه الترمذي من حديث أبي الأحوص، عن أبي حمزة ـ واسمه ميمون ـ ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديثه، وقد تكلم فيه من قبل حفظه».

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾أي: إنما الحرج والعنت ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾أي: يبدؤون الناس بالظلم. كما جاء في الحديث الصحيح: «المُسْتَبَّان ما قالاه، فعلى البادىء ما لم يَعْتَد المظلوم». ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾أي: شديد موجع. قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سعيد بن زيد ـ أخو حماد بن زيد ـ حدثنا عثمان الشحام، حدثنا محمد بن واسع، قال: قدمت مكة فإذا على الخندق مَنْظَرَة، فأخذت فانطلق بي إلى مروان بن المهلب، وهو أمير على البصرة، فقال: حاجتك يا أبا عبد الله. قلت: حاجتي إن استطعت أن تكون كما قال أخو بني عدي. قال: ومن أخو بني عدي؟ قال: العلاء بن زياد، استعمل صديقاً له مرة على عمل، فكتب إليه: أما بعد فإن استطعت ألا تبيت إلا وظهرك خفيف، وبطنك خميص، وكفك نقية من دماء المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلت ذلك لم يكن عليك سبيل، ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾﴾فقال: صدق والله ونصح ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتي أن تلحقني بأهلي. قال: نعم. رواه ابن أبي حاتم.

ثم إنه تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادباً إلى العفو والصفح: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أي: صبر على الأذى وستر السيئة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ . قال سعيد بن جبير: يعني لمن حق الأمور التي أمر الله بها، أي: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمران بن موسى الطرسوسي، حدثنا عبد الصمد بن يزيد ـ خادم الفُضَيل بن عياض ـ قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً فقل: «يا أخي، اعف عنه». فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن أنتصر كما أمرني الله ﷻ. فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ـ يعني ابن سعيد القطان ـ عن ابن عَجْلان، حدثنا سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رجلاً شتم أبا بكر والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق، ما من عبد ظُلم بمظلمة فيغضي عنها لله، إلا أعز الله بها نَصْرَة، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة، إلا زاده الله بها قلة». وكذا رواه أبو داود، عن عبد الأعلى بن حماد، عن سفيان بن عيينة ـ قال: ورواه صفوان بن عيسى، كلاهما عن محمد بن عَجْلان. ورواه من طريق الليث، عن سعيد المَقْبُري، عن بشير بن المحرر، عن سعيد بن المسيب مرسلاً. وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى، وهو سببُ سبه للصديق.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة: إنه من شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، وأنه من هداه فلا مُضِل له، ومن يضلل فلا هادي له، كما قال: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. ثم قال مخبراً عن الظالمين، وهم المشركون بالله ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: يوم القيامة يتمنون الرجعة إلى الدنيا، ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]. وقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ ، أي: الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله، ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال مجاهد: يعني ذليل، أي ينظرون إليها مُسارقة خوفاً منها، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما في نفوسهم، أجارنا الله من ذلك. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: يقولون يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: الخسار الأكبر ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: ذهب بهم إلى النار، فعدموا لذتهم في دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقراباتهم، فخسروهم، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: دائم سرمدي أبدي، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ أي: ليس له خلاص.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ .

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حذَّر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع. وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره، تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه، ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة: ١٠ ـ ١٢]. وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ يعني: المشركين ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: لست عليهم بمصيطر: وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال هاهنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ

إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أي: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ يعني الناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أي: جدب ونقمة وبلاء وشدة، ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ أي: يجحد ما تقدم من النعمة ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط، كما قال رسول الله ﷺ للنساء: «يا معشر النساء، تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة: ولِمَ يا رسول الله؟ قال: «لأنكن تُكثرن الشكاية، وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوماً قالت: ما رأيت منك خيراً قط». وهذا حال أكثر الناس إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال رسول الله ﷺ: «إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ أي: يرزقه البنات فقط ـ قال البغوي: ومنهم لوط، عليه السلام ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ أي: يرزقه البنين فقط. قال البغوي: كإبراهيم الخليل، عليه السلام ـ لم يولد له أنثى، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ أي: ويعطي من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، أي: من هذا وهذا. قال البغوي: كمحمد، عليه الصلاة والسلام ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ أي: لا يولد له. قال البغوي: كيحيى وعيسى، عليهما السلام، فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيماً لا نسل له ولا يولد له، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: على من يشاء، من تفاوت الناس في ذلك. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] أي: دلالة لهم على قدرته، تعالى وتقدس، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام، فآدم، عليه السلام، مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء، عليها السلام، مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام من ذكر وأنثى، وعيسى، عليه السلام، من أنثى بلا ذكر فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم، عليهما السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، فهذا المقام في الآباء، والمقام الأول في الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله، ﷻ، وهو أنه تعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله ﷻ، كما جاء في صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن رُوح القُدُس نفث في رُوعي: أن نفساً لن تموت حتى تستكمل زرقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب». وقوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾، كما كلم موسى، عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً» الحديث، وكان أبوه قد قتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا. وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾، كما ينزل جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة على الأنبياء، عليهم السلام، ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾، فهو علي عليم خبير حكيم. وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعني: القرآن، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: على التفصيل الذي شرع لك في القرآن، ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ أي يا محمد ﴿لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو الخلق القويم، ثم فسره بقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى﴾ أي: شرعه الذي أمر به الله، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾، أي ترجع الأمور، فيفصلها ويحكم فيها.

آخر تفسير سورة «حم الشورى»

والحمد لله رب العالمين

(٤٢) سورة الشورى مكية وآياتها ثلاث وخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم آ، عسق ، كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ، له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم ، تكاد السموات يتفطرن فى فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ، والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ﴾ .

اعلم أن الكلام فى أمثال هذه الفواتح معلوم إلا أن فى هذا الموضع سؤالان زائدان (الأول) أن يقال أن هذه السورة السبعة مصدرة بقوله (حم) فما السبب فى اختصاص هذه السورة بمزيد (عسق) ؟ (الثانى) أنهم أجمعوا على أنه لا يفصل بين (كهيعص) وههنا يفصل بين (حم) وبين (عسق) فما السبب فيه ؟ .

واعلم أن الكلام فى أمثال هذه الفواتح يضيق ، وفتح باب المجازفات مما لا سبيل إليه ، فالأولى أن يفوض علمها إلى الله ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود (حم ، عسق) .

أما قوله تعالى (كذلك يوحى إليك) فالكاف معناه المثل وذا للاشارة إلى شىء سبق ذكره ، فيكون المعنى مثل (حم عسق كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك) وعند هذا حصل قولان :

(الأول) نقل عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال « لانبى صاحب كتاب إلا وقد أوحى إليه حم عسق » وهذا عندى بعيد .

(الثانى) أن يكون المعنى : مثل الكتاب المسمى (بحم عسق) يوحى الله إليك وإلى الذين من قبلك ، وهذه المماثلة المراد منها المماثلة فى الدعوة إلى التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وتقبيح أحوال الدنيا والترغيب فى التوجه إلى الآخرة ، والذى يؤكد هذا أنا بينا فى سورة (سبح اسم ربك الأعلى) أن أولها فى تقرير التوحيد ، وأوسطها فى تقرير النبوة ، وآخرها فى تقرير المعاد ، ولما تم الكلام فى تقرير هذه المطالب الثلاثة قال (إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) يعنى أن المقصود من إنزال جميع الكتب الإلهية ليس إلا هذه المطالب الثلاثة ، فكذلك ههنا يعنى مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحى الله إليك وإلى كل من قبلك من الأنبياء ، والمراد بهذه المماثلة الدعوة إلى هذه المطالب العالية والمباحث المقدسة الإلهية ، قال صاحب الكشاف : ولم يقل أوحى إليك ، ولكن قال (يوحى إليك) على لفظ المضارع ليدل على أن إيحاء مثله عادته ، وقرأ ابن كثير (كذلك يوحى) بفتح الحاء على ما لم يسم فاعله وهى إحدى الروايتين عن أبى عمرو وعن بعضهم (نوحى) بالنون ، وقرأ الباقون (يوحى إليك وإلى الذين من قبلك) بكسر الحاء ، فان قيل فعلى القراءة الأولى مارافع اسم الله تعالى ؟ قلنا مادل عليه يوحى ، كأن قائلا قال من الموحى ؟ فقيل الله ونظيره قراءة السلمى (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) على البناء للمفعول ورفع شركاؤهم ، فإن قيل فما رافعه فيمن قرأ (نوحى) بالنون ؟ قلنا يرفع بالابتداء ، والعزيز وما بعده أخبار ، أو (العزيز الحكيم) صفتان والظرف خبره ، ولما ذكر أن هذا الكتاب حصل بالوحى بين أن الموحى من هو فقال إنه هو (العزيز الحكيم) وقد بينا فى أول سورة (حم) المؤمن أن كونه (عزيزاً) يدل على كونه قادراً على مالانهاية له وكونه (حكيما) يدل على كونه عالماً بجميع المعلومات غنياً عن جميع الحاجات فيحصل لنا من كونه (عزيزاً حكيما) كونه قادراً على جميع المقدورات عالماً بجميع المعلومات غنياً عن جميع الحاجات ومن كان كذلك كانت أفعاله وأقواله حكمة وصواباً ، وكانت مبرأة عن العيب والعبث ، قال مصنف الكتاب قلت فى قصيدة :

الحمـــد لله ذى الآلاء والنعم   والفضل والجود والإحسان والكرم
منزه الفعل عن عيب وعن عبث   مقدس الملك عن عزل وعن عدم

والصفة الثالثة قوله (له ما فى السموات وما فى الأرض) وهـــذا يدل على مطلوبين فى غاية الجلال (أحدهما) كونه موصوفاً بقدرة كاملة نافذة فى جميع أجزاء السموات والأرض على عظمتهما وسعتهما بالإيجاد والإعدام والتكوين والإبطال (والثانى) أنه لما بين بقوله (له ما فى السموات وما فى الأرض) أن كل مافى السموات وما فى الأرض فهو ملكه وملكه ، وجب أن يكون منزهاً عن كونه حاصلا فى السموات وفى الأرض ، وإلا لزم كونه ملكا لنفسه ، وإذا

ثبت أنه ليس فى شىء من السموات امتنع كونه أيضاً فى العرش ، لأن كل ما سماك فهو سماء فاذا كان العرش موجوداً فوق السموات كان فى الحقيقة سماء ، فوجب أن يكون كل ما كان حاصلا فى العرش ملكا لله وملكا له ، فوجب أن يكون منزهاً عن كونه حاصلا فى العرش ، وإن قالوا إنه تعالى قال (له مافى السموات) وكلمة مالا تتناول من يعقل قلنا هذا مدفوع من وجهين : (الأول) أن لفظة ماواردة فى حق الله تعالى قال تعالى (والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها) وقال (لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) ، (والثانى) أن صيغة من وردت فى مثل هذه السورة قال تعالى (إن كل من فى السموات و الأرض إلا آتى الرحمن عبداً) وكلمة من لا شك أنها واردة فى حق الله تعالى فدلت هذه الآية على أن كل من فى السموات والأرض فهو عبد لله فلو كان الله موجوداً فى السموات والأرض وفى العرش لكان هو من جملة من فى السموات فوجب أن يكون عبد الله ، ولما ثبت بهذه الآية أن كل من كان موجوداً فى السموات والعرش فهو عبد لله وجب فيمن تقدست كبرياؤه عن تهمة العبودية أن يكون منزهاً عن الكون فى المكان والجهة والعرش والكرسى .

والصفة الرابعة والخامسة قوله تعالى (وهو العلى العظيم) ولا يجوز أن يكون المراد بكونه علياً العلو فى الجهة والمكان لما ثبتت الدلالة على فساده ، ولا يجوز أن يكون المراد من العظيم العظمة بالجثة وكبر الجسم ، لأن ذلك يقتضى كونه مؤلفاً من الأجزاء والأبعاض ، وذلك ضد قوله (الله أحد) فوجب أن يكون المراد من العلى المتعالى عن مشابهة الممكنات ومناسبة المحدثات ، ومن العظيم العظمة بالقدرة والقهر بالاستعلاء وكمال الإلهية .

ثم قال ﴿تكاد السموات يتفطرن من فوقهن﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر (تكاد) بالتاء (ينفطرن) بالياء والنون ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة (تكاد) بالتاء (يتفطرن) بالياء والتاء ، وقرأ نافع والكسائى : (يكاد) بالياء (يتفطرن) أيضاً بالتاء ، قال صاحب الكشاف : وروى يونس عن أبى عمرو قراءة غريبة (تتفطرن) بالتاءين مع النون ، ونظيرها حرف نادر ، روى فى نوادر ابن الإعرابى : الإبل تتشمسن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى فائدة قوله (من فوقهن) وجوه (الأول) روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) قال والمعنى أنها تكاد تتفطر من ثقل الله عليها .

واعلم أن هذا القول سخيف ، ويجب القطع ببراءة ابن عباس عنه ، ويدل على فساده وجوه : (الأول) أن قوله (من فوقهن) لايفهم منه من فوقهن (وثانيها) هب أنه يحمل على ذلك ، لكن لم قلتم إن هذه الحالة إنما حصلت من ثقل الله عليها ، ولم لايجوز أن يقال إن هذه الحالة إنما حصلت من ثقل الملائكة عليها ، كما جاء فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال « أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد » (وثالثها) لم لا يجوز أن يكون المراد

تكاد السموات تنشق وتنفطر من هيبة من هو فوقها بالفوقية بالإلهية والقهر والقدرة ؟ ، فثبت بهذه الوجوه أن القول الذى ذكروه فى غاية الفساد والركاكة (والوجه الثانى) فى تأويل الآية ماذكره صاحب الكشاف ، وهو أن كلمة الكفر إنما جاءت من الذين تحت السموات ، وكان القياس أن يقال : يتفطرن من تحتهن من الجهة التى جاءت منها الكلمة ، ولكنه بولغ فى ذلك فقلب فجعلت مؤثرة فى جهة الفوق ، كأنه قيل : يكدن يتفطرن من الجهة التى فوقهن ، ودع الجهة التى تحتهن ، ونظيره فى المبالغة قوله تعالى (يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود) فجعل مؤثراً فى أجزائه الباطنة (الوجه الثالث) فى تأويل الآية أن يقال (من فوقهن) أى من فوق الأرضين ، لأنه تعالى قال قبل هذه الآية (له ما فى السموات وما فى الأرض) ثم قال (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) أى من فوق الأرضين (والوجه الربع) فى التأويل أن يقال معنى (من فوقهن) أى من الجهة التى حصلت هذه السموات فيها ، وتلك الجهة هى فوق ، فقوله (من فوقهن) أى من الجهة الفوقانية التى هن فيها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى أن هذه الهيئة لم حصلت ؟ وفيه قولان (الأول) أنه تعالى لما بين أن الموحى لهذا الكتاب هو الله العزيز الحكيم ، بين وصف جلاله وكبريائه ، فقال (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) أى من هيبته وجلالته (والقول الثانى) أن السبب فيه إثباتهم الولد لله لقوله ، (تكاد السموات يتفطرن) منه ، وههنا السبب فيه إثباتهم الشركاء لله ، لقوله بعد هذه الآية (والذين اتخذوا من دونه أولياء) والصحيح هو الأول ، ثم قال (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض) .

واعلم أن مخلوقات الله تعالى نوعان : عالم الجسمانيات وأعظمها السموات ، وعالم الروحانيات وأعظمها الملائكة ، والله تعالى يقرر كمال عظمته لأجل نفاذ قدرته وهيبته فى الجسمانيات ، ثم يردفه بنفاذ قدرته واستيلاء هيبته على الروحانيات ، والدليل عليه أنه تعالى قال فى سورة (عم يتساءلون) لما أراد تقرير العظمة والكبرياء بدأ بذكر الجسمانيات ، فقال (رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً) ثم انتقل إلى ذكر عالم الروحانيات ، فقال (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) فكذلك القول فى هذه الآية بين كمال عظمته باستيلاء هيبته على الجسمانيات ، فقال (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) ثم انتقل إلى ذكر الروحانيات ، فقال (والملائكة يسبحون بحمد ربهم) فهذا ترتيب شريف وبيان باهر .

واعلم أن الموجودات على ثلاثة أقسام : مؤثر لا يقبل الأثر ، وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الأقسام ، ومتأثر لا يؤثر ، وهو القابل وهو الجسم وهو أخس الأقسام ، وموجود يقبل الأثر من القسم الأول ، ويؤثر فى القسم الثانى وهو الجواهر الروحانيات المقدسة ، وهو المرتبة

المتوسطة ، إذا عرفت هذا ، فنقول الجواهر الروحانية لها تعلقان : تعلق بعالم الجلال والكبرياء ، وهو تعلق القبول ، فإن الجلايا القدسية والأضوء الصمدية إذا أشرقت على الجواهر الروحانية استضاءت جواهرها وأشرقت ماهياتها ، ثم إن الجواهر الروحانية إذا استفادت تلك القوى الروحانية ، قويت بها على الاستيلاء على عوالم الجسمانيات ، وإذا كان كذلك فلها وجهان : وجه إلى جانب الكبرياء وحضرة الجلال ، ووجه إلى عالم الأجسام والوجه الأول أشرف من الثانى . إذا عرفت هذا فنقول :

قوله تعالى (يسبحون بحمد ربهم) إشارة إلى الوجه الذى لهم إلى عالم الجلال والكبرياء ، وقوله (ويستغفرون لمن فى الأرض) إشارة إلى الوجه الذى لهم إلى عالم الأجسام ، فما أحسن هذه اللطائف وما أشرفها وما أشد تأثيرها فى جذب الأرواح من حضيض الخلق إلى أوج معرفة الحق ، إذا عرفت هذا فنقول : أما الجهة الأولى وهى الجهة العلوية المقدسة ، فقد اشتملت على أمرين : أحدهما التسبيح ، وثانيهما التحميد ، لأن قوله (يسبحون بحمد ربهم) يفيد هذين الأمرين ، والتسبيح مقدم على التحميد ، لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغى ، والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مفيضاً لكل الخيرات وكونه منزهاً فى ذاته عما لا ينبغى ، مقدم بالرتبة على كونه فياضاً للخيرات والسعادات ، لأن وجود الشىء مقدم على إيجاد غيره ، وحصوله فى نفسه مقدم على تأثيره فى حصول غيره ، فلهذا السبب كان التسبيح مقدماً على التحميد ، ولهذا قال (يسبحون بحمد ربهم) .

وأما الجهة الثانية ، وهى الجهة التى لتلك الأرواح إلى عالم الجسمانيات ، فالإشارة إليها بقوله (ويستغفرون لمن فى الأرض) والمراد منه تأثيراتها فى نظم أحوال هذا العالم وحصول الطريق الأصوب الأصلح فيها ، فهذه ملامح من المباحث العالية الإلهية مدرجة فى هذه الآيات المقدسة ، ولنرجع إلى مايليق بعلم التفسير ، فإن قيل كيف يصح أن يستغفروا لمن فى الأرض وفيهم الكفار ، وقد قال تعالى (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة) فكيف يكونون لاعنين ومستغفرين لهم ؟ ، قلنا (الجواب) عنه من وجوه :

(الأول) أن قوله (لمن فى الأرض) لا يفيد العموم ، لأنه يصح أن يقال إنهم استغفروا لكل من فى الأرض وأن يقال إنهم استغفروا لبعض من فى الأرض دون البعض ، ولو كان قوله لمن فى الأرض صريحاً فى العموم لما صح ذلك التقسيم (الثانى) هب أن هذا النص يفيد العموم إلا أنه تعالى حكى عن الملائكة فى سورة حم المؤمن فقال (ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) (الثالث) يجوز أن يكون المراد من الاستغفار أن لا يعاجلهم بالعقاب كما فى قوله تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) إلى أن قال (إنه كان حليماً غفوراً) (الرابع) يجوز أن يقال إنهم يستغفرون لكل من فى الأرض ، أما فى حق الكفار فبواسطة طلب الإيمان لهم ، وأما فى حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيئاتهم ، فانا

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

نقول اللهم اهد الكافرين وزين قلوبهم بنور الإيمان وأزل عن خواطرهم وحشة الكفر ، وهذا فى الحقيقة استغفار .

واعلم أن قوله (ويستغفرون لمن فى الأرض) يدل على أنهم لا يستغفرون لأنفسهم ، ولو كانوا مصرين على المعصية لكان استغفارهم لأنفسهم قبل استغفارهم لمن فى الأرض ، وحيث لم يذكر الله عنهم استغفارهم لأنفسهم علمنا أنهم مبرءون عن كل الذنوب والأنبياء عليهم السلام لهم ذنوب والذى لا ذنب له البتة أفضل ممن له ذنب وأيضاً فقوله (ويستغفرون لمن فى الأرض) يدل على أنهم يستغفرون للأنبياء لأن الأنبياء فى جملة من فى الأرض ، وإذا كانوا مستغفرين للأنبياء عليهم السلام كان الظاهر أنهم أفضل منهم .

ولما حكى الله تعالى عن الملائكة التسبيح والتحميد والاستغفار قال (ألا إن الله هو الغفور الرحيم) والمقصود التنبيه على أن الملائكة وإن كانوا يستغفرون للبشر إلا أن المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة للحق سبحانه وتعالى وبيانه من وجوه (الأول) أن إقدام الملائكة على طلب المغفرة للبشر من الله تعالى إنما كان لأن الله تعالى خلق فى قلوبهم داعية لطلب تلك المغفرة ، ولولا أن الله تعالى خلق فى قلوبهم تلك الدواعى وإلا لما أقدموا على ذلك الطلب وإذا كان كذلك كان الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله سبحانه وتعالى (الثانى) أن الملائكة قالوا فى أول الأمر (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) ثم فى آخر الأمر صاروا يستغفرون لمن فى الأرض ، وأما رحمة الحق وإحسانه فقد كان موجوداً فى الأول والآخر فثبت أن الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله تعالى (الثالث) أنه تعالى حكى عنهم أنهم يستغفرون لمن فى الأرض ولم يحك عنهم أنهم يطلبون الرحمة لمن فى الأرض فقال (ألا إن الله هو الغفور الرحيم) يعنى أنه يعطى المغفرة التى طلبوها ويضم إليها الرحمة الكاملة التامة .

ثم قال تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء) أى جعلوا له شركاء وأندادا (الله حفيظ عليهم) أى رقيب على أحوالهم وأعمالهم ، لا يفوته منها شىء وهو محاسبهم عليها لا رقيب عليهم إلا هو وحده وما أنت يا محمد بمفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان ، إنما أنت منذر فحسب .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون مالهم من ولى ولا نصير ، أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى وهو

جَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَالظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

يحي الموتى وهو على كل شيء قدير ، وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ، فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم ﴾

واعلم أن كلمة (ذلك) للاشارة إلى شيء سبق ذكره فقوله (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً) يقتضي تشبيه وحي الله بالقرآن بشيء ههنا قد سبق ذكره ، وليس ههنا شيء سبق ذكره يمكن تشبيه وحي القرآن به إلا قوله (والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل) يعني كما أوحينا إليك أنك لست حفيظاً عليهم ولست وكيلا عليهم ، فكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتكون نذيراً لهم وقوله تعالى (لتنذر أم القرى) أى لتنذر أهل أم القرى لأن البلد لا تعقل وهو كقوله (واسأل القرية) وأم القرى أصل القرى وهي مكة وسميت بهذا الاسم إجلالا لها لأن فيها البيت ومقام إبراهيم ، والعرب تسمى أصل كل شيء أمه حتى يقال هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان ، ومن حولها من أهل البدو والحضر وأهل المدر ، والإنذار التخريف ، فإن قيل فظاهر اللفظ يقتضي أن الله تعالى إنما أوحى إليه لينذر أهل مكة وأهل القرى المحيطة بمكة وهذا يقتضي أن يكون رسولا إليهم فقط وأن لا يكون رسولا إلى كل العالمين (والجواب) أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما سواه ، فهذه الآية تدل على كونه رسولا إلى هؤلاء

خاصة وقوله (وما أرسلناك إلا كافة للناس) يدل على كونه رسولا إلى كل العالمين ، وأيضاً لما ثبت كونه رسولا إلى أهل مكة وجب كونه صادقاً ، ثم إنه نقل إلينا بالتواتر كان يدعى أنه رسول إلى كل العالمين ، والصادق إذا أخبر عن شيء وجب تصديقه فيه ، فثبت أنه رسول إلى كل العاملين .

ثم قال تعالى (وتنذر يوم الجمع) الأصل أن يقال أنذرت فلاناً بكذا فكان الواجب أن يقال لتنذر أم القرى بيوم الجمع وأيضاً فيه اضمار والتقدير لتنذر أهل أم القرى بعذاب يوم الجمع وفى تسميته بيوم الجمع وجوه (الأول) أن الخلائق يجمعون فيه قال تعالى (يوم يجمعكم ليوم الجمع) فيجتمع فيه أهل السموات من أهل الأرض (الثانى) أنه يجمع بين الأرواح والأجساد (الثالث) يجمع بين كل عامل وعمله (الرابع) يجمع بين الظالم والمظلوم وقوله (لا ريب فيه) صفة ليوم الجمع الذى لاريب فيه ، وقوله (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) تقديره ليوم الجمع الذى من صفته يكون القوم فيه فريقين ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، فإن قيل قوله (يوم الجمع) يقتضى كون القوم مجتمعين وقوله (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) يقتضى كونهم متفرقين ، والجمع بين الصفتين محال ، قلنا إنهم يجتمعون أولا ثم يصيرون فريقين .

ثم قال (ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة) والمراد تقرير قوله (والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل) أى لا يكن فى قدرتك أن تحملهم على الإيمان ، فلو شاء الله ذلك لفعله لأنه أقدر منك ، ولكنه جعل البعض مؤمناً والبعض كافراً ، فقوله (يدخل من يشاء فى رحمته) يدل على أنه تعالى هو الذى أدخلهم فى الإيمان والطاعة ، وقوله (والظالمون مالهم من ولى ولا نصير) يعنى أنه تعالى ماأدخلهم فى رحمته ، وهذا يدل على أن الأولين إنما دخلوا فى رحمته ، لأنه كان لهم ولى ونصير أدخلهم فى تلك الرحمة ، وهؤلاء ماكان لهم ولى ولا نصير يدخلهم فى رحمته .

ثم قال تعالى (أم اتخذوا من دونه أولياء) والمعنى أنه تعالى حكى عنهم أولا أنهم اتخذوا من دونه أولياء ، ثم قال بعده لمحمد ﷺ لست عليهم رقيباً ولا حافظاً ، ولا يجب عليك أن تحملهم على الإيمان شاءوا أم أبوا ، فإن هذا المعنى لو كان واجباً لفعله الله ، لأنه أقدر منك ، ثم إنه تعالى أعاد بعده ذلك الكلام على سبيل الاستنكار ، فإن قوله (أم اتخذوا من دونه أولياء) استفهام على سبيل الإنكار .

ثم قال تعالى (فالله هو الولى) والفاء فى قوله (فالله هو الولى) جواب شرط مقدر ، كأنه قال : إن أرادو أولياء بحق فالله هو الولى بالحق لا ولى سواه ، لأنه يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ، فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من لايقدر على شيء .

ثم قال ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وجه النظم أنه تعالى كما منع الرسول ﷺ أن يحمل الكفار على الإيمان قهراً ، فكذلك منع المؤمنين أن يشرعوا معهم فى الخصومات والمنازعات فقال (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) وهو إثابة المحقين فيه ومعاقبة المبطلين ، وقيل وما اختلفتم فيه من شىء وتنازعتم فتحاكموا فيه إلى الرسول ﷺ ، ولا تؤثر حكومة غيره على حكومته ، وقيل وما وقع بينكم فيه خلاف من الأمور التى لا تصل بتكليفكم ، ولا طريق لكم إلى علمه ككيفية الروح ، فقولوا الله أعلم به ، قال تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تقدير الآية كأنه قال : قل يامحمد (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) والدليل عليه قوله تعالى (ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا قوله تعالى (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) إما أن يكون المراد فحكمه مستفاد من نص الله عليه ، أو المراد فحكمه مستفاد من القياس على مانص الله عليه ، والثانى باطل لأنه يقتضى كون كل الأحكام مثبتة بالقياس وأنه باطل فيعتبر الأول ، فوجب كون كل الأحكام مثبتة بالنص وذلك ينفى العمل بالقياس ، ولقائل أن يقول لم لا يجوز أن يكون المراد فحكمه يعرف من بيان الله تعالى ، سواء كان ذلك البيان بالنص أو بالقياس ؟ أجيب عنه بأن المقصود من التحاكم إلى الله قطع الاختلاف ، والرجوع إلى القياس يقوى حكم الاختلاف ولا يوضحه ، فوجب أن يكون الواجب هو الرجوع إلى نصوص الله تعالى .

ثم قال تعالى (ذلكم الله ربى) أى ذلكم الحاكم بينكم هو (ربى عليه توكلت) فى دفع كيد الأعداء وفى طلب كل خير (وإليه أنيب) أى وإليه أرجع فى كل المهمات ، وقوله (عليه توكلت) يفيد الحصر ، أى لا أتوكل إلا عليه ، وهو إشارة إلى تزييف طريقة من اتخذ غير الله ولياً .

ثم قال (فاطر السموات والأرض) قرىء بالرفع والجر ، فالرفع على أنه خبر ذلكم ، أو خبر مبتدأ محذوف ، والجر على تقدير أن يكون الكلام هكذا (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله فاطر السموات والأرض) وقوله (ذلكم الله ربى) اعتراض وقع بين الصفة والموصوف ، (جعل لكم من أنفسكم) من جنسكم من الناس (أزواجا ومن الأنعام أزوجا) أى خلق من الأنعام أزواجا ، ومعناه وخلق أيضاً للأنعام من أنفسها أزواجا .(يذرأكم) أى يكثركم ، يقال : ذرأ الله الخلق ، أى كثرهم ، وقوله (فيه) أى فى هذا التدبير ، وهو التزويج وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجا حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل ، والضمير فى (يذرؤكم) يرجع إلى المخاطبين ، إلى أنه غلب فيه جانب الناس من وجهين (الأول) أنه غلب فيه جانب العقلاء على غير العقلاء (الثانى) أنه غلب فيه جانب المخاطبين على الغائبين ، فإن قيل ما معنى يذرؤكم فى هذا التدبير ، ولم لم يقل يذرؤكم به ؟ قلنا جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن لهذا التكثير ، ألا ترى أنه يقال للحيوان فى خلق الازواج تكثير ، كما قال تعالى (ولكم فى القصاص حياة) .

قوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ وهذه الآية فيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج علماء التوحيد قديماً وحديثاً بهذه الآية فى نفى كونه تعالى جسما مركباً من الأعضاء والأجزاء وحاصلا فى المكان والجهة ، وقالوا لو كان جسما لكان مثلا لسائر الأجسام ، فيلزم حصول الأمثال والأشباه له ، وذلك باطل بصريح قوله تعالى (ليس كمثله شيء) ويمكن إيراد هذه الحجة على وجه آخر ، فيقال إما أن يكون المراد (ليس كمثله شيء) فى ماهيات الذات ، أو أن يكون المراد ليس كمثله فى الصفات شيء ، والثانى باطل ، لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين ، كما أن الله تعالى يوصف بذلك ، وكذلك يوصفون بكونهم معلومين مذكورين ، مع أن الله تعالى يوصف بذلك ، فثبت أن المراد بالمماثلة المساواة فى حقيقة الذات ، فيكون المعنى أن شيئاً من الذوات لا يساوى الله تعالى فى الذاتية ، فلو كان الله تعالى جسما ، لكان كونه جسما ذاتاً لا صفة ، فإذا كان سائر الأجسام مساوية له فى الجسمية ، أعنى فى كونها متحيزة طويلة عريضة عميقة ، ، فحينئذ تكون سائر الأجسام مماثلة لذات الله تعالى فى كونه ذاتاً ، والنص ينفى ذلك فوجب أن لا يكون جسما .

واعلم أن محمد بن إسحق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية فى الكتاب الذى سماه بالتوحيد ، وهو فى الحقيقة كتاب الشرك ، واعترض عليها ، وأنا أذكر حاصل كلامه بعد حذف التطويلات ، لأنه كان رجلا مضطرب الكلام ، قليل الفهم ، ناقص العقل ، فقال : « نحن نثبت لله وجهاً ونقول : إن لوجه ربنا من النور والضياء والبهاء ، مالو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره ، ووجه ربنا منفى عنه الهلاك والفناء ، ونقول إن لبنى آدم وجوهاً كتب الله عليها الهلاك والفناء ، ونفى عنها الجلال والإكرام ، غير موصوفة بالنور والضياء والبهاء ، ولو كان مجرد إثبات الوجه لله يقتضى التشبيه لكان من قال إن لبنى آدم وجوهاً وللخنازير والقردة والكلاب وجوهاً ، لكان قد شبه وجوه بنى آدم بوجوه الخنازير والقردة والكلاب . ثم قال : ولا شك أنه اعتقاد الجهمية لأنه لو قيل له : وجهك يشبه وجه الخنازير والقردة لغضب ولشافهه بالسوء ، فعلمنا أنه لا يلزم من إثبات الوجه واليدين لله إثبات التشبيه بين الله وبين خلقه » .

وذكر فى فصل آخر من هذا الكتاب «أن القرآن دل على وقوع التسوية بين ذات الله تعالى وبين خلقه فى صفات كثيرة ، ولم يلزم منها أن يكون القائل مشبهاً فكذا ههنا » ونحن نعد الصور التى ذكرها على الاستقصاء (فالأول) أنه تعالى قال فى هذه الآية (وهو السميع البصير) وقال فى حق الإنسان (فجعلناه سميعاً بصيراً) ، (الثانى) قال (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) وقال فى حق المخلوقين (أولم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء) ، (الثالث) قال (واصنع الفلك بأعيننا ، واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) وقال فى حق المخلوقين (ترى أعينهم تفيض من الدمع) (الرابع) قال لإبليس (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) وقال (بل يداه مبسوطتان) وقال

فى حق المخلوقين (ذلك بما قدمت أيديكم) ، (ذلك بما قدمت يداك) ، (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) ، (الخامس) قال تعالى (الرحمن على العرش استوى) وقال فى الذين يركبون الدواب (لتستووا على ظهوره) وقال فى سفينة نوح (واستوت على الجودى) (السادس) سمى نفسه عزيزا فقال (العزيز الجبار) ، ثم ذكر هذا الاسم فى حق المخلوقين بقوله (يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً ، يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) ، (السابع) سمى نفسه بالملك وسمى بعض عبيده أيضاً بالملك فقال (وقال الملك ائتونى به) وسمى نفسه بالعظيم ثم أوقع هذا الاسم على المخلوق فقال (رب العرش العظيم) وسمى نفسه بالجبار المتكبر وأوقع هذا الاسم على المخلوق فقال (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) ثم طول فى ضرب الأمثلة من هذا الجنس ، وقال ومن وقف على الأمثلة التى ذكرناها أمكنه الإكثار منها ، فهذا ما أورده هذا الرجل فى هذا الكتاب .

وأقول هذا المسكين الجاهل إنما وقع فى أمثال هذه الخرافات لأنه لم يعرف حقيقة المثلين وعلماء التوحيد حققوا الكلام فى المثلين ثم فرعوا عليه الاستدلال بهذه الآية ، فنقول المثلان هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر فى حقيقته وماهيته ، وتحقيق الكلام فيه مسبوق بمقدمة أخرى فنقول : المعتبر فى كل شىء ، إما تمام ماهيته وإما جزء من أجزاء ماهيته وإما أمر خارج عن ماهيته ، ولكنه من لوازم تلك الماهية ، وأما أمر خارج عن ماهيته ولكنه ليس من لوازم تلك الماهية وهذا التقسيم مبنى على الفرق بين ذات الشىء وبين الصفات القائمة به وذلك معلوم بالبديهة ، فانا نرى الحبة من الحصرم كانت فى غاية الخضرة والحموضة ثم صارت فى غاية السواد والحلاوة ، فالذات باقية والصفات مختلفة والذات الباقية مغايرة للصفات المختلفة ، وأيضاً نرى الشعر قد كان فى غاية السواد ثم صار فى غاية البياض ، فالذات باقية والصفات متبدلة والباقى غير المتبدل ، فظهر بما ذكرنا أن الذوات مغايرة للصفات . إذا عرفت هذا فنقول : اختلاف الصفات لا يوجب اختلاف الذوات البتة ، لأنا نرى الجسم الواحد كان ساكناً ثم يصير متحركا ، ثم يسكن بعد ذلك ، فالذوات باقية فى الأحوال كلها على نهج واحد ونسق واحد ، والصفات متعاقبة متزايلة ، فثبت بهذا أن اختلاف الصفات والأعراض لا يوجب اختلاف الذوات ، إذا عرفت هذا فنقول : الأجسام منها تألف وجه الكلب والقرد مساوية للأجسام التى تألف منها وجه الإنسان والفرس وإنما حصل الاختلاف بسبب الأعراض القائمة وهى الألوان والأشكال والخشونة والملاسة وحصول الشعور فيه وعدم حصولها ، فالاختلاف إنما وقع بسبب الاختلاف فى الصفات والأعراض ، فأما ذوات الأجسام فهى متماثلة إلا أن العوام لا يعرفون الفرق بين الذوات وبين الصفات ، فلا جرم يقولون إن وجه الإنسان مخالف لوجه الحمار ، ولقد صدقوا فإنه حصلت تلك بسبب الشكل واللون وسائر الصفات ، فأما الأجسام من حيث إنها أجسام فهى متماثلة متساوية ، فثبت أن الكلام

الذى أورده إنما ذكره لأجل أنه كان من العوام وما كان يعرف أن المعتبر فى التماثل والاختلاف حقائق الأشياء وماهياتها لا الأعراض والصفات القائمة بها ، بقى ههنا أن يقال فما الدليل على أن الأجسام كلها متماثلة ؟ فنقول لنا ههنا مقامان :

﴿المقام الأول﴾ أن نقول هذه المقدمة إما أن تكون مسلمة أولا تكون مسلمة ، فإن كانت مسلمة فقد حصل المقصود ، وإن كانت ممنوعة ، فنقول فلم لا يجوز أن يقال إله العالم هو الشمس أو القمر أو الفلك أو العرش أو الكرسى ، ويكون ذلك الجسم مخالفاً لماهية سائر الإجسام فكان هو قديماً أزلياً واجب الوجود وسائر الأجسام محدثة مخلوقة ، ولو أن الأولين والآخرين اجتمعوا على أن يسقطوا هذا الإلزام عن المجسمة لا يقدرون عليه ؟ فإن قالوا هذا باطل لأن القرآن دل على أن الشمس والقمر والأفلاك كلها محدثة مخلوقة فيقال هذا من باب الحماقة المفرطة لأن صحة القرآن وصحة نبوة الأنبياء مفرعة على معرفة الإله ، فإثبات معرفة الإله بالقرآن وقول النبى لا يقوله عاقل يفهم ما يتكلم به .

﴿والمقام الثانى﴾ أن علماء الأصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الأجسام فى الذوات والحقيقة ، وإذا ثبت هذا ظهر أنه لو كان إله العالم جسما لكانت ذاته مساوية لذوات الأجسام إلا أن هذا باطل بالعقل والنقل ، أما العقل فلأن ذاته إذا كانت مساوية لذوات سائر الأجسام وجب أن يصح عليه ما يصح على سائر الأجسام، فيلزم كونه محدثاً مخلوقاً قابلا للعدم والفناء قابلا للتفرق والتمزق . وأما النقل فقوله تعالى (ليس كمثله شيء) فهذا تمام الكلام فى تقرير هذا الدليل وعند هذا يظهر أنا لا نقول بأنه متى حصل الاستواء فى الصفة لزم حصول الاستواء فى تمام الحقيقة إلا أنا نقول لما ثبت أن الأجسام متماثلة فى تمام الماهية ، فلو كانت ذاته جسما لكان ذلك الجسم مساوياً لسائر الأجسام فى تمام الماهية ، وحينئذ يلزم أن يكون كل جسم مثلا له ، لما بينا أن المعتبر فى حصول المماثلة اعتبار الحقائق من حيث هى هى ، لا اعتبار الصفات القائمة بها فظهر بالتقرير الذى ذكرناه أن حجة أهل التوحيد فى غاية القوة ، وأن هذه الكلمات التى أوردها هذا الإنسان إنما أوردها لأنه كان بعيداً عن معرفة الحقائق ، فجرى على منهج كلمات العوام فاغتر بتلك الكلمات التى ذكرها ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة .

﴿المسألة الثانية﴾ فى ظاهر هذه الآية إشكال ، فإنه يقال المقصود منها نفى المثل عن الله تعالى وظاهرها يوجب إثبات المثل لله ، فانه يقتضى نفى المثل عن مثله لا عنه ، وذلك يوجب إثبات المثل لله تعالى ، وأجاب العلماء عنه بأن قالوا إن العرب تقول مثلك لا يبخل أى أنت لا تبخل فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عنه ، ويقول الرجل : هذا الكلام لا يقال لمثلى أى لا يقال لى قال الشاعر :

« ومثلى كمثل جذوع النخيل »

والمراد منه المبالغة فانه إذا كان ذلك الحكم منتفياً عمن كان مشابهاً بسبب كونه مشابهاً له ، فلأن يكون منتفياً عنه كان ذلك أولى ، ونظيره قولهم : سلام على المجلس العالى ، والمقصود أن سلام الله إذا كان واقعاً على مجلسه وموضعه فلأن يكون واقعاً عليه كان ذلك أولى . فكذا ههنا قوله تعالى (ليس كمثله شيء) والمعنى ليس كهو شيء على سبيل المبالغة من الوجه الذى ذكرناه ، وعلى هذا التقدير فلم يكن هذا اللفظ ساقطاً عديم الأثر ، بل كان مفيداً للمبالغة من الوجه الذى ذكرناه ، وزعم جهم بن صفوان إن المقصود من هذه الآية بيان أنه تعالى ليس مسمى باسم الشيء قال لأن كل شيء فانه يكون مثلا لمثل نفسه فقول (ليس كمثله شيء) معناه ليس مثل مثله شيء وذلك يقتضى أن لايكون هو مسمى باسم الشيء ، وعندى فيه طريقة أخرى ، وهى أن المقصود من ذكر الجمع بين حرفى التشبيه الدليل الدال على كونه منزها عن المثل ، وتقريره أن يقال لوكان له مثل لكان هو مثل نفسه ، وهذا محال فاثبات المثل له محال ، أما بيان أنه لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه فالأمر فيه ظاهر ، وأما بيان أن هذا محال فلأنه لوكان مثل مثل نفسه لكان مساوياً لمثله فى تلك الماهية ومباينا له فى نفسه ، ومابه المشاركة غيرمابه المباينة . فتكون ذات كل واحد منهما مركباً وكل مركب ممكن ، فثبت أنه لو حصل لواجب الوجود مثل لما كان هو فى نفسه واجب الوجود ، إذا عرفت هذا فقوله ليس مثل مثله شيء إشارة إلى أنه لو صدق عليه أنه مثل مثل نفسه لما كان هو شيئاً بناء على ما بينا أنه لو حصل لواجب الوجود مثل لما كان واجب الوجود ، فهذا ما يحتمله اللفظ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الآية دالة على نفى المثل وقوله تعالى (وله المثل الأعلى) يقتضى إثبات المثل فلابد من الفرق بينهما ، فنقول المثل هو الذى يكون مساوياً للشيء فى تمام الماهية والمثل هو الذى يكون مساوياً له فى بعض الصفات الخارجة عن الماهية وإن كان مخالفاً فى تمام الماهية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وهو السميع البصير) يدل على كونه تعالى سامعاً للمسموعات مبصراً للمرئيات ، فإن قيل يمتنع إجراء هذا اللفظ على ظاهره وذلك لأنه إذا حصل قرع أو قلع انقلب الهواء من بين ذينك الجسمين انقلاباً بعنف فيتموج الهواء بسبب ذلك ويتأدى ذلك التموج إلى سطح الصماخ فهذا هو السماع ، وأما الإبصار فهو عبارة عن تأثر الحدقة بصورة المرئى ، فثبت أن السمع والبصر عبارة عن تأثر الحاسة ، وذلك على الله محال ، فثبت أن إطلاق السمع والبصر على عله تعالى بالمسموعات والمبصرات غير جائز (والجواب) الدليل على أن السماع مغاير لتأثر الحاسة إنا إذا سمعنا الصوت علمنا أنه من أى الجوانب جاء فعلمنا أنا أدركنا الصوت حيث وجد ذلك الصوت فى نفسه ، وهذا يدل على أن إدراك الصوت حالة مغايرة لتأثير الصماخ عن تموج ذلك الهواء . وأما الرؤية فالدليل على أنها حالة مغايرة لتأثر الحدقة ، فذلك لأن نقطة الناظر جسم صغير فيستحيل انطباع الصورة العظيمة فيه ، فنقول الصورة المنطبعة صغيرة والصورة المرئية فى نفس العالم عظيمة ، وهذا يدل على أن الرؤية حالة مغايرة لنفس ذلك الانطباع ، وإذا ثبت هذا فنقول

شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ

لا يلزم من امتناع التأثر فى حق الله امتناع السمع والبصر فى حقه ، فإن قالوا هب أن السمع والبصر حالتان مغايرتان لتأثر الحاسة إلا أن حصولهما مشروط بحصول ذلك التأثر ، فلما كان حصول ذلك التأثر فى حق الله تعالى ممتنعاً كان حصول السمع والبصر فى حق الله ممتنعاً ، فنقول ظاهر قوله (وهو السميع البصير) يدل على كونه (سميعاً بصيراً) فلم يجز لنا أن نعدل عن هذا الظاهر إلا إذا قام الدليل على أن الحاسة المسماة بالسمع والبصر مشروطة بحصول التأثر ، والتأثر فى حق الله تعالى ممتنع ، فكان حصول الحاسة المسماة بالسمع والبصر ممتنعاً ، وأنتم المدعون لهذا الاشتراط فعليكم الدلالة على حصوله ، وإنما نحن متمسكون بظاهر اللفظ إلى أن تذكروا مايوجب العدول عنه ، فإن قال قائل قوله (وهو السميع البصير) يفيد الحصر ، فامعنى هذا الحصر ، مع أن العباد أيضاً موصوفون بكونهم سميعين بصيرين ؟ فنقول السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال ، والكمال فى كل الصفات ليس إلا لله ، فهذا هو المراد من هذا الحصر .

أما قوله تعالى (له مقاليد السموات والأرض) فاعلم أن المراد من الآية أنه تعالى (فاطر السموات والأرض) والأصنام ليست كذلك ، وأيضاً فهو خالق أنفسنا وأزواجنا وخالق أولادنا منا ومن أزواجنا ، والأصنام ليست كذلك ، وأيضاً (فله مقاليد السموات والأرض) والأصنام ليست كذلك ، والمقصود من الكل بيان القادر المنعم الكريم الرحيم ، فكيف يجوز جعل الأصنام التى هى جمادات مساوية له فى المعبودية ؟ فقوله (له مقاليد السموات والأرض) يريد مفاتيح الرزق من السموات والأرض ، فقاليد السموات الأمطار ، ومقاليد الأرض النبات ، وذكرنا تفسير المقاليد فى سورة الزمر عند قوله (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) لأن مفاتيح الأرزاق بيده (إنه بكل شىء) من البسط والتقدير (عليم) .

قوله تعالى : ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ، وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ولولا

أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب ، فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ، والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ، الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ومايدريك لعل الساعة قريب ، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ، الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما عظم وحيه إلى محمد ﷺ بقوله (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) ذكر فى هذه الآية تفصيل ذلك فقال (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا)

والمعنى شرع الله لكم ياأصحاب محمد من الدين ماوصى به نوحا ومحمداً وإبراهيم وموسى وعيسى ، هـذا هو المقصود من لفظ الآية ، وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة ، إلا أنه بقي في لفظ الآية اشكالات (أحدها) أنه قال في أول الآية (ماوصى به نوحا) وفي آخرها (وما وصينا به إبراهيم) وفي الوسط (والذى أوحينا إليك) فما الفائدة في هـذا التفاوت ؟ (وثانيها) أنه ذكر نوحا عليه السلام على سبيل الغيبة فقال (ماوصى به نوحا) والقسمين الباقيين على سبيل التكلم فقال (والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم) (وثالثها) أنه يصير تقدير الآية : شرع الله لكم من الدين الذى أوحينا إليك فقوله (شرع لكم) خطاب الغيبة وقوله (والذى أوحينا إليك) خطاب الحضور ، فهذا يقتضى الجمع بين خطاب الغيبة وخطاب الحضور في الكلام الواحد بالاعتبار الواحد ، وهو مشكل ، فهذه المضايق يجب البحث عنها والقوم ما داروا حولها ، وبالجملة فالمقصود من الآية أنه يقال شرع لكم من الدين ديناً تطابقت الأنبياء على صحته ، وأقول يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئاً مغايراً للتكاليف والأحكام ، وذلك لأنها مختلفة متفاوتة قال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع ، وهى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإيمان يوجب الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والسعى في مكارم الأخلاق والاحتراز عن رذائل الأحوال ، ويجوز عندى أن يكون المراد من قوله (ولا تتفرقوا) أى لاتتفرقوا بالآلهة الكثيرة ، كما قال يوسف عليه السلام (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) واحتج بعضهم بقوله (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا) على أن النبى ﷺ في أول الأمر كان مبعوثاً بشريعة نوح عليه السلام ، والجواب ما ذكرناه أنه عطف عليه سائر الأنبياء وذلك يدل على أن المراد هو الأخذ بالشريعة المتفق عليها بين الكل ، ومحل (أن أقيموا الدين) إما نصب بدل من مفعول (شرع) والمعطوفين عليه ، وإما رفع على الاستئناف كأنه قيل ماذاك المشروع ؟ فقيل هو إقامة الدين (كبر على المشركين) عظم عليهم وشق عليهم (ماتدعوهم إليه) من إقامة دين الله تعالى على سبيل الاتفاق والإجماع ، بدليل أن الكفار قالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج نفاة القياس بهذه الآية قالوا إنه تعالى أخبر أن أكابر الأنبياء أطبقوا على أنه يجب إقامة الدين بحيث لايفضى إلى الاختلاف والتنازع ، والله تعالى ذكر في معرض المنة على عباده أنه أرشدهم إلى الدين الخالى عن التفرق والمخالفة ومعلوم أن فتح باب القياس يفضى إلى أعظم أنواع التفرق والمنازعة ، فإن الحس شاهد بأن هؤلاء الذين بنوا دينهم على

الآخذ بالقياس تفرقوا تفرقاً لا رجاء فى حصول الاتفاق بينهم إلى آخر القيامة ، فوجب أن يكون ذلك محرماً ممنوعاً عنه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية تدل على أن هذه الشرائع قسمين منها ما يمتنع دخول النسخ والتغيير فيه ، بل يكون واجب البقاء فى جميع الشرائع والأديان ، كالقول بحسن الصدق والعدل والإحسان ، والقول بقبح الكذب والظلم والإيذاء ، ومنها مايختلف باختلاف الشرائع والأديان ، ودلت هذه الآية على أن سعى الشرع فى تقرير النوع الأول أقوى من سعيه فى تقرير النوع الثانى ، لأن المواظبة على القسم الأول مهمة فى اكتساب الأحوال المفيدة لحصول السعادة فى الدار الآخرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) مشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب فى الشرع والعقل ، وبيان منفعته من وجوه (الأول) أن للنفوس تأثيرات ، وإذا تطابقت النفوس وتوافقت على واحد قوى التأثير (الثانى) أنها إذا توافقت صار كل واحد منها معيناً للآخر فى ذلك المقصود المعين ، وكثرة الأعوان توجب حصول المقصود ، أما إذا تخالفت تنازعت وتجادلت فضعفت فلا يحصل المقصود (الثالث) أن حصول التنازع ضد مصلحة العالم لأن ذلك يفضى إلى الهرج والمرج والقتل والنهب ، فلهذا السبب أمر الله تعالى فى هذه الآية بإقامة الدين على وجه لا يفضى إلى التفرق وقال فى آية أخرى (ولا تنازعوا فتفشلوا) .

ثم قال تعالى (الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب) وفيه وجهان (الأول) أنه تعالى لما أرشد أمة محمد ﷺ إلى التمسك بالدين المتفق عليه بين أنه تعالى إنما أرشدهم إلى هذا الخير ، لأنه اجتباهم واصطفاهم وخصهم بمزيد الرحمة والكرامة (الثانى) أنه إنما كبر عليهم هذا الدعاء من الرسل لما فيه من الانقياد لهم تكبراً وأنفة فبين تعالى أنه يخص من يشاء بالرسالة ويلزم الانقياد لهم ، ولا يعتبر الحسب والنسب والغنى ، بل الكل سواء فى أنه يلزمهم اتباع الرسل الذين اجتباهم الله تعالى ، واشتقاق لفظ الاجتباء يدل على الضم والجمع ، فمنه جبى الخراج واجتباه وجبى الماء فى الحوض فقوله (الله يجتبى إليه) أى يضمه إليه ويقربه منه تقريب الإكرام والرحمة ، وقوله (من يشاء) كقوله تعالى (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء) .

ثم قال (ويهدى إليه من ينيب) وهو كما روى فى الخبر من « تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » أى من أقبل إلى بطاعته أقبلت إليه بهدايتى وإرشادى بأن أشرح له صدره وأسهل أمره .

واعلم أنه تعالى لما بين أنه أمر كل الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه ، كان لقائل أن يقول : فلماذا نجدهم متفرقين ؟ فأجاب الله تعالى عنهم بقوله (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) يعنى أنهم ماتفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة ، ولكنهم فعلوا ذلك للبغى

وطلب الرياسة لحملتهم الحمية النفسانية والأنفة الطبيعة ، على أن ذهب كل طائفة إلى مذهب ودعا الناس إليه وقبح ما سواه طلباً للذكر والرياسة ، فصار ذلك سبباً لوقوع الاختلاف ، ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل ، إلا أنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب ، لأن لكل عذاب عنده أجلا مسمى ، أى وقتاً معلوماً ، إما لمحض المشيئة كما هو قولنا ، أو لأنه علم أن الصلاح تحقيقه به كما عند المعتزلة ، وهو معنى قوله (ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم) والأجل المسمى قد يكون فى الدنيا وقد يكون فى القيامة ، واختلفوا فى الذين أريدوا بهذه الصفة من هم ؟ فقال الأكثرون هم اليهود والنصارى ، والدليل قوله تعالى فى آل عمران (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم) وقال فى سورة لم يكن (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة) ولأن قوله (إلا من بعد ماجاءهم العلم) لائق بأهل الكتاب ، وقال آخرون : إنهم هم العرب ، وهذا باطل للوجوه المذكورة ، لأن قوله تعالى بعد هذه الآية (وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم) لايليق بالعرب ، لأن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ، هم أهل الكتاب الذين كانوا فى عهد رسول الله ﷺ (لفى شك منه) من كتابهم (مريب) لايؤمنون به حق الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ﴾ يعنى فلأجل ذلك التفرق ولأجل ما حدث من الاختلافات الكثيرة فى الدين ، فادع إلى الاتفاق على الملة الحنيفية واستقم عليها وعلى الدعوة إليها ، كما أمرك الله ، ولا تتبع أهواءهم المختلفة الباطلة (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) أى بأى كتاب صح أن الله أنزله ، يعنى الإيمان بجميع الكتب المنزلة ، لأن المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، ونظيره قوله (نؤمن ببعض ونكفر ببعض) إلى قوله (أولئك هم الكافرون) ثم قال (وأمرت لأعدل بينكم) أى فى الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إلى ، قال القفال : معناه أن ربى أمرنى أن لاأفرق بين نفسى وأنفسكم بأن آمركم بما لاأعمله ، أو أخالفكم إلى مانهيتكم عنه ، لكنى أسوى بينكم وبين نفسى ، وكذلك أسوى بين أكابركم وأصاغركم فيما يتعلق بحكم الله .

ثم قال (الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لاحجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير) والمعنى أن إله الكل واحد ، وكل واحد مخصوص بعمل نفسه ، فوجب أن يشتغل كل واحد فى الدنيا بنفسه ، فإن الله يجمع بين الكل فى يوم القيامة ويجازيه على عمله ، والمقصود منه المتاركة واشتغال كل أحد بمهم نفسه ، فإن قيل كيف يليق بهذه المتاركة مافعل بهم من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء ؟ قلنا هذه المتاركة كانت مشروطة بشرط أن يقبلوا الدين المتفق على صحته بين كل الأنبياء ، ودخل فيه التوحيد ، وترك عبادة الأصنام ، والإقرار بنبوة الأنبياء ، وبصحة البعث والقيامة ، فلما لم يقبلوا هذا الدين ، فحينئذ فات الشرط ، فلا جرم فات المشروط .

واعلم أنه ليس المراد من قوله (لاحجة بيننا وبينكم) تحريم مايجرى مجرى محاجتهم ، ويدل عليه وجوه (الأول) أن هذا الكلام مذكور فى معرض المحاجة ، فلو كان المقصود من هذه الآية تحريم المحاجة ، لزم كونها محرمة لنفسها وهو متناقض (والثانى) أنه لولا الأدلة لما توجه التكليف (الثالث) أن الدليل يفيد العلم وذلك لايمكن تحريمه ، بل المراد أن القوم عرفوا بالحجة صدق محمد ﷺ ، وإنما تركوا تصديقه بغياً وعناداً ، فبين تعالى أنه قد حصل الاستغناء عن محاجتهم لأنهم عرفوا بالحجة صدقه فلا حاجة معهم إلى المحاجة البتة ، ومما يقوى قولنا : أنه لايجوز تحريم المحاجة ، قوله (وجادلهم بالتى هى أحسن) وقوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك) وقوله (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) وقوله (يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) وقوله (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) .

قوله تعالى : ﴿ والذين يحاجون فى الله ﴾ أى يخاصمون فى دينه (من بعد ما استجيب له) أى من بعد ما استجاب الناس لذلك الدين (حجتهم داحضة) أى باطلة وتلك المخاصمة هى أن اليهود قالوا ألستم تقولون إن الأخذ بالمتفق أولى من الأخذ بالمختلف ؟ فنبوة موسى وحقية التوراة معلومة بالاتفاق ، ونبوة محمد ليست متفقاً عليها ، فإذا بنيتم كلامكم فى هذه الآية على أن الأخذ بالمتفق أولى ، وجب أن يكون الأخذ باليهودية أولى ، فبين تعالى أن هذه الحجة داحضة ، أى باطلة فاسدة ، وذلك لأن اليهود أطبقوا على أنه إنما وجب الإيمان بموسى عليه السلام لأجل ظهور المعجزات على وفق قوله ، وههنا ظهرت المعجزات على وفق قول محمد عليه السلام ، واليهود شاهدوا تلك المعجزات ، فإن كان ظهور المعجزة يدل على الصدق ، فههنا يجب الاعتراف بنبوة محمد ﷺ ، وإن كان لايدل على الصدق وجب فى حق موسى أن لا يقروا بنبوته . وأما الإقرار بنبوة موسى والإصرار على إنكار نبوة محمد مع استوائهما فى ظهور المعجزة يكون متناقضاً ، ولما قرر الله هذه الدلائل خوف المنكرين بعذاب القيامة ، فقال (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب) والمعنى أنه تعالى أنزل الكتاب المشتمل على أنوع الدلائل والبينات ، وأنزل الميزان وهو الفصل الذى هو القسطاس المستقيم ، وأنهم لا يعلمون أن القيامة متى تفاجئهم ومتى كان الأمر كذلك ، وجب على العاقل أن يجد ويجتهد فى النظر والاستدلال ، ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد ، ولما كان الرسول يهددهم بنزول القيامة وأكثر فى ذلك ، وأنهم ما رأوا منه أثراً قالوا على سبيل السخرية : فمتى تقوم القيامة ، وليتها قامت حتى يظهر لنا أن الحق ما نحن عليه أو الذى عليه محمد وأصحابه ، فلدفع هذه الشبهة قال تعالى (يستعجل بها الذين لايؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها) والمعنى ظاهر ، وإنما يشفقون ويخافون لعلمهم أن عندها تمتنع التوبة ، وأما منكر البعث فلأن لايحصل له هذا الخوف .

ثم قال (ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد) والممارة الملاجة ، قال الزجاج : الذين

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ

تدخلهم المرية والشك فى وقوع الساعة ، فيمارون فيها ويجحدون (لفى ضلال بعيد) لأن استيفاء حق المظلوم من الظالم واجب فى العدل ، فلو لم تحصل القيامة لزم إسناد الظلم إلى الله تعالى ، وهذا من أمحل المحالات ، فلا جرم كان إنكار القيامة ضلالا بعيداً .

ثم قال (الله لطيف بعباده) أى كثير الإحسان بهم ، وإنما حسن ذكر هذا الكلام ههنا لأنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة ، فكان ذلك من لطف الله بعباده ، وأيضاً المتفرقون استوجبوا العذاب الشديد ، ثم إنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب فكان ذلك أيضاً من لطف الله تعالى ، فلما سبق ذكر إيصال أعظم المنافع إليهم ودفع أعظم المضار عنهم ، لا جرم حسن ذكره ههنا ، ثم قال (يرزق من يشاء) يعنى أن أصل الإحسان والإنعام فى حق كل العباد ، وذلك هو الإحسان بالحياة والعقل والفهم ، وإعطاء ما لا بد منه من الرزق ، ودفع أكثر الآفات والبليات عنهم ، فأما مراتب العطية والبهجة فمتفاوتة مختلفة .

ثم قال (وهو القوى) أى القادر على كل ما يشاء (العزيز) الذى لا يغالب ولا يدافع .

قوله تعالى : ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ، أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم وإن الظالمين فى عذاب أليم ، ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك الفضل الكبير ، ذلك

فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور ، أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشإ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور ، وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين كونه لطيفاً بعباده كثير الإحسان إليهم بين أنه لابد لهم من أن يسعوا فى طلب الخيرات وفى الاحتراز عن القبائح فقال (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه) قال صاحب الكشاف إنه تعالى سمى مايعمله العامل مما يطلب به الفائدة حرثاً على سبيل المجاز وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى أظهر الفرق فى هذه الآية بين من أراد الآخرة وبين من أراد الدنيا من وجوه (الأول) أنه قدم مريد حرث الآخرة فى الذكر على مريد حرث الدنيا ، وذلك يدل على التفضيل ، لأنه وصفه بكونه آخرة ثم قدمه فى الذكر تنبيهاً على قوله «نحن الآخرون السابقون» (الثانى) أنه قال فى مريد حرث الآخرة (نزد له فى حرثه) وقال فى مريد حرث الدنيا (نؤته منها) وكلمة من للتبعيض ، فالمعنى أنه يعطيه بعض مايطلبه ولا يؤتيه كله ، وقال فى سورة بنى إسرائيل (عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد) وأقول البرهان العقلى مساعد على البابين ، وذلك لأن كل من عمل للآخرة وواظب على ذلك العمل ، فكثرة الأعمال سبب لحصول الملكات ، فكل من كانت مواظبته على تلك الأعمال أكثر كان ميل قلبه إلى طلب الآخرة أكثر ، وكلما كان الأمر كذلك كان الابتهاج أعظم والسعادات أكثر ، وذلك هو المراد بقوله (نزد له فى حرثه) وأما طالب الدنيا فكلما كانت مواظبته على أعمال ذلك الطلب أكثر كانت رغبته فى الفوز بالدنيا أكثر وميله إليها

أشد ، وإذا كان الميل أبداً فى التزايد ، وكان حصول المطلوب باقياً على حالة واحدة كان الحرمان لازماً لامحالة (الثالث) أنه تعالى قال فى طالب حرث الآخرة (نزد له فى حرثه) ولم يذكر أنه تعالى يعطيه الدنيا أم لا ، بل بقى الكلام ساكتاً عنه نفياً وإثباتاً ، وأما طالب حرث الدنيا فانه تعالى بين أنه لايعطيه شيئاً من نصيب الآخرة على التنصيص ، وهذا يدل على التفاوت العظيم كأنه يقول الآخرة أصل والدنيا تبع ، فواجد الأصل يكون واجداً للتبع بقدر الحاجة ، إلا أنه لم يذكر ذلك تنبيهاً على أن الدنيا أخس من أن يقرن ذكرها بذكر الآخرة (والرابع) أنه تعالى بين أن طالب الآخرة يزاد فى مطلوبه ، وبين أن طالب الدنيا يعطى بعض مطلوبه من الدنيا ، وأما فى الآخرة فإنه لايحصل له نصيب البتة ، فبين بالكلام الأول أن طالب الآخرة يكون حاله أبداً فى الترقى والتزايد وبين بالكلام الثانى أن طالب الدنيا يكون حاله فى المقام الأول فى النقصان وفى المقام الثانى فى البطلان التام (الخامس) أن الآخرة نسيئة والدنيا نقد والنسيئة مرجوحة بالنسبة إلى النقد ، لأن الناس يقولون النقد خير من النسيئة فبين تعالى أن هذه القضية انعكست بالنسبة إلى أحوال الآخرة والدنيا ، فالآخرة وإن كانت نقداً إلا أنها متوجهة للزيادة والدوام فكانت أفضل وأكمل ، والدنيا وإن كانت نقداً إلا أنها متوجهة إلى النقصان ثم إلى البطلان فكانت أخس وأرذل ، فهذا يدل على أن حال الآخرة لايناسب حال الدنيا البتة ، وأنه ليس فى الدنيا من أحوال الآخرة إلا مجرد الاسم كما هو مروى عن ابن عباس (السادس) الآية دالة على أن منافع الآخرة والدنيا ليست حاضرة بل لابد فى البابين من الحرث ، والحرث لا يتأتى إلا بتحمل المشاق فى البذر ثم التسقية والتنمية والحصد ثم التنقية ، فلما سمى الله كلا القسمين حرثاً علمنا أن كل واحد منهما لايحصل إلا بتحمل المتاعب والمشاق ، ثم بين تعالى أن مصير الآخرة إلى الزيادة والكمال وإن مصير الدنيا إلى النقصان ثم الفناء ، فكأنه قيل إذا كان لابد فى القسمين جميعاً من تحمل متاعب الحراثة والتسمية والتنمية والحصد والتنقية ، فلأن تصرف هذه المتاعب إلى مايكون فى التزايد والبقاء أولى من صرفها إلى ما يكون فى النقصان والانقضاء والفناء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى تفسير قوله (نزد له فى حرثه) قولان (الأول) المعنى أنا نزيد فى توفيقه وإعانته وتسهيل سبل الخيرات والطاعات عليه ، وقال مقاتل (نزد له فى حرثه) بتضعيف الثواب ، قال تعالى (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أصبح وهمه الدنيا شتت الله تعالى عليه همه وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلى ما كتب له ، ومن أصبح همه الآخرة جمع الله همه وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى رغمة عن أنفها » أو لفظا يقرب من أن يكون هذا معناه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ظاهر اللفظ يدل على أن من صلى لأجل طلب الثواب أو لأجل دفع العقاب فإنه تصح صلاته ، وأجمعوا على أنها لاتصح (والجواب) أنه تعالى قال (من كان يريد حرث

الآخرة) والحرث لا يتأتى إلا بإلقاء البذر الصحيح فى الأرض ، والبذر الصحيح لجميع الخيرات والسعادات ليس إلا عبودية الله تعالى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال أصحابنا إذا توضأ بغير نية لم يصح ، قالوا لأن هذا الإنسان ما أراد حرث الآخرة ، لأن الكلام فيما إذا كان غافلا عن ذكر الله وعن الآخرة ، فوجب أن لا يحصل له نصيب فيما يتعلق بالآخرة والخروج عن عهدة الصلاة من باب منافع الآخرة ، فوجب أن لا يحصل فى الوضوء العارى عن النية .

واعلم أن الله تعالى لما بين القانون الأعظم والقسطاس الأقوم فى أعمال الآخرة والدنيا أردفه بالتنبيه على ما هو الأصل فى باب الضلالة والشقاوة فقال (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) ومعنى الهمزة فى أم التقرير والتقريع و (شركاؤهم) شياطينهم الذين زينوا الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا لأنهم لا يعلمون غيرها ، وقيل (شركاؤهم) أوثانهم ، وإنما أضيفت إليهم لأنهم هم الذين اتخذوها شركاء لله ، ولما كان سبباً لضلالتهم جعلت شارعة لدين الضلالة كما قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) وقوله (شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) يعنى أن تلك الشرائع بأسرها على ضد دين الله ، ثم قال (ولولا كلمة الفصل) أى القضاء السابق بتأخير الجزاء ، أو يقال ولولا الوعد بأن الفصل أن يكون يوم القيامة (لقضى بينهم) أى بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم (وإن الظالمين لهم عذاب أليم) وقرأ بعضهم ، وأن بفتح الهمزة فى أن عطفاً له على كلمة الفصل يعنى (ولولا كلمة الفصل) وأن تقريره تعذيب الظالمين فى الآخرة (لقضى بينهم) فى الدنيا ثم إنه تعالى ذكر أحوال أهل العقاب وأحوال أهل الثواب ، (الأول) فهو قوله (ترى الظالمين مشفقين) خائفين خوفا شديداً (مما كسبوا) من السيئات (وهو واقع بهم) يريد أن وباله واقع بهم سواء أشفقوا أو لم يشفقوا ، وأما (الثانى) فهو أحوال أهل الثواب وهو قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات) لأن روضة الجنة أطيب بقعة فيها ، وفى الآية تنبيه على أن الفساق من أهل الصلاة كلهم فى الجنة ، إلا أنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات ، وهى البقاع الشريفة من الجنة ، فالبقاع التى دون تلك الروضات لابد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم قال (لهم مايشاءون عند ربهم) وهذا يدل على أن كل الأشياء حاضرة عنده مهيأة ، ثم قال تعالى فى تعظيم هذه الدرجة (ذلك هو الفضل الكبير) وأصحابنا استدلوا بهذه الآية على أن الثواب غير واجب على الله ، وإنما يحصل بطريق الفضل من الله تعالى لأنه تعالى قال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم مايشاءون عند ربهم) فهذا يدل على أن روضات الجنات ووجدان كل مايريدونه إنما كان جزاء على الإيمان والأعمال الصالحات .

ثم قال تعالى (ذلك هو الفضل الكبير) وهذا تصريح بأن الجزاء المرتب على العمل إنما حصل بطريق الفضل لا بطريق الاستحقاق .

ثم قال (ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال صاحب الكشاف قرىء (يبشر) من بشره (ويبشر) من أبشره (ويبشر) من بشره .

واعلم أن هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه : (الأول) أن الله سبحانه رتب على الإيمان وعمل الصالحات روضات الجنات ، والسلطان الذى هو أعظم الموجودات وأكرمهم إذا رتب على أعمال شاقة جزاء ، دل ذلك على أن ذلك الجزاء قد بلغ إلى حيث لا يعلم كنهه إلا الله تعالى (الثانى) أنه تعالى قال (لهم مايشاءون عند ربهم) وقوله (لهم مايشاءون) يدخل فى باب غير المتناهى لأنه لادرجة إلا والإنسان يريد ماهو أعلى منها (الثالث) أنه تعالى قال (ذلك هو الفضل الكبير) والذى يحكم بكبره من له الكبرياء والعظمة على الإطلاق كان فى غاية الكبر (الرابع) أنه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم فقال (الذى يبشر الله عباده) وذلك يدل أيضاً على غاية العظمة ، نسأل الله الفوز بها والوصول اليها .

واعلم أنه تعالى لما أوحى إلى محمد ﷺ هذا الكتاب الشريف العالى وأودع فيه الثلاثة أقسام الدلائل وأصناف التكاليف ، ورتب على الطاعة الثواب ، وعلى المعصية العقاب ، بين أنى لا أطلب منكم بسبب هذا التبليغ نفعاً عاجلا ومطلوباً حاضراً ، لئلا يتخيل جاهل أن مقصود محمد ﷺ من هذا التبليغ المال والجاه فقال ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر الناس فى هذه الآية ثلاثة أقوال :

﴿الأول﴾ قال الشعبى أكثر الناس علينا فى هذه الآية ، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان واسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده فقال الله (قل لا أسألكم) على ما أدعوكم إليه (أجراً إلا) أن تودونى لقرابتى منكم ، والمعنى أنكم قومى وأحق من أجابنى وأطاعنى ، فاذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذونى ولا تهيجوا على .

﴿والقول الثانى﴾ روى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كانت تعروه نوائب وحقوق وليس فى يده سعة ، فقال الأنصار إن هذا الرجل قد هداكم الله على يده وهو ابن أختكم وجاركم فى بلدكم ، فاجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوا ثم أتوه به فرده عليهم ، فنزل قوله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجراً) أى على الإيمان إلا أن تودوا أقاربى فحثهم على مودة أقاربه .

﴿ القول الثالث ﴾ ما ذكره الحسن فقال : إلا أن تودوا إلى الله فيما يقربكم إليه من التودد إليه بالعمل الصالح ، فالقربى على القول الأول القرابة التى هى بمعنى الرحم وعلى الثانى القرابة التى هى بمعنى الأقارب ، وعلى الثالث هى فعلى من القرب والتقريب ، فإن قيل الآية مشكلة ، ذلك لأن طلب الأجر على تبليغ الوحى لا يجوز ويدل عليه وجوه :

(الأول) أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء عليهم السلام : أنهم صرحوا بنفى طلب الأجرة ، فذكر فى قصة نوح عليه السلام (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) وكذا فى قصة هود وصالح ، وفى قصة لوط وشعيب عليهم السلام ، ورسولنا أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فكان بأن لا يطلب الأجر على النبوة والرسالة أولى (الثانى) أنه صلى الله عليه وسلم صرح بنفى طلب الأجر فى سائر الآيات فقال (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم) وقال (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) (الثالث) العقل يدل عليه وذلك لأن ذلك التبليغ كان واجباً عليه قال تعالى (بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق بأقل الناس فضلا عن أعلم العلماء . (الرابع) أن النبوة أفضل من الحكمة وقد قال تعالى فى صفة الحكمة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وقال فى صفة الدنيا (قل متاع الدنيا قليل) فكيف يحسن فى العقل مقابلة أشرف الأشياء بأخس الأشياء (الخامس) أن طلب الأجر كان يوجب التهمة ، وذلك ينافى القطع بصحة النبوة ، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز من النبى ﷺ أن يطلب أجراً البتة على التبليغ والرسالة ، وظاهر هذه الآية يقتضى أنه طلب أجراً على التبليغ والرسالة ، وهو المودة فى القربى هذا تقرير السؤال . (والجواب عنه) أنه لا نزاع فى أنه لا يجوز طلب الأجر على التبليغ والرسالة ، بقى قوله (إلا المودة فى القربى) نقول الجواب عنه من وجهين (الأول) أن هذا من باب قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهـا من قراع الدارعين فلول

المعنى أنا لا أطلب منكم إلا هذا . وهذا فى الحقيقة ليس أجراً لأن حصول المودة بين المسلمين أمر واجب قال تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وقال صلى الله عليه وسلم «المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً » والآيات والأخبار فى هذا الباب كثيرة وإذا كان حصول المودة بين جمهور المسلمين واجباً فحصولها فى حق أشرف المسلمين وأكابرهم أولى ، وقوله تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) تقديره والمودة فى القربى ليست أجراً ، فرجع الحاصل إلى أنه لا أجر البتة (الوجه الثانى) فى الجواب أن هذا استثناء منقطع ، وتم الكلام عند قوله (قل لا أسألكم عليه أجراً) .

ثم قال (إلا المودة فى القربى) أى لكن أذكركم قرابتى منكم وكأنه فى اللفظ أجر وليس بأجر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نقل صاحب الكشاف عن النبى ﷺ أنه قال « من مات على حب آل محمد

مات شهيداً . ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله ، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً ، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة » هذا هو الذي رواه صاحب الكشاف ، وأنا أقول : آل محمد ﷺ هم الذين يؤول أمرهم إليه فكل من كان أمرهم إليه اشد وأكمل كانوا هم الآل ، ولا شك أن فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله ﷺ أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل ، وأيضاً اختلف الناس في الآل فقيل هم الأقارب وقيل هم أمته ، فإن حملناه على القرابة فهم الآل ، وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل فثبت أن على جميع التقديرات هم الآل ، وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل ؟ فمختلف فيه . وروى صاحب الكشاف أنه لما نزلت هذه الآية قيل يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ؟ فقال علي وفاطمة وأبناهما ، فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبي ﷺ وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم ويدل عليه وجوه : (الأول) قوله تعالى (إلا المودة في القربى) ووجه الاستدلال به ما سبق (الثاني) لا شك أن النبي ﷺ كان يحب فاطمة عليها السلام قال صلى الله عليه وسلم « فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها » وثبت بالنقل المتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب علياً والحسن والحسين وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله (واتبعوه لعلكم تهتدون) ولقوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) ولقوله (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ولقوله سبحانه (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (الثالث) أن الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة وهو قوله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمداً وآل محمد ، وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل ، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب ، وقال الشافعي رضي الله عنه :

يا راكباً قف بالمحصب من منى	واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى	فيضاً كما نظم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمد	فليشهد الثقلان أني رافضي

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (إلا المودة في القربى) فيه منصب عظيم للصحابة لأنه تعالى قال : (والسابقون السابقون أولئك المقربون) فكل من أطاع الله كان مقرباً عند الله تعالى فدخل

تحت قوله (إلا المودة فى القربى) والحاصل أن هذه الآية تدل على وجوب حب آل رسول الله ﷺ وحب أصحابه ، وهذا المنصب لا يسلم إلا على قول أصحابنا أهل السنة والجماعة الذين جمعوا بين حب العترة والصحابة ، وسمعت بعض المذكرين قال إنه ﷺ قال «مثل أهل بيتى كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا » وقال ﷺ « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ونحن الآن فى بحر التكليف وتضربنا أمواج الشبهات والشهوات وراكب البحر يحتاج إلى أمرين (أحدهما) السفينة الخالية عن العيوب والثقب (والثانى) الكواكب الظاهرة الطالعة النيرة ، فاذا ركب تلك السفينة ووقع نظره على تلك الكواكب الظاهرة كان رجاء السلامة غالباً ، فكذلك ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة فرجوا من الله تعالى أن يفوزوا بالسلامة والسعادة فى الدنيا والآخرة .

ولنرجع إلى التفسير : أورد صاحب الكشاف على نفسه سؤالا فقال : هلا قيل إلا مودة القربى ، أو إلا مودة للقربى ، وما معنى قوله (إلا المودة فى القربى) ؟ وأجاب عنه بأن قال جعلوا مكاناً للمودة ومقراً لها كقوله لى فى آل فلان مودة ولى فيهم هوى وحب شديد ، تريد أحبهم وهم مكان حبى ومحله .

ثم قال تعالى (ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا) قيل نزلت هذه الآية فى أبى بكر رضى الله عنه ، والظاهر العموم فى أى حسنة كانت ، إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودة فى القربى دل ذلك على أن المقصود التأكيد فى تلك المودة .

ثم قال تعالى (إن الله غفور شكور) والشكور فى حق الله تعالى مجاز والمعنى أنه تعالى يحسن إلى المطيعين فى إيصال الثواب إليهم وفى أن يزيد عليه أنواعاً كثيرة من التفضيل .

وقال تعالى (أم يقولون افترى على الله كذباً) واعلم أن الكلام فى أول السورة إنما ابتدىء فى تقرير أن هذا الكتاب إنما حصل بوحى الله وهو قوله تعالى (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) واتصل الكلام فى تقرير هذا المعنى وتعلق البعض بالبعض حتى وصل إلى ههنا ، ثم حكى ههنا شبهة القوم وهى قولهم : إن هذا ليس وحياً من الله تعالى فقال (أم يقولون افترى على الله كذباً) قال صاحب الكشاف أم منقطعة ، ومعنى الهمزة نفس التوبيخ كأنه قيل : أيقع فى قلوبهم ويجرى فى ألسنتهم أن ينسبوا مثـــله إلى الافتراء على الله الذى هو أقبح أنواع الفرية وأفحشها ، ثم أجاب عنه بأن قال (فإن يشإ الله يختم على قلبك) وفيه وجوه (الأول) قال مجاهد يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم إنه مفتر كذاب (والثانى) يعنى بهذا الكلام أنه إن يشإ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى يفترى عليه الكذب فانه لا يجترىء على افتراء الكذب على الله إلا من كان فى مثل هذه الحالة ، والمقصود من ذكر هذا الكلام المبالغة فى تقرير الاستبعاد ، ومثاله أن ينسب رجل بعض الأمناء إلى الخيانة فيقول

الأمين ، لعل الله خذلني لعل الله أعمى قلبي ، وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب لنفسه ، وإنما يريد استبعاد صدور الخيانة عنه .

ثم قال تعالى (ويمح الله الباطل ويحق الحق) أى ومن عادة الله إبطال الباطل وتقرير الحق فلو كان محمد مبطلا كذاباً لفضحه الله ولكشف عن باطله ولما أيده بالقوة والنصرة ، ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنه ليس من الكاذبين المفترين على الله ، ويجوز أن يكون هذا وعداً من الله لرسوله بأنه يمحو الباطل الذى هم عليه من البهت والفرية والتكذيب ويثبت الحق الذى كان محمد صلى الله عليه وسلم عليه .

ثم قال (إنه عليم بذات الصدور) أى إن الله عليم بما فى صدرك وصدورهم فيجرى الأمر على حسب ذلك ، وعن قتادة يختم على قلبك ينسيك القرآن ويقطع عنك الوحى ، بمعنى لو افترى على الله الكذب لفعل الله به ذلك .

واعلم أنه تعالى لما قال (أم يقولون افترى على الله كذباً) ثم برأ رسوله مما أضافوه إليه من هذا وكان من المعلوم أنهم قد استحقوا بهذه الفرية عقاباً عظيما ، لاجرم ندبهم الله إلى التوبة وعرفهم أنه يقبلها من كل مسىء وإن عظمت إساءته ، فقال ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴾ وفى هذه الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف يقال قبلت منه الشىء وقبلته عنه ، فمعنى قبلته منه أخذته منه وجعلته مبدأ قبول ومنشأه ، ومعنى قبلته عنه أخذته وأثبته عنه وقد سبق البحث المستقصى عن حقيقة التوبة فى سورة البقرة ، وأقل مالابد منه الندم على الماضى والترك فى الحال والعزم على أن لا يعود إليه فى المستقبل ، وروى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك وكبر ، فلما فرغ من صلاته قال له على عليه السلام ياهذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين فتوبتك تحتاج إلى توبة ، فقال يا أمير المؤمنين وما التوبة ؟ فقال اسم يقع على ستة أشياء على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة يجب على الله تعالى عقلا قبول التوبة ، وقال أصحابنا لا يجب على الله شىء وكل مايفعله فإنما يفعله بالكرم والفضل ، واحتجوا على صحة مذهبهم بهذه الآية فقالوا إنه تعالى تمدح بقبول التوبة ، ولو كان ذلك القبول واجباً لما حصل التمدح العظيم ، ألا ترى أن من مدح نفسه بأن لا يضرب الناس ظلماً ولا يقتلهم غضباً ، كان ذلك مدحاً قليلا ، أما إذا قال إنى أحسن اليهم مع أن ذلك لا يجب على كان ذلك مدحاً وثناء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (ويعفو عن السيئات) إما أن يكون المراد منه أن يعفو

وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ

عن الكبائر بعد الإتيان بالتوبة ، أو المراد منه أنه يعفو عن الصغائر ، أو المراد منه أنه يعفو عن الكبائر قبل التوبة ، والأول باطل وإلا لصار قوله (ويعفو عن السيئآت) عين قوله (وهو الذى يقبل التوبة) والتكرار خلاف الأصل ، والثانى أيضاً باطل لأن ذلك واجب وأداء الواجب لا يتمدح به فبقى القسم الثالث فيكون المعنى أنه تارة يعفو بواسطة قبول التوبة وتارة يعفو ابتداء من غير توبة .

ثم قال (ويعلم ماتفعلون) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم بالتاء على المخاطبة والباقون بالياء على المغايبة ، والمعنى أنه تعالى يعلمه فيثيبه على حسناته ويعاقبه على سيئآته .

ثم قال (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) وفيه قولان (أحدهما) الذين آمنوا وعملوا الصالحات رفع على أنه فاعل تقديره ويجيب المؤمنون الله فيما دعاهم إليـــه . (والثانى) محله نصب والفاعل مضمر وهو الله وتقديره ، ويستجيب الله للمؤمنين إلا أنه حذف اللام كما حذف فى قوله (وإذا كالوهم) وهذا الثانى أولى لأن الخبر فيما قبل وبعد عن الله لأن ماقبل الآية قوله تعالى (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) وما بعدها قوله (ويزيدهم من فضله) فيزيد عطف على ويستجيب ، وعلى الأول ويجيب العبد ويزيد الله من فضله .

أما من قال إن الفعل للذين آمنوا ففيه وجهان : (أحدهما) ويجيب المؤمنون ربهم فيما دعاهم إليه (والثانى) يطيعونه فيما أمرهم به ، والاستجابة الطاعة .

وأما من قال إن الفعل لله فقد اختلفوا ، فقيل يجيب الله دعاء المؤمنين ويزيدهم ماطلبوه من فضله ، فان قالوا تخصيص المؤمنين بإجابة الدعاء هل يدل على أنه تعالى لا يجيب دعاء الكفار ؟ قلنا قال بعضهم لا يجوز لأن إجابة الدعاء تعظيم ، وذلك لا يليق بالكفار ، وقيل يجوز على بعض الوجوه ، وفائدة التخصيص أن إجابة دعاء المؤمنين تكون على سبيل التشريف ، وإجابة دعاء الكافرين تكون على سبيل الاستدراج ، ثم قال (ويزيدهم من فضله) أى يزيدهم على ما طلبوه بالدعاء (والكافرون لهم عذاب شديد) والمقصود التهديد .

قوله تعالى : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ، وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد ، ومن

فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ، وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير ، وما أنتم بمعجزين فى الأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ . وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما قال فى الآية الأولى : إنه يجيب دعاء المؤمنين ورد عليه سؤال وهو أن المؤمن قد يكون فى شدة وبلية وفقر ثم يدعوا فلا يشاهد أثر الإجابة فكيف الحال فيه مع ما تقدم من قوله (ويستجيب الذين آمنوا) ؟ فأجاب تعالى عنه بقوله (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض) أى ولأقدموا على المعاصى ، ولما كان ذلك محذوراً وجب أن لا يعطيهم ماطلبوه ، قال الجبائى : هذه الآية تدل على بطلان قول المجبرة من وجهين : (الأول) أن حاصل الكلام أنه تعالى (لو بسط الرزق لعباده لبغوا فى الأرض) والبغى فى الأرض غير مراد فإرادة بسط الرزق غير حاصلة ، فهذا الكلام إنما يتم إذا قلنا إنه تعالى يريد البغى فى الأرض ، وذلك يوجب فساد قول المجبرة (الثانى) أنه تعالى بين أنه إنما لم يرد بسط الرزق لأنه يفضى إلى المفسدة فلما بين تعالى أنه لا يريد ما يفضى إلى المفسدة فبأن لا يكون مريداً للمفسدة كان أولى ، أجاب أصحابنا بأن الميل الشديد إلى البغى والقسوة والقهر صفة حدثت بعد أن لم تكن فلا بد لها من فاعل ، وفاعل هذه الأحوال إما العبد أو الله والأول باطل لأنه إنما يفعل هذه الأشياء لو مال طبعه إليها فيعود السؤال فى أنه من المحدث لذلك الميل الثانى ؟ ويلزم التسلسل ، وإيضاً فالميل الشديد إلى الظلم والقسوة عيوب ونقصانات ، والعاقل لا يرضى بتحصيل موجبات النقصان لنفسه ، ولما بطل هذا ثبت أن محدث هذا الميل والرغبة هو الله تعالى ، ثم أورد الجبائى فى تفسيره على نفسه سؤالا قال : فإن قيل أليس قد بسط الله الرزق لبعض عباده مع أنه بغى ؟ وأجاب عنه بأن الذى عنده الرزق وبغى كان المعلوم من حاله أنه يبغى على كل حال سواء أعطى ذلك الرزق أو لم يعط ، وأقول هذا الجواب فاسد ويدل عليه القرآن والعقل ، أما القرآن فقوله تعالى (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) حكم مطلقاً بأن حصول الغنى سبب لحصول الطغيان . وأما العقل فهو أن النفس إذا كانت مائلة إلى الشر لكنها كانت فاقدة الآلات والأدوات كان الشر أقل ، وإذا كانت واجدة لها كان الشر أكثر ، فثبت أن وجدان المال يوجب الطغيان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى بيان الوجه الذى لأجله كان التوسع موجباً للطغيان ذكروا فيه وجوهاً (الأول) أن الله تعالى لو سوى فى الرزق بين الكل لامتنع كون البعض خادماً للبعض ولو صار الأمر كذلك لخرب العالم وتعطلت المصالح (الثانى) أن هذه الآية مختصة بالعرب فانه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من المطر مايرويهم ومن الكلأ والعشب مايشبعهم أقدموا على النهب والغارة (الثالث) أن الإنسان متكبر بالطبع فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية وهو التكبر ، وإذا وقع فى شدة وبلية ومكروه انكسر فعاد إلى الطاعه والتواضع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال خباب بن الأرت فينا نزلت هذه الآية وذلك أنا نظرنا إلى أموال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع فتمنيناها ، وقيل نزلت فى أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى .

ثم قال تعالى (ولكن ينزل بقدر مايشاء) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ينزل) خفيفة والباقون بالتشديد ، ثم نقول (بقدر) بتقدير يقال قدره قدراً وقدراً (إنه بعباده خبير بصير) يعنى أنه عالم بأحوال الناس وبطباعهم وبعواقب أمورهم فيقدر أرزاقهم على وفق مصالحهم ، ولما بين تعالى أنه لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم لأجل أنه علم أن تلك الزيادة تضرهم فى دينهم بين أنهم إذا احتاجوا إلى الرزق فانه لا يمنعهم منه فقال (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا) قرأ نافع وابن عامر وعاصم (ينزل) مشددة والباقون مخففة ، قال صاحب الكشاف قرىء (قنطوا) بفتح النون وكسرها ، وإنزال الغيث بعد القنوط أدعى إلى الشكر لأن الفرح بحصول النعمة بعد البلية أتم ، فكان إقدام صاحبه على الشكر أكثر (وينشر رحمته) أى بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب ، وعن عمر رضى الله عنه أنه قيل له اشتد القحط وقنط الناس فقال : إذن مطروا ، أراد هذه الآية ، ويجوز أن يريد رحمته الواسعة فى كل شىء كأنه قيل ينزل الرحمة التى هى الغيث وينشر سائر أنواع الرحمة (وهو الولى الحميد) (الولى) الذى يتولى عباده بإحسانه (والحميد) المحمود على ما يوصل للخلق من أقسام الرحمة ، ثم ذكر آية أخرى تدل على إلهيته فقال (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة) فنقول : أما دلالة خلق السموات والأرض على وجود الإله الحكيم فقد ذكرناها وكذلك دلالة وجود الحيوانات على وجود الإله الحكيم ، فان قيل كيف يجوز إطلاق لفظ الدابة على الملائكة ؟ قلنا فيه وجوه (الأول) أنه قد يضاف الفعل إلى جماعة وإن كان فاعله واحداً منهم يقال بنو فلان فعلوا كذا ، وإنما فعله واحد منهم ومنه قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) (الثانى) أن الدبيب هو الحركة ، والملائكة لهم حركة (الثالث) لا يبعد أن يقال إنه تعالى خلق فى السموات أنواعاً من الحيوانات يمشون مشى الأناسى على الأرض .

ثم قال تعالى (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) قال صاحب الكشاف ، إذا تدخل على المضارع كما تدخل على الماضى ، قال تعالى (والليل إذا يغشى) ومنه (إذا يشاء قدير) والمقصود أنه تعالى خلقها متفرقة ، لا لعجز ولكن لمصلحة ، فلهذا قال (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) يعنى الجمع

للحشر والمحاسبة ، وإنما قال (على جمعهم) ولم يقل على جمعها ، لأجل أن المقصود من هذا الجمع المحاسبة ، فكأنه تعالى قال ، وهو على جمع العقلاء إذا يشاء قدير ، واحتج الجبائي بقوله (إذا يشاء قدير) على أن مشيئته تعالى محدثة بان قال : إن كلمة (إذا) تفيد ظرف الزمان ، وكلمة (يشاء) صيغة المستقبل ، فلو كانت مشيئته تعالى قديمة لم يكن لتخصيصها بذلك الوقت المعين من المستقبل فائدة ، ولما دل قوله (إذا يشاء قدير) على هذا التخصيص علمنا أن مشيئته تعالى محدثة (والجواب) أن هاتين الكلمتين كما دخلتا على المشيئة ، أي مشيئة الله ، فقد دخلتا أيضاً على لفظ (القدير) فلزم على هذا أن يكون كونه قادراً صفة محدثة ، ولما كان هذا باطلا ، فكذا القول فيما ذكره ، والله أعلم .

قوله تعالى :﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وابن عامر (بما كسبت) بغير فاء ، وكذلك هي في مصاحف الشام والمدينة ، والباقون بالفاء وكذلك هي في مصاحفهم ، وتقدير الأول أن مامبتدأ بمعنى الذي ، وبما كسبت خبره ، والمعنى والذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم ، وتقدير الثاني تضمين كلمة : (ما) معنى الشرطية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد بهذه المصائب الأحوال المكروهة نحو الآلام والأسقام والقحط والغرق والصواعق وأشباهها ، واختلفوا في نحو الآلام أنها هل هي عقوبات على ذنوب سلفت أم لا ؟ منهم من أنكر ذلك لوجوه (الأول) قوله تعالى (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) بين تعالى أن الجزاء إنما يحصل في يوم القيامة ، وقال تعالى في سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) أي يوم الجزاء ، وأطبقوا على أن المراد منه يوم القيامة (والثاني) أن مصائب الدنيا يشترك فيها الزنديق والصديق ، وما يكون كذلك امتنع جعله من باب العقوبة على الذنوب ، بل الاستقراء يدل على أن حصول هذه المصائب للصالحين والمتقين أكثر منه للمذنبين ، ولهذا قال ﷺ « خص البلاء بالأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل » (الثالث) أن الدنيا دار التكليف ، فلو حصل الجزاء فيها لكانت الدنيا دار التكليف ودار الجزاء معاً ، وهو محال ، وأما القائلون بأن هذه المصائب قد تكون أجزية على الذنوب المتقدمة ، فقد تمسكوا أيضاً بما روى عن النبي ﷺ أنه قال « لا يصيب ابن آدم خدش عود ولا غيره إلا بذنب أو لفظ » هذا معناه وتمسكوا أيضاً بهذه الآية ، وتمسكوا أيضاً بقوله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات) وتمسكوا أيضاً بقوله تعالى بعد هذه الآية (أو يوبقهن بما كسبوا) وذلك تصريح بأن ذلك الإهلاك كان بسبب كسبهم ، وأجاب الأولون عن التمسك بهذه الآية ، فقالوا إن حصول هذه المصائب يكون من باب الامتحان في التكليف ، لا من باب العقوبة كما في حق الأنبياء والأولياء ، ويحمل قوله (فبما كسبت أيديكم)

على أن الأصلح عند إتيانكم بذلك الكسب إنزال هذه المصائب عليكم ، وكذا الجواب عن بقية الدلائل ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج أهل التناسخ بهذه الآية ، وكذلك الذين يقولون إن الأطفال والبهائم لا تتألم ، فقالوا دلت الآية على أن حصول المصائب لا يكون إلا لسابقة الجرم ، ثم إن أهل التناسخ قالوا : لكن هذه المصائب حاصلة للأطفال والبهائم ، فوجب أن يكون قد حصل لها ذنوب فى الزمان السابق ، وأما القائلون بأن الأطفال والبهائم ليس لها ألم قالوا قد ثبت أن هذه الأطفال والبهائم ماكانت موجودة فى بدن آخر لفساد القول بالتناسخ فوجب القطع بأنها لا تتألم إذ الألم مصيبة (والجواب) أن قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) خطاب مع من يفهم ويعقل ، فلا يدخل فيه البهائم والأطفال ، ولم يقل تعالى : إن جميع ما يصيب الحيوان من المكاره فإنه بسبب ذنب سابق ، والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (فبما كسبت أيديكم) يقتضى إضافة الكسب إلى اليد ، قال والكسب لا يكون باليد ، بل بالقدرة القائمة باليد ، وإذا كان المراد من لفظ اليد ههنا القدرة ، وكان هذا المجاز مشهوراً مستعملا ، كان لفظ اليد الوارد فى حق الله تعالى يجب حمله على القدرة تنزيهاً لله تعالى عن الأعضاء والأجزاء ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ويعفوا عن كثير ﴾ ومعناه أنه تعالى قد يترك الكثير من هذه التشديدات بفضله ورحمته ، وعن الحسن قال : دخلنا على عمران بن حصين فى الوجع الشديد ، فقيل له : إنا لنغتم لك من بعض ما نرى ، فقال لا تفعلوا فوالله إن أحبه إلى الله أحبه إلى ، وقرأ (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) فهذا بما كسبت يداى ، وسيأتينى عفو ربى ، وقد روى أبو سخلة عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال : « ما عفى الله عنه فهو أعز وأكرم من أن يعود إليه فى الإخرة ، وما عاقب عليه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعيد العذاب عليه فى الاخرة » رواه الواحدى فى البسيط ، وقال إذا كان كذلك فهذه أرجى آية فى كتاب الله لأن الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين : صنف كفره عنهم بالمصائب فى الدنيا ، وصنف عفا عنه فى الدنيا ، وهو كريم لا يرجع فى عفوه ، وهذه سنة الله مع المؤمنين ، وأما الكافر فلأنه لا يعجل عليه عقوبة ذنبه حتى يوافى ربه يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ﴾ يقول ما أنتم معشر المشركين بمعجزين فى الأرض ، أى لا تعجزوننى حيثما كنتم ، فلا تسبقوننى بسبب هربكم فى الأرض (وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) والمراد بهم من يعبد الأصنام ، بين أنه لا فائدة فيها البتة ، والنصير هو الله تعالى ، فلا جرم هو الذى تحسن عبادته .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير . ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص ، فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ماغضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ، والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾ . وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو (الجوارى) بياء فى الوصل والوقف ، فإثبات الياء على الأصل وحذفها للتخفيف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الجوارى ، يعنى السفن الجوارى ، لحذف الموصوف لعدم الالتباس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أنه تعالى ذكر من آياته أيضاً هذه السفن العظيمة التى تجرى على وجه البحر عند هبوب الرياح ، واعلم أن المقصود من ذكره أمران (أحدهما) أن يستدل به على وجود القادر الحكيم (والثانى) أن يعرف ما فيه من النعم العظيمة لله تعالى على العباد (أما الوجه الأول) فقد اتفقوا على أن المراد بالأعلام الجبال ، قالت الخنساء فى مرثية أخيها : ،

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

ونقل أن النبي ﷺ استنشد قصيدتها هذه فلما وصل الراوى إلى هذا البيت ، قال « قاتلها الله مارضيت بتشبيهها له بالجبل حتى جعلت على رأسه ناراً ! » إذا عرفت هذا فنقول : هذه السفن العظيمة التى تكون كالجبال تجرى على وجه البحر عند هبوب الرياح على أسرع الوجوه ، وعند سكون هذه الرياح تقف ، وقد بينا بالدليل فى سورة النحل ، أن محرك الرياح ومسكنها هو الله تعالى ، إذ لا يقدر أحد على تحريكها من البشر ولا على تسكينها ، وذلك يدل على وجود الإله القادر ، وأيضاً أن السفينة تكون فى غاية الثقل ، ثم إنها مع ثقلها بقيت على وجه الماء ، وهو أيضاً دلالة أخرى (وأما الوجه الثانى) وهو معرفة ما فيها من المنافع ، فهو أنه تعالى خص كل جانب من جوانب الأرض بنوع آخر من الأمتعة ، وإذا نقل متاع هذا الجانب إلى ذلك الجانب فى السفن وبالعكس حصلت المنافع العظيمة فى التجارة ، فلهذه الأسباب ذكر الله تعالى حال هذه السفينة .

قوله تعالى : ﴿ إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ﴾ قرأ أبو عمرو والجمهور : بهمزة (إن يشأ) لأن سكون الهمزة علامة للجزم ، وعن ورش عن نافع بلا همزة ، وقرأ نافع وحده (يسكن الرياح) على الجمع ، والباقون (الريح) على الواحد ، قال صاحب الكشاف : قرىء (يظللن) بفتح اللام وكسرها من ظل يظل ويظل ، وقوله تعالى (رواكد) أى رواتب ، أى لا تجرى على ظهره ، أى على ظهر البحر (إن فى ذلك لآيات لكل صبار) على بلاء الله (شكور) لنعمائه ، والمقصود التنبيه ، على أن المؤمن يجب أن لا يكون غافلا عن دلائل معرفة الله البتة ، لأنه لا بد وأن يكون إما فى البلاء وإما فى الآلاء ، فإن كان فى البلاء كان من الصابرين ، وإن كان فى النعماء كان من الشاكرين ، وعلى هذا التقدير فإنه لا يكون البتة من الغافلين .

قوله تعالى : ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ يعنى أو يهلكهن ، يقال أوبقه ، أى أهلكه ، ويقال للمجرم أوبقته ذنوبه ، أى أهلكته ، والمعنى أنه تعالى إن شاء ابتلى المسافرين فى البحر بإحدى بليتين : إما أن يسكن الريح فتركد الجوارى على متن البحر وتقف ، وإما أن يرسل الرياح عاصفة فيهلكن بسبب الإغراق ، وعلى هذا التقدير فقوله (أو يوبقهن) معطوف على قوله (يسكن) لأن التقدير (إن يشأ يسكن الريح) فيركدن ، أو يعصفها فيغرقن بعصفها ، وقوله (ويعفو عن كثير) معناه إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً عن طريق العفو عنهم ، فإن قيل فما معنى إدخال العفو فى حكم الإيباق حيث جعل مجزوماً مثله ، قلنا معناه إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً على طريق العفو عنهم ، وأما من قرأ (ويعفو) فقد استأنف الكلام .

ثم قال (ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا مالهم من محيص) قرأ نافع وابن عامر : يعلم بالرفع على الاستئناف ، وقرأ الباقون بالنصب ، فالقراءة بالرفع على الاستئناف ، وأما بالنصب فللعطف على

تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم (ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا) والعطف على التعليل المحذوف غير عزيز فى القرآن . ومنه قوله تعالى (ولنجعله آية الناس) وقوله تعالى (خلق السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت) قال صاحب الكشاف : ومن قرأ على جزم (ويعلم) فكأنه قال أو إن يشأ ، يجمع بين ثلاثة أمور : هلاك قوم ، ونجاة قوم ، وتحذير آخرين . إذا عرفت هذا فنقول معنى الآية (وليعلم الذين يجادلون) أى ينازعون على وجه التكذيب ، أن لا مخاص لهم إذا وقفت السفن ، وإذا عصفت الرياح فيصير ذلك سبباً لاعترافهم بأن الإله النافع الضار ليس إلا الله .

واعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد أردفها بالتنفير عن الدنيا وتحقير شأنها ، لأن الذى يمنع من قبول الدليل إنما هو الرغبة فى الدنيا بسبب الرياسة وطلب الجاه ، فإذا صغرت الدنيا فى عين الرجل لم يلتفت إليها ، فحينئذ ينتفع بذكر الدلائل ، فقال (فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا) وسماه متاعاً تنبيهاً على قلته وحقارته ، ولأن الحس شاهد بأن كل ما يتعلق بالدنيا فإنه يكون سريع الانقراض والانقضاء .

ثم قال تعالى (وما عند الله خير وأبقى) والمعنى أن مطالب الدنيا خسيسة منقرضة ، ونبه على خساستها بتسميتها بالمتاع ، ونبه على انقراضها بأن جعلها من الدنيا . وأما الآخرة فإنها خير وأبقى ، وصريح العقل يقتضى ترجيح الخير الباقى على الخسيس الفانى ، ثم بين أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان موصوفاً بصفات :

﴿ الصفة الأولى ﴾ أن يكون من المؤمنين بدليل قوله تعالى (الذين آمنوا) .

﴿ الصفة الثانية ﴾ أن يكون من المتوكلين على فضل الله ، بدليل قوله تعالى (وعلى ربهم يتوكلون) فأما من زعم أن الطاعة توجب الثواب ، فهو متكل على عمل نفسه لا على الله ، فلا يدخل تحت الآية .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ أن يكونوا يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، عن ابن عباس : كبير الإثم ، هو الشرك ، نقله صاحب الكشاف وهو عندى بعيد ، لأن شرط الإيمان مذكور أولا وهو يغنى عن عدم الشرك ، وقيل المراد بكبائر الإثم ما يتعلق بالبدع واستخراج الشبهات ، وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوانية ، وبقوله (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) ما يتعلق بالقوة الغضبية ، وإنما خص الغضب بلفظ الغفران ، لأن الغضب على طبع النار ، واستيلاؤه شديد ومقاومته صعبة ، فلهذا السبب خصه بهذا اللفظ ، والله أعلم .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله تعالى (والذين استجابوا لربهم) والمراد منه تمام الانقياد ، فإن قالوا أليس أنه لما جعل الإيمان شرطاً فيه فقد دخل فى الإيمان إجابة الله ؟ قلنا الأقرب عندى أن يحمل هذا على الرضاء بقضاء الله من صميم القلب ، وأن لا يكون فى قلبه منازعة فى أمر من الأمور . ولما ذكر هذا الشرط قال (وأقاموا الصلاة) والمراد منه إقامة الصلوات الواجبة ، لأن هذا هو

وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ

الشرط فى حصول الثواب .

وأما قوله تعالى (أمرهم شورى بينهم) فقيل كان إذا وقعت بينهم واقعة اجتمعوا وتشاوروا فأثنى الله عليهم ، أى لا ينفردون برأى بل مالم يجتمعوا عليه لا يقدمون عليه ، وعن الحسن : ماتشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم ، والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ، ومعنى قوله (وأمرهم شورى بينهم) أى ذو شورى .

﴿ الصفة الخامسة ﴾ قوله تعالى (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) والمعنى أن يقتصروا فى الانتصار على ما يجعله الله لهم ولا يتعدونه ، وعن النخعى أنه كان إذا قرأها قال كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم السفهاء ، فإن قيل هذه الآية مشكلة لوجهين (الأول) أنه لما ذكر قبله (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) فكيف يليق أن يذكر معه ما يجرى مجرى الضد له وهو قوله (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) ؟ (الثانى) وهو أن جميع الآيات دالة على أن العفو أحسن قال تعالى (وأن تعفوا أقرب للتقوى) وقال (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) وقال (خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقال وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) فهذه الآيات تناقض مدلول هذه الآية (والجواب) أن العفو على قسمين (أحدهما) أن يكون العفو سبباً لتسكين الفتنة وجناية الجانى ورجوعه عن جنايته (والثانى) أن يصير العفو سبباً لمزيد جراءة الجانى ولقوة غيظه وغضبه ، والآيات فى العفو محمولة على القسم الأول ، وهذه الآية محمولة على القسم الثانى ، وحينئذ يزول التناقض والله أعلم ، ألا ترى أن العفو عن المصر يكون كالإغراء له ولغيره ، فلو أن رجلا وجد عبده فجر بجاريته وهو مصر فلو عفا عنه كان مذموماً ، وروى أن زينب أقبلت على عائشة فشتمتها فنهاها النبى صلى الله عليه وسلم عنها فلم تنته فقال النبى ﷺ « دونك فانتصرى » وأيضاً إنه تعالى لم يرغب فى الانتصار بل بين أنه مشروع فقط ، ثم بين بعده أن شرعه مشروط برعاية المماثلة ،ثم بين أن العفو أولى بقوله (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) فزال السؤال والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ، ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم ، وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيداً بالمثل فإن النقصان حيف والزيادة ظلم والتساوى هو العدل وبه قامت السموات والأرض ، فلهذا السبب قال (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لقائل أن يقول جزاء السيئة مشروع مأذون فيه ، فكيف سمى بالسيئة ؟ أجاب صاحب الكشاف عنه كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به ، قال تعالى (وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا ، وأجاب غيره بأنه لما جعل أحدهما فى مقابلة الآخر على سبيل المجاز أطلق اسم أحدهما على الآخر ، والحق ما ذكره صاحب الكشاف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية أصل كبير فى علم الفقه فإن مقتضاها أن تقابل كل جناية بمثلها وذلك لأن الإهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان ، لأن فى طبع كل أحد الظلم والبغي والعدوان ، فإذا لم يزجر عنه أقدم عليه ولم يتركه ، وأما الزيادة على قدر الذنب فهو ظلم والشرع منزه عنه فلم يبق إلا أن يقابل بالمثل ، ثم تأكد هذا النص بنصوص أخر ، كقوله تعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) وقوله تعالى (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها) وقوله عز وجل (كتب عليكم

القصاص) فى القتلى والقصاص عبارة عن المساواة والمماثلة وقوله تعالى (والجروح قصاص) وقوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) فهذه النصوص بأسرها تقتضى مقابلة الشىء بمثله . ثم ههنا دقيقة : وهى أنه إذا لم يمكن استيفاء الحق إلا باستيفاء الزيادة فههنا وقع التعارض بين إلحاق زيادة الضرر بالجانى وبين منع المجنى عليه من استيفاء حقه ، فأيهما أولى ؟ فههنا محل اجتهاد المجتهدين ، ويختلف ذلك باختلاف الصور ، وتفرع على هذا الأصل بعض المسائل تنبيهاً على الباقى .

(المثال الأول) احتج الشافعى رضى الله عنه على أن المسلم لا يقتل بالذمى وأن الحر لا يقتل بالعبد ، بأن قال المماثلة شرط لجريان القصاص وهى مفقودة فى هاتين المسألتين ، فوجب أن لا يجرى القصاص بينهما ، أما بيان أن المماثلة شرط لجريان القصاص فهى النصوص المذكورة ، وكيفية الاستدلال بها أن نقول إما أن نحمل المماثلة المذكورة فى هذه النصوص على المماثلة فى كل الأمور إلا ما خصه الدليل أو نحملها على المماثلة فى أمر معين ، والثانى مرجوح لأن ذلك الأمر المعين غير مذكور الآية ، فلو حملنا الآية عليها لزم الإجمال . ولو حملنا النص على القسم الأول لزم تحمل التخصيص ، ومعلوم أن دفع الإجمال أولى من دفع التخصيص ، فثبت أن الآية تقتضى رعاية المماثلة فى كل الأمور إلا ما خصه دليل العقل ودليل نقلى منفصل ، وإذا ثبت هذا فنقول رعاية المماثلة فى قتل المسلم بالذمى ، وفى قتل الحر بالعبد لا تمكن لأن الإسلام اعتبره الشرع فى إيجاب القتل ، لتحصيله عند عدمه كما فى حق الكافر الأصلى ، ولإبقائه عند وجوده كما فى حق المرتد وأيضاً الحرية صفة اعتبرها الشرع فى حق القضاء والإمامة والشهادة ، فثبت أن المماثلة شرط لجريان القصاص وهى مفقودة ههنا فوجب المنع من القصاص .

(المثال الثانى) احتج الشافعى رضى الله عنه فى أن الأيدى تقطع باليد الواحدة ، فقال لا شك أنه إذا صدر كل القطع أو بعضه عن كل أولئك القاطعين أو عن بعضهم فوجب أن يشرع فى حق أولئك القاطعين مثله لهذه النصوص وكل من قال يشرع القطع إما كله أو بعضه فى حق كلهم أو بعضهم قال بإيجابه على الكل ، بقى أن يقال فيلزم منه استيفاء الزيادة من الجانى وهو ممنوع منه إلا أنا نقول لما وقع التعارض بين جانب الجانى وبين جانب المجنى عليه كان جانب المجنى عليه بالرعاية أولى .

(المثال الثالث) شريك الأب شرع فى حقه القصاص ، والدليل عليه أنه صدر عنه الجرح فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى (والجروح قصاص) وإذا ثبت هذا ثبت تمام القصاص لأنه لا قائل بالفرق .

(المثال الرابع) قال الشافعى رضى الله تعالى عنه من حرق حرقناه ومن غرق غرقناه والدليل عليه هذه النصوص الدالة على مقابلة كل شىء بمماثله .

(المثال الخامس) شهود القصاص إذا رجعوا وقالوا تعمدنا الكذب يلزمهم القصاص لأنهم بتلك الشهادة أهدروا دمه ، فوجب أن يصير دمهم مهدراً لقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها)

(المثال السادس) قال الشافعي رضي الله عنه المكره يجب عليه القود لأنه صدر عنه القتل ظلماً فوجب أن يجب عليه مثله ، أما أنه صدر عنه القتل فالحس يدل عليه وأما أنه قتل ظلماً فلأن المسلمين أجمعوا على أنه مكلف من قبل الله تعالى بأن لا يقتل وأجمعوا على أنه يستحق به الإثم العظيم والعقاب الشديد ، وإذا ثبت هذا فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

(المثال السابع) قال الشافعي رضي الله عنه القتل بالمثقل يوجب القود ، والدليل عليه أن الجاني أبطل حياته فوجب أن يتمكن ولي المقتول من إبطال حياة القاتل لقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

(المثال الثامن) الحر لا يقتل بالعبد قصاصاً ونحن وإن ذكرنا هذه المسألة في المثال الأول إلا أنا نذكر ههنا وجهاً آخر من البيان ، فنقول إن القاتل أتلف على مالك العبد شيئاً يساوي عشرة دنانير مثلا فوجب عليه أداء عشرة دنانير لقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وإذا وجب الضمان وجب أن لا يجب القصاص لأنه لا قائل بالفرق .

(المثال التاسع) منافع الغصب مضمونة عند الشافعي رضي الله عنه والدليل عليه أن الغاصب فوت على المالك منافع تقابل في العرف بدينار فوجب أن يفوت على الغاصب مثله من المال لقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وكل من أوجب تفويت هذا القدر على الغاصب قال بأنه يجب أداؤه إلى المغصوب منه .

(المثال العاشر) الحر لا يقتل بالعبد قصاصاً لأنه لو قتل بالعبد لكان هو مساوياً للعبد في المعاني الموجبة للقصاص لقوله (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها) ولسائر النصوص التي تلوناها ثم إن عبده يقتل قصاصا بعبد نفسه فيجب أن يكون عبد غيره مساوياً لعبد نفسه في المعاني الموجبة للقصاص لعين هذه النصوص التي ذكرناها ، فعلى هذا التقدير يكون عبد نفسه مساوياً لعبد غيره في المعاني الموجبة للقصاص ، فكان عبد نفسه مثلا لمثل نفسه ، ومثل المثل مثل فوجب كون عبد نفسه مثلا لنفسه في المعاني الموجبة للقصاص ، ولو قتل الحر بعبد غيره لقتل بعبد نفسه بالبيان الذي ذكرناه ولا يقتل بعبد نفسه فوجب أن لا يقتل بعبد غيره ، فقد ذكرنا هذه الأمثلة العشرة في التفريع على هذه الآية ، ومن أخذت الفطانة بيده سهل عليه تفريع كثير من مسائل الشريعة على هذا الأصل والله أعلم ، ثم ههنا بحث وهو أن أبا حنيفة رضي الله عنه قال في قطع الأيدي لا شك أنه صدر كل القطع أو بعضه عن كلهم أو عن بعضهم إلا أنه لا يمكن استيفاء ذلك الحق إلا باستيفاء الزيادة لأن تفويت عشرة من الأيدي أزيد من تفويت يد واحدة ، فوجب أن يبقى على أصل الحرمة ، فقال الشافعي رضي الله عنه لو كان تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة يد واحدة حراماً لكان تفويت عشرة من النفوس في مقابلة نفس واحدة حراماً ، لأن تفويت النفس يشتمل على تفويت اليد فتفويت عشرة من النفوس في مقابلة النفس الواحدة يوجب تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة اليد الواحدة ،

فلو كان تفويت عشرة من الأيدى فى مقابلة اليد الواحدة حراماً لكان تفويت عشرة من النفوس لأجل النفس الواحدة مشتملا على الحرام وكل ما اشتمل على الحرام فهو حرام فكان يجب أن يحرم قتل النفوس العشرة فى مقابلة النفس الواحدة ، وحيث أجمعنا على أنه لايحرم علمنا أن ماذكرتم من استيفاء الزيادة غير ممنوع منه شرعاً ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قد بينا أن قوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) يقتضى وجوب رعاية المماثلة مطلقاً فى كل الأحوال إلا فيما خصه الدليل ، والفقهاء أدخلوا التخصيص فيه فى صور كثيرة فتارة بناء على نص آخر أخص منه وأخرى بناء على القياس ، ولا شك أن من ادعى التخصيص فعليه البيان والمكلف يكفيه أن يتمسك بهذا النص فى جميع المطالب ، قال مجاهد والسدى إذا قال له أخزاه الله ، فليقل له أخزاه الله ، أما إذا قذفه قذفاً يوجب الحد فليس له ذلك بل الحد الذى أمر الله به .

ثم قال تعالى (فمن عفا وأصلح) بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء كما قال تعالى (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) ، (فأجره على الله) وهو وعد مبهم لايقاس أمره فى التعظيم .

ثم قال تعالى (إنه لايحب الظالمين) وفيه قولان (الأول) أن المقصود منه التنبيه على أن المجنى عليه لايجوز له استيفاء الزيادة من الظالم لأن الظالم فيما وراء ظلمه معصوم والانتصار لايكاد يؤمن فيه تجاوز التسوية والتعدى خصوصاً فى حال الحرب والتهاب الحمية ، فربما صار المظلوم عند الإقدام على استيفاء القصاص ظالما ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم ، قال فيقوم خلق فيقال لهم ماأجركم على الله ؟ فيقولون نحن الذين عفونا عمن ظلمنا ، فيقال لهم ادخلوا الجنة بإذن الله تعالى » (الثانى) أنه تعالى لما حث على العفو عن الظالم أخبر أنه مع ذلك لا يحبه تنبيهاً على أنه إذا كان لا يحبه ومع ذلك فانه يندب إلى عفوه ، فالمؤمن الذى هو حبيب الله بسبب إيمانه أولى أن يعفو عنه .

ثم قال تعالى (ولمن انتصر بعد ظلمه) أى ظالم الظالم إياه ، وهذا من باب إضافة المصدر إلى المفعول (فأولئك) يعنى المنتصرين (ماعليهم من سبيل) كعقوبة ومؤاخذة لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار واحتج الشافعى رضى الله تعالى عنه بهذه الآية فى بيان أن سراية القود مهدرة ، فقال الشرع إما أن يقال إنه أذن له فى القطع مطلقاً أو بشرط أن لا يحصل منه السريان ، وهذا الثانى باطل لأن الأصل فى القطع الحرمة فاذا كان تجويزه معلقاً بشرط عدم السريان ، وكان هذا الشرط مجهولا وجب أن يبقى ذلك القطع على أصل الحرمة ، لأن الأصل فيها هو الحرمة ، والحل إنما يحصل معلقاً على شرط مجهول فوجب أن يبقى ذلك أصل الحرمة ، وحيث لم يكن كذلك علمنا أن الشرع أذن له فى القطع كيف كان سواء سرى أولم يسر ، وإذاكان كذلك وجب أن لايكون ذلك السريان مضموناً لأنه قد انتصر من بعد ظلمه فوجب أن لا يحصل لأحد عليه سبيل .

ثم قال (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس) أى يبدأون بالظلم (ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم).

ثم قال تعالى (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) والمعنى (ولمن صبر) بأن لا يقتص (وغفر) وتجاوز (فان ذلك) الصبر والتجاوز (من عزم الأمور) يعنى أن عزمه على ترك الانتصار لمن عزم الأمور الجيدة وحذف الراجع لأنه مفهوم كما حذف من قولهم السمن منوان بدرهم ويحكى أن رجلا سب رجلا فى مجلس الحسن فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق ثم قام وتلا هذه الآية ، فقال الحسن عقلها والله وفهمها لما ضيعها الجاهلون.

ثم قال تعالى (ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده) أى فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه أى من بعد إضلال الله إياه ، وهذا صريح فى جواز الإضلال من الله تعالى ، وفى أن الهداية ليست فى مقدور أحد سوى الله تعالى ،قال القاضى المراد من يضلل الله عن الجنة فما له من ولى من بعده ينصره (والجواب) أن تقييد الإضلال بهذه الصورة المعينة خلاف الدليل . وأيضاً فالله تعالى ما أضله عن الجنة على قولكم بل هو أضل نفسه عن الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾ والمراد أنهم يطلبون الرجوع إلى الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب ، ثم ذكر حالهم عند عرض النار عليهم فقال (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل) أى حال كونهم خاشعين حقيرين مهانين بسبب مالحقهم من الذل ، ثم قال (ينظرون من طرف خفى) أى يبتدىء نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفى بمسارقة كما ترى الذى يتيقن أن يقتل فإنه ينظر إلى السيف كأنه لا يقدر على أن يفتح أجفانه عليه ويملأ عينيه منه كما يفعل فى نظره إلى المحبوبات ، فان قيل أليس أنه تعالى قال فى صفة الكفار إنهم يحشرون عمياً فكيف قال ههنا إنهم ينظرون من طرف خفى ؟ قلنا لعلهم يكونون فى الابتداء هكذا ، ثم يجعلون عمياً أو لعل هذا فى قوم ، وذلك فى قوم آخرين ، ولما وصف الله تعالى حال الكفار حكى مايقوله المؤمنون فيهم فقال (وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) قال صاحب الكشاف (يوم القيامة) إما أن يتعلق بخسروا أو يكون قول المؤمنين واقعاً فى الدنيا ، وإما أن يتعلق بقال أى يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة

ثم قال (ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم) أى دائم قال القاضى ، وهذا يدل على أن الكافر والفاسق يدوم عذابهما (والجواب) أن لفظ الظالم المطلق فى القرآن مخصوص بالكافر قال تعالى (والكافرون هم الظالمون) والذى يؤكد هذا أنه تعالى قال بعد هذه الآية (وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من الله) والمعنى أن الأصنام التى كانوا يعبدونها لأجل أن تشفع لهم عند الله تعالى ما أتوا بتلك الشفاعة ومعلوم أن هذا لا يليق إلا بالكفار ثم قال (ومن يضلل الله فما له من سبيل) وذلك يدل على أن المضل والهادى هو الله تعالى على ما هو قولنا ومذهبنا والله أعلم .

ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير ، فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منارحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإنالإنسان كفور ، للهملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير ﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب فى الوعد والوعيد ذكر بعده ما هو المقصود فقال (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله) وقوله (من الله) يجوز أن يكون صلة لقوله (لامرد له) يعنى لايرده الله بعد ما حكم به ، ويجوز أن يكون صلة لقوله (يأتى) أى من قبل أن يأتى من الله يوم لايقدر أحد على رده ، واختلفوا فى المراد بذلك اليوم فقيل يوم ورود الموت ، وقيل يوم القيامة لأنه وصف ذلك اليوم (بأنه لا مرد له) وهذا الوصف موجود فى كلا اليومين ، ويحتمل أن يكون معنى قوله (لامرد له) أنه لا يقبل التقديم والتأخير أو أن يكون معناه أن لا مرد فيه إلى حال التكليف حتى يحصل فيه التلافى .

ثم قال تعالى فى وصف ذلك اليوم (مالكم من ملجأ) ينفع فى التخلص من العذاب (وما لكم من نكير) ممن ينكر ذلك حتى يتغير حالكم بسبب ذلك المنكر ، ويجوز أن يكون المراد من النكير الإنكار أى لا تقدرون أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه من الأعمال (فان أعرضوا) أى هؤلاء الذين أمرتهم بالاستجابة أى لم يقبلوا هذا الأمر (فما أرسلناك عليهم حفيظاً) بأن تحفظ أعمالهم وتحصيها (إن عليك إلا البلاغ) وذلك تسلية من الله تعالى ، ثم إنه تعالى بين السبب فى

إصرارهم على مذاهبهم الباطلة ، وذلك أنهم وجدوا فى الدنيا سعادة وكرامة والفوز بمطالب الدنيا يفيد الغرور والفجور والتكبر وعدم الانقياد للحق فقال (وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها) ونعم الله فى الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى السعادات المعدة فى الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سماها ذوقاً فبين تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير الذى حصل فى الدنيا فانه يفرح بها ويعظم غروره بسببها ويقع فى العجب والكبر ، ويظن أنه فاز بكل المنى ووصل إلى أقاصى السعادات ، وهذه طريقة من يضعف اعتقاده فى سعادات الآخرة ، وهذه الطريقة مخالفة لطريقة المؤمن الذى لا يعد نعم الدنيا إلا كالوصلة إلى نعم الآخرة ، ثم بين أنه متى أصابتهم (سيئة) أى شىء يسوءهم فى الحال كالمرض والفقر وغيرهما فانه يظهر منه الكفر وهو معنى قوله (فان الإنسان كفور) والكفور الذى يكون مبالغاً فى الكفران ، ولم يقل فإنه كفور ، ليبين أن طبيعة الإنسان تقتضى هذه الحالة إلا إذا أدبها الرجل بالآداب التى أرشد الله إليها ، ولما ذكر الله إذاقة الإنسان الرحمة واصابته بضدها أتبع ذلك بقوله (لله ملك السموات والأرض) والمقصود منه أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه بل إذا علم أن الكل ملك الله وملكه ، وأنه إنما حصل ذلك القدر تحت يده لأن الله أنعم عليه به فحينئذ يصير ذلك حاملاله على مزيد الطاعة والخدمة ، وأما إذا اعتقد أن تلك النعم ، إنما تحصل بسبب عقله وجده واجتهاده بقى مغروراً بنفسه معرضاً عن طاعة الله تعالى ، ثم ذكر من أقسام تصرف الله فى العالم أنه يخص البعض بالأولاد الإناث والبعض بالذكور والبعض بهما والبعض بأن يجعله محروماً من الكل ، وهو المراد من قوله (ويجعل من يشاء عقيما) .

واعلم أن أهل الطبائع يقولون السبب فى حدوث الولد صلاح حال النطفة والرحم وسبب الذكورة استيلاء الحرارة ، وسبب الأنوثة استيلاء البرودة ، وقد ذكرنا هذا الفصل بالاستقصاء التام فى سورة النحل ، وأبطلناه بالدلائل اليقينية ، وظهر أن ذلك من الله تعالى لا أنه من الطبائع والأنجم والأفلاك وفى الاية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أنه قدم الإناث فى الذكر على الذكور فقال (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) ثم فى الاية الثانية قدم الذكور على الإناث فقال (أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً) فما السبب فى هذا التقديم والتأخير ؟ .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أنه ذكر الإناث على سبيل التنكير فقال (يهب لمن يشاء إناثاً) وذكر الذكور بلفظ التعريف فقال (ويهب لمن يشاء الذكور) فما السبب فى هذا الفرق ؟ .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال فى إعطاء الإناث وحدهن . وفى إعطاء الذكور وحدهم بلفظ الهبة فقال (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) وقال فى إعطاء الصنفين معاً (أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً) .

﴿ السؤال الرابع ﴾ لما كان حصول الولد هبة من الله فيكفي في عدم حصوله أن لا يهب فأي حاجة في عدم حصوله إلى أن يقول (ويجعل من يشاء عقيما) ؟ .
﴿ السؤال الخامس ﴾ هل المراد من هذا الحكم جمع معينون أو المراد الحكم على الإنسان المطلق ؟
﴿ والجواب ﴾ عن السؤال الأول من وجوه (الأول) أن الكريم يسعى في أن يقع الختم على الخير والراحة والسرور والبهجة فإذا وهب الولد الأنثى أولا ثم أعطاه الذكر بعده فكأنه نقله من الغم إلى الفرح وهذا غاية الكرم ، أما إذا أعطى الولد أولا ثم أعطى الأنثى ثانيا فكأنه نقله من الفرح إلى الغم فذكر تعالى هبة الولد الأنثى أولا وثانيا هبة الولد الذكر حتى يكون قد نقله من الغم إلى الفرح فيكون ذلك أليق بالكرم (الوجه الثاني) أنه إذا أعطى الولد الأنثى أولا علم أنه لا اعتراض له على الله تعالى فيرضى بذلك فإذا أعطاه الولد الذكر بعد ذلك علم أن هذه الزيادة فضل من الله تعالى وإحسان إليه فيزداد شكره وطاعته ، ويعلم أن ذلك إنما حصل بمحض الفضل والكرم (والوجه الثالث) قال بعض المذكرين الأنثى ضعيفة ناقصة عاجزة فقدم ذكرها تنبيهاً على أنه كلما كان العجز والحاجة أتم كانت عناية الله به أكثر (الوجه الرابع) كأنه يقال أيتها المرأة الضعيفة العاجزة إن أباك وأمك يكرهان وجودك فإن كانا قد كرها وجودك فأنا قدمتك في الذكر لتعلمي أن المحسن المكرم هو الله تعالى ، فاذا علمت المرأة ذلك زادت في الطاعة والخدمة والبعد عن موجبات الطعن والذم ، فهذه المعاني هي التي لأجلها وقع ذكر الإناث مقدماً على ذكر الذكور وإنما قدم ذكر الذكور بعد ذلك على ذكر الإناث لأن الذكر أكمل وأفضل من الأنثى والأفضل الأكمل مقدم على الأخس الأرذل ، والحاصل أن النظر إلى كونه ذكراً أو أنثى يقتضي تقديم ذكر الذكر على ذكر الأنثى ، أما العوارض الخارجية التي ذكرناها فقد أوجبت تقديم ذكر الأنثى على ذكر الذكر ، فلما حصل المقتضى للتقديم والتأخير في البابين لا جرم قدم هذا مرة وقدم ذلك مرة أخرى والله أعلم .
﴿ وأما السؤال الثاني ﴾ وهو قوله لم عبر عن الإناث بلفظ التنكير ، وعن الذكور بلفظ التعريف ؟ فجوابه أن المقصود منه التنبيه على كون الذكر أفضل من الأنثى .
﴿ وأما السؤال الثالث ﴾ وهو قوله لم قال تعالى في إعطاء الصنفين (أو يزوجهم ذكرانا وإناثا) ؟ فجوابه أن كل شيئين يقرن أحدهما بالآخر فهما زوجان ، وكل واحد منهما يقال له زوج والكناية في (يزوجهم) عائدة على الإناث والذكور التي في الآية الأولى ، والمعنى يقرن الإناث والذكور فيجعلهم أزواجاً .
﴿ وأما السؤال الرابع ﴾ فجوابه أن العقيم هو الذي لا يولد له ، يقال رجل عقيم لا يلد ، وامرأة عقيم لا تلد وأصل العقم القطع ، ومنه قيل الملك عقيم لأنه يقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق .
﴿ وأما السؤال الخامس ﴾ فجوابه قال ابن عباس (يهب لمن يشاء إناثاً) يريد لوطاً وشعيباً عليهما السلام لم يكن لهما إلا البنات (ويهب لمن يشاء الذكور) يريد إبراهيم عليه السلام لم يكن له

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

إلا الذكور (أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً) يريد محمداً ﷺ كان له من البنين أربعة القاسم والطاهر وعبد الله وإبراهيم ، ومن البنات أربعة زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة (ويجعل من يشاء عقيما) يريد عيسى ويحيى ، وقال الأكثرون من المفسرين هذا الحكم عام في حق كل الناس ، لأن المقصود بيان نفاذ قدرة الله في تكوين الأشياء كيف شاء وأراد فلم يكن للتخصيص معنى والله أعلم . ثم ختم الآية بقوله (إنه عليم قدير) قال ابن عباس عليم بما خلق قدير على ما يشاء أن يخلقه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه مايشاء إنه علي حكيم ، وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين كمال قدرته وعلمه وحكمته أتبعه ببيان أنه كيف يخص أنبياءه بوحيه وكلامه وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (وما كان لبشر) وما صح لأحد من البشر (أن يكلمه الله) إلا على أحد ثلاثة أوجه ، إما على الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب أو المنام كما أوحى الله إلى أم موسى وإبراهيم عليه السلام في ذبح ولده ، وعن مجاهد أوحى الله تعالى الزبور إلى داود عليه السلام في صدره ، وإما على أن يسمعه كلامه من غير واسطة مبلغ ، وهذا أيضاً وحي بدليل أنه تعالى أسمع موسى كلامه من غير واسطة مع أنه سماه وحياً ، قوله تعالى (فاستمع لما يوحى) وإما على أن يرسل إليه رسولا من الملائكة فيبلغ ذلك الملك ذلك الوحي إلى الرسول البشري فطريق الحصر أن يقال وصول الوحي من الله إلى البشر إما أن يكون من غير واسطة مبلغ أو يكون بواسطة مبلغ ، وإذا كان الأول وهو أن يصل إليه وحي الله لا بواسطة شخص آخر فههنا إما أن يقال إنه

لم يسمع عين كلام الله أو يسمعه ، أما الأول وهو أنه وصل إليه الوحى لا بواسطة شخص آخر وما سمع عين كلام الله فهو المراد بقوله (إلا وحياً) وأما الثانى وهو أنه وصل إليه الوحى لا بواسطة شخص آخر ولـكنه سمع عين كلام الله فهو المراد من قوله (أو من وراء حجاب) وأما الثالث وهو أنه وصل إليه الوحى بواسطة شخص آخر فهو المراد بقوله (أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء) .

واعلم أن كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة وحى ، إلا أنه تعالى خصص القسم الأول باسم الوحى ، لأن ما يقع فى القلب على سبيل الإلهام فهو يقع دفعة فكان تخصيص لفظ الوحى به أولى فهذا هو الكلام فى تميز هذه الأقسام بعضها عن بعض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القائلون بأن الله فى مكان احتجوا بقوله (أو من وراء حجاب) وذلك لأن التقدير وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون الله من وراء حجاب ، وإنما يصح ذلك لو كان مختصاً بمكان معين وجهة معينة (والجواب) أن ظاهر اللفظ وإن أوهم ما ذكرتم إلا أنه دلت الدلائل العقلية والنقلية على أنه تعالى يمتنع حصوله فى المكان والجهة ، فوجب حمل هذا اللفظ على التأويل ، والمعنى أن الرجل إذا سمع كلاماً مع أنه لا يرى ذلك المتكلم كان ذلك شبيهاً بما إذا تكلم من وراء حجاب ، والمشابهة سبب لجواز المجاز .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قالت المعتزلة هذه الآية تدل على أنه تعالى لا يرى ، وذلك لأنه تعالى حصر أقسام وحيه فى هذه الثلاثة ولو صحت رؤية الله تعالى لصح من الله تعالى أنه يتكلم مع العبد حال مايراه العبد ، فحينئذ يكون ذلك قسما رابعاً زائداً على هذه الأقسام الثلاثة ، والله تعالى نفى القسم الرابع بقوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله) إلا على هذه الأوجه الثلاثة (والجواب) نزيد فى اللفظ قيداً فيكون التقدير وما كان لبشر أن يكلمه الله فى الدنيا إلا على أحد هذه الأقسام الثلاثة وحينئذ لا يلزم ما ذكرتموه ، وزيادة هذا القيد وإن كانت على خلاف الظاهر لـكنه يجب المصير إليها للتوفيق بين هذه الآيات وبين الآيات الدالة على حصول الرؤية فى يوم القيامة والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أجمعت الامة على أن الله تعالى متكلم ، ومن سوى الأشعرى وأتباعه أطبقوا على أن كلام الله هو هذه الحروف المسموعة والأصوات المؤلفة ، وأما الأشعرى وأتباعه فإنهم زعموا أن كلام الله تعالى صفة قديمة يعبر عنها بهذه الحروف والأصوات .

﴿ أما الفريق الأول ﴾ وهم الذين قالوا كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات فهم فريقان (أحدهما) الحنابلة الذين قالوا بقدم هذه الحروف وهؤلاء أخس من أن يذكروا فى زمرة العقلاء ، واتفق أنى قلت يوماً لبعضهم لو تكلم الله بهذه الحروف إما أن يتكلم بها دفعة واحدة أو على التعاقب والتوالى والأول باطل لأن التكلم بجملة هذه الحروف دفعة واحدة لا يفيد هذا النظم المركب على هذا التعاقب والتوالى ، فوجب أن لا يكون هذا النظم المركب من هذه الحروف

المتوالية كلام الله تعالى ، والثانى باطل لأنه تعالى لو تكلم بها على التوالى والتعاقب كانت محدثة ، ولما سمع ذلك الرجل هذا الكلام قال الواجب علينا أن نقر ونمر ، يعنى نقر بأن القرآن قديم ونمر على هذا الكلام على وفق ماسمعناه فتعجبت من سلامة قلب ذلك القائل ، وأما العقلاء من الناس فقد أطبقوا على أن هذه الحروف والأصوات كائنة بعد أن لم تكن حاصلة بعد أن كانت معدومة ، ثم اختلفت عباراتهم فى أنها هل هى مخلوقة ، أولا يقال ذلك ، بل يقال إنها حادثة أو يعبر عنها بعبارة أخرى ، واختلفوا أيضاً فى أن هذه الحروف هل هى قائمة بذات الله تعالى أو يخلقها فى جسم آخر ، فالأول هو قول الكرامية ، والثانى قول المعتزلة ، وأما الأشعرية الذين زعموا أن كلام الله صفة قديمة تدل عليها هذه الألفاظ والعبارات فقد اتفقوا على أن قوله (أو من وراء حجاب) هو أن الملك والرسول يسمع ذلك الكلام المنزه عن الحرف والصوت من وراء حجاب ، قالوا وكما لا يبعد أن ترى ذات الله مع أنه ليس بجسم ولا فى حيز فأى بعد فى أن يسمع كلام الله مع أنه لا يكون حرفاً ولا صوتاً ؟ وزعم أبو منصور الماتريدى السمرقندى أن تلك الصفة القائمة يمتنع كونها مسموعة ، وإنما المسموع حروف وأصوات يخلقها الله تعالى فى الشجرة وهذا القول قريب من قول المعتزلة والله أعلم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال القاضى هذه الآية تدل على حدوث كلام الله تعالى من وجوه : (الأول) أن قوله تعالى (أن يكلمه الله) يدل عليه لأن كلمة أن مع المضارع تفيد الاستقبال (الثانى) أنه وصف الكلام بأنه وحى لأن لفظ الوحى يفيد أنه وقع على أسرع الوجوه (الثالث) أن قوله (أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء) يقتضى أن يكون الكلام الذى يبلغه الملك إلى الرسول البشر مثل الكلام الذى سمعه من الله والذى يبلغه إلى الرسول البشرى حادث ، فلما كان الكلام الذى سمعه من الله مماثلا لهذا الذى بلغه إلى الرسول البشرى ، وهذا الذى بلغه إلى الرسول البشرى حادث ومثل الحادث حادث ، وجب أن يقال إن الكلام الذى سمعه من الله حادث (الرابع) أن قوله (أو يرسل رسولا فيوحى) يقتضى كون الوحى حاصلا بعد الإرسال ، وما كان حصوله متأخراً عن حصول غيره كان حادثاً (والجواب) أنا نصرف جملة هذه الوجوه التى ذكرتموها إلى الحروف والأصوات ونعترف بأنها حادثة كائنة بعد أن لم تكن وبديهة العقل شاهدة بأن الأمر كذلك ، فأى حاجة إلى إثبات هذا المطلوب الذى علمت صحته ببديهة العقل وبظواهر القرآن ؟ والله أعلم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ ثبت أن الوحى من الله تعالى ، إما أن لا يكون بواسطة شخص آخر ، ويمتنع أن يكون كل وحى حاصلا بواسطة شخص آخر ، وإلا لزم إما التسلسل ولما الدور ، وهما محالان ، فلا بد من الاعتراف بحصول وحى يحصل لابواسطة شخص آخر ، ثم ههنا أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ أن الشخص الأول الذى سمع وحى الله لا بواسطة شخص آخر كيف

يعرف أن الكلام الذى سمعه كلام الله ؟ فإن قلنا إنه سمع تلك الصفة القديمة المنزهة عن كونها حرفاً وصوتاً ، لم يبعد أنه إذا سمعها علم بالضرورة كونها كلام الله تعالى ، ولم يبعد أن يقال إنه يحتاج بعد ذلك إلى دليل زائد ، أما إن قلنا إن المسموع هو الحرف والصوت امتنع أن يقطع بكونه كلاماً لله تعالى ، إلا إذا ظهرت دلالة على أن ذلك المسموع هو كلام الله تعالى .

﴿ البحث الثانى ﴾ أن الرسول إذا سمعه من الملك كيف يعرف أن ذلك المبلغ ملك معصوم لاشيطان مضل ؟ والحق أنه لايمكنه القطع بذلك إلا بناء على معجزة تدل على أن ذلك المبلغ ملك معصوم لاشيطان خبيث ، وعلى هذا التقدير ، فالوحى من الله تعالى لا يتم إلا بثلاث مراتب فى ظهور المعجزات :

﴿ المرتبة الأولى ﴾ أن الملك إذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى ، فلا بد له من معجزة تدل على أن ذلك الكلام كلام الله تعالى .

﴿ المرتبة الثانية ﴾ أن ذلك الملك إذا وصل إلى الرسول ، لابد له أيضاً من معجزة .

﴿ المرتبة الثالثة ﴾ أن ذلك الرسول إذا أوصله إلى الأمة ، فلابد له أيضاً من معجزة ، فثبت أن التكليف لا يتوجه على الخلق إلا بعد وقوع ثلاث مراتب فى المعجزات .

﴿ البحث الثالث ﴾ أنه لا شك أن ملكا من الملائكة قد سمع الوحى من الله تعالى ابتداء ، فذلك الملك هو جبريل ، ويقال لعل جبريل سمعه من ملك آخر ، فالكل محتمل ولو بألف واسطة ، ولم يوجد مايدل على القطع بواحد من هذه الوجوه .

﴿ البحث الرابع ﴾ هل فى البشر من سمع وحى الله تعالى من غير واسطة ؟ المشهور أن موسى عليه السلام سمع كلام الله من غير واسطة ، بدليل قوله تعالى (فاستمع لما يوحى) وقيل إن محمد ﷺ سمعه أيضاً لقوله تعالى (فأوحى إلى عبده ما أوحى) .

﴿ البحث الخامس ﴾ أن الملائكة يقدرون على أن يظهروا أنفسهم على أشكال مختلفة ، فبتقدير أن يراه الرسول ﷺ فى كل مرة وجب أن يحتاج إلى المعجزة ، ليعرف أن هذا الذى رآه فى هذه المرة عين ما رآه فى المرة الأولى ، وإن كان لا يرى شخصه كانت الحاجة إلى المعجزة أقوى ، لاحتمال أنه حصل الاشتباه فى الصوت ، إلا أن الإشكال فى أن الحاجة إلى إظهار المعجزة فى كل مرة لم يقل به أحد .

﴿ المسألة السابعة ﴾ دلت المناظرات المذكورة فى القرآن بين الله تعالى وبين إبليس على أنه تعالى كان يتكلم مع إبليس من غير واسطة ، فذلك هل يسمى وحياً من الله تعالى إلى إبليس أم لا ، الأظهر منعه ، ولا بد فى هذا الموضع من بحث غامض كامل .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ قرأ نافع (أو يرسل رسولا) برفع اللام ، فيوحى بسكون الياء ومحله رفع على تقدير ، وهو يرسل فيوحى ، والباقون بالنصب على تأويل المصدر ، كأنه قيل ماكان لبشر

أن يكلمه الله إلا وحياً أو إسماعاً لكلامه من وراء حجاب أو يرسل ، لكن فيه إشكال لأن قوله وحياً أو إسماعاً اسم وقوله (أو يرسل) فعل ، وعطف الفعل على الاسم قبيح ، فأجيب عنه بأن التقدير : وما كان لبشر أن يكلمه إلا أن يوحى إليه وحياً أو يسمع إسماعاً من وراء حجاب أو يرسل رسولا .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ الصحيح عند أهل الحق أن عندما يبلغ الملك الوحى إلى الرسول ، لا يقدر الشيطان على إلقاء الباطل فى أثناء ذلك الوحى ، وقال بعضهم : يجوز ذلك لقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) وقالوا الشيطان ألقى فى أثناء سورة النجم ، تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى ، وكان صديقنا الملك سام بن محمد رحمه الله ، وكان أفضل من لقيته من أرباب السلطنة يقول هذا الكلام بعد الدلائل القوية القاهرة ، باطل من وجهين آخرين (الأول) أن النبى ﷺ قال « من رآنى فى المنام فقد رآنى ، فإن الشيطان لا يتمثل بصورتى » فإذا لم يقدر الشيطان على أن يتمثل فى المنام بصورة الرسول ، فكيف قدر على التشبه بجبريل حال اشتغال تبليغ وحى الله تعالى؟ (والثانى) أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما سلك عمر فجاً إلا وسلك الشيطان فجاً آخر » فإذا لم يقدر الشيطان أن يحضر مع عمر فى فج واحد ، فكيف يقدر على أن يحضر مع جبريل فى موقف تبليغ وحى الله تعالى ؟ .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ قوله تعالى (فيوحى بإذنه ما يشاء) يعنى فيوحى ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله ، وهذا يقتضى أن الحسن لا يحسن لوجه عائد عليه ، وأن القبيح لا يقبح لوجه عائد إليه ، بل لله أن يأمر بما يشاء من غير تخصيص ، وأن ينهى عما يشاء من غير تخصيص ، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما صح قوله (ما يشاء) والله أعلم .

ثم قال تعالى فى آخر الآية (إنه على حكيم) يعنى أنه على عن صفات المخلوقين (حكيم) يجرى أفعاله على موجب الحكمة ، فيتكلم تارة بغير واسطة على سبيل الإلهام ، وأخرى بإسماع الكلام ، وثالثاً بتوسيط الملائكة الكرام . ولما بين الله تعالى كيفية أقسام الوحى إلى الأنبياء عليهم السلام ، قال (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) والمراد به القرآن وسماه روحاً ، لأنه يفيد الحياة من موت الجهل أو الكفر .

قوله تعالى : ﴿ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان﴾ واختلف العلماء فى هذه الآية مع الإجماع ، على أنه لا يجوز أن يقال الرسل كانوا قبل الوحى على الكفر ، وذكروا فى الجواب وجوهاً (الأول) (ما كنت تدرى ما الكتاب) أى القرآن (ولا الإيمان) أى الصلاة ، لقوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم (الثانى) أن يحمل هذا على حذف المضاف ، أى (ما كنت تدرى ما الكتاب) ومن أهل الإيمان ، يعنى من الذى يؤمن ، ومن الذى لا يؤمن (الثالث) (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) حين كنت طفلا فى المهد (الرابع)

(الإيمان) عبارة عن الإقرار بجميع ما كلف الله تعالى به . وإنه قبل النبوة ما كان عارفاً بجميع تكاليف الله تعالى ، بل إنه كان عارفاً بالله تعالى ، وذلك لا ينافى ما ذكرناه (الخامس) صفات الله تعالى على قسمين : منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل ، ومنها ما لا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية . فهذا القسم الثانى لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة .

ثم قال تعالى (ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) واختلفوا فى الضمير فى قوله (ولكن جعلناه) فمنهم من قال إنه راجع إلى القرآن دون الإيمان لأنه هو الذى يعرف به الأحكام ، فلا جرم شبه بالنور الذى يهتدى به ، ومنهم من قال إنه راجع إليهما معاً ، وحسن ذلك لأن معناهما واحد كقوله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها) .

ثم قال (نهدى به من نشاء من عبادنا) وهذا يدل على أنه تعالى بعد أن جعل القرآن نفسه فى نفسه هدى كما قال (هدى للمتقين) فإنه قد يهدى به البعض دون البعض وهذه الهداية ليست إلا عبارة عن الدعوة وإيضاح الأدلة لأنه تعالى قال فى صفة محمد ﷺ (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) وهو يفيد العموم بالنسبة إلى الكل وقوله (نهدى به من نشاء من عبادنا) يفيد الخصوص فثبت أن الهداية بمعنى الدعوة عامة والهداية فى قوله (نهدى به من نشاء من عبادنا) خاصة والهداية الخاصة غير الهداية العامة فوجب أن يكون المراد من قوله (نهدى به من نشاء من عبادنا) أمراً مغايراً الإظهار الدلائل ولإزالة الأعذار ، ولا يجوز أيضاً أن يكون عبارة عن الهداية إلى طريق الجنة لأنه تعالى قال (ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) أى جعلنا القرآن نوراً نهدى به من نشاء ، وهذا لا يليق إلا بالهداية التى تحصل فى الدنيا ، وأيضاً فالهداية إلى الجنة عندكم فى حق البعض واجب ، وفى حق الآخرين محظور ، وعلى التقديرين فلا يبقى لقوله (من نشاء من عبادنا) فائدة ، فثبت أن المراد أنه تعالى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ولا اعتراض عليه فيه .

ثم قال تعالى لمحمد ﷺ (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) فبين تعالى أنه كما أن القرآن يهدى فكذلك الرسول يهدى ، وبين أنه (يهدى إلى صراط مستقيم) وبين أن ذلك الصراط هو (صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض) نبه بذلك على أن الذى تجوز عبادته هو الذى يملك السموات والأرض ، والغرض منه إبطال قول من يعبد غير الله .

ثم قال (ألا إلى الله تصير الأمور) وذلك كالوعيد والزجر ، فبين أن أمر من لا يقبل هذه التكاليف يرجع إلى الله تعالى ، أى إلى حيث لا حاكم سواه فيجازى كلا منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

(قال رضى الله عنه) تم تفسير هذه السورة آخر يوم الجمعة الثامن من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة ، يا مدبر الأمور ، ويا مدهر الدهور ويا معطى كل خير وسرور ، ويا دافع البلايا والشرور ، أوصلنا إلى منازل النور ، فى ظلمات القبور ، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

٤٢ — سورة الشورى
نزلت بمكة وآياتها ثلاث وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ ٤٢ الشورى

عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ ٤٢ الشورى

كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ٤٢ الشورى

﴿ سورة الشورى مكية وآياتها ثلاث وخمسون آية ﴾

١، ٢ (بسم الله الرحمن الرحيم) (حم عسق) اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما وعدا آيتين وقيل اسم واحد والفصل ليناسب سائر الحواميم وقرىء حم سق فعلى الأول هما خبران لمبتدأ محذوف وقيل حم مبتدأ وعسق خبره وعلى الثانى الكل خبر واحد وقوله تعالى (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) كلام مستأنف وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما فى تضاعيف سائر الكتب المنزلة على الرسل المتقدمة فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق أو أن إيحاءها مثل إيحائها بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيه على فخامة شأنها والكاف فى حيز النصب على أنه مفعول ليوحى على الأول وعلى أنه نعت لمصدر مؤكد له على الثانى وذلك على الأول إشارة إلى مافيها وعلى الثانى إلى إيحائها وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل أى مثل مافى هذه السورة من المعانى أوحى إليك فى سائر السور وإلى من قبلك من الرسل فى كتبهم على أن مناط المماثلة ما أشير إليه من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق وما فيه صلاح العباد فى المعاش والمعاد أو مثل إيحائها أوحى إليك عند إيحاء سائر السور وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم لا إيحاء مغايراً له كما فى قوله تعالى إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح الآية على أن مدار المثلية كونه بواسطة الملك وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية للإيذان باستمرار الوحى وأن إيحاء مثله عادته وفى جعل مضمون السورة أو إيحائها مشبهاً به من تفخيمها مالا يخفى وكذا فى وصفه تعالى بوصفى العزة والحكمة وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل مع مافيه من التشويق وقرىء يوحى على البناء للمفعول على أن كذلك مبتدأ ويوحى خبره المسند إلى ضميره أو مصدر ويوحى مسند إلى إليك والله مرتفع بما دل عليه يوحى كأنه قيل من يوحى فقيل الله والعزيز الحكيم صفتان له أو مبتدأ كما فى قراءة ٣ نوحى والعزيز وما بعده خبران له أو العزيز الحكيم صفتان له .

لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ ٤٢ الشورى

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ٤٢ الشورى

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ٤٢ الشورى

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ٤٢ الشورى

---

٤ وقوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم) خبران له وعلى الوجوه السابقة استئناف
٥ مقرر لعزته وحكمته (تكاد السموات) وقرىء بالياء (يتفطرن) يتشققن من عظمة الله تعالى وقيل من دعاء الولد له كما فى سورة مريم وقرىء ينفطرن والأول أبلغ لأنه مطاوع فطر وهذا مطاوع
* فطر وقرىء تتفطرن بالتاء لتأكيد التأنيث وهو نادر (من فوقهن) أى يبتدأ التفطر من جهتهن الفوقانية وتخصيصها على الأول لما أن أعظم الآيات وأدلها على العظمة والجلال من تلك الجهة وعلى الثانى للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الأولى لأن تلك الكلمة الشنعاء الواقعة فى الأرض حيث أثرت فى جهة الفوق فلأن تؤثر فى جهة التحت أولى وقيل الضمير للأرض فإنها فى معنى الأرضين
* (والملائكة يسبحون بحمد ربهم) ينزهونه تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده (ويستغفرون لمن فى الأرض) بالسعى فيما يستدعى مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وترتيب الأسباب المقربة إلى الطاعة واستدعاء تأخير العقوبة طمعاً فى إيمان الكافر وتوبة الفاسق وهذا يعم المؤمن والكافر بل لو فسر الاستغفار بالسعى فيما يدفع الخلل المتوقع عم الحيوان بل الجماد وحيث خص بالمؤمنين كما فى قوله
* تعالى ويستغفرون للذين آمنوا فالمراد به الشفاعة (ألا إن الله هو الغفور الرحيم) إذ ما من مخلوق إلا وله حظ عظيم من رحمته تعالى والآية على الأول زيادة تقرير لعظمته تعالى وعلى الثانى بيان لكمال تقدسه عما نسب إليه وأن ترك معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاء بسبب استغفار الملائكة وفرط غفرانه ورحمته ففيها رمز إلى أنه تعالى يقبل استغفارهم ويزيدهم على ما طلبوه من المغفرة
٦ رحمة (والذين اتخذوا من دونه أولياء) شركاء وأنداداً (الله حفيظ عليهم) رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها (وما أنت عليهم بوكيل) بموكل بهم أو بموكول إليه أمرهم وإنما وظيفتك
٧ الإنذار (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً) ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا ومحل الكاف النصب على المصدرية وقرآناً عربياً مفعول لأوحينا أى ومثل ذلك الإيحاء البديع البين المفهم أوحينا إليك قرآناً عربياً لا لبس فيه عليك ولا على قومك وقيل إشارة إلى معنى الآية المتقدمة من أنه تعالى هو الحفيظ عليهم وإنما أنت نذير فحسب فالكاف مفعول به لأوحينا وقرآناً عربياً حال من المفعول

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ٤٢ الشورى

* بهأى أوحيناه إليك وهو قرآن عربى بين (لتنذر أم القرى) أى أهلها وهى مكة (ومن حولها) من العرب (وتنذر يوم الجمع) أى يوم القيامة لأنه يجمع فيه الخلائق قال تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع وقيل تجمع فيه الأرواح والأشباح وقيل الأعمال والعمال والإنذار يتعدى إلى مفعولين وقد يستعمل ثانيهما بالباء وقد حذف ههنا ثانى مفعولى الأول وأول مفعولى الثانى للتهويل وإيهام التعميم وقرىء لينذر بالياء على أن فاعله ضمير القرآن (لاريب فيه) اعتراض مقرر لما قبله (فريق فى الجنة
* وفريق فى السعير) أى بعد جمعهم فى الموقف فإنهم يجمعون فيه أولا ثم يفرقون بعد الحساب والتقدير منهم فريق والضمير للمجموعين لدلالة الجمع عليه وقرئا منصوبين على الحالية منهم أى وتنذر يوم جمعهم متفرقين أى مشارفين للتفرق أو متفرقين فى دارى الثواب والعقاب (ولو شاء الله لجعلهم) أى فى
٨ الدنيا (أمة واحدة) قيل مهتدين أو ضالين وهو تفصيل لما أجمله ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله على دين واحد فمعنى قوله تعالى (ولكن يدخل من يشاء فى رحمته) أنه تعالى يدخل فى رحمته من يشاء
* أن يدخله فيها ويدخل فى عذابه من يشاء أن يدخله فيه ولا ريب فى أن مشيئته تعالى لكل من الإدخالين تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله ومن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب اختلاف حال الداخلين فيهما قطعاً فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة بل جعلهم فريقين وإنما قيل (والظالمون مالهم من ولى ولا نصير) للإيذان بأن الإدخال فى العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم لامن جهته تعالى كما فى الإدخال فى الرحمة لالما قيل من المبالغة فى الوعيد وقيل مؤمنين كلهم وهو ماقاله مقاتل على دين الإسلام كما فى قوله تعالى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى وقوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها والمعنى ولو شاء الله مشيئة قدرة لقسرهم على الإيمان ولكنه شاء مشيئة حكمة وكلفهم وبنى أمرهم على مايختارون ليدخل المؤمنين فى رحمته وهم المرادون بقوله تعالى يدخل من يشاء وترك الظالمين بغير ولى ولا نصير وأنت خبير بأن فرض جعل الكل مؤمنين يأباه تصدير الاستدراك بإدخال بعضهم فى رحمته إذ الكل حينئذ داخلون فيها فكان المناسب حينئذ تصديره بإخراج بعضهم من بينهم وإدخالهم فى عذابه فالذى يقتضيه سياق النظم الكريم وسباقه أن يراد الاتحاد فى الكفر كما فى قوله تعالى كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين الآية على أحد الوجهين بأن يراد بهم الذين هم فى فترة إدريس أو فى فترة نوح عليهما السلام فالمعنى ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة متفقة على الكفر بأن لا يرسل إليهم رسولا لينذرهم ماذكر من يوم الجمع وما فيه من ألوان الأهوال فيبقوا على ماهم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء فى رحمته أى شأنه ذلك فيرسل إلى الكل من ينذرهم ما ذكر فيتأثر بعضهم بالإنذار فيصرفون اختيارهم إلى الحق فيوفقهم الله للإيمان والطاعة ويدخلهم فى رحمته ولا يتأثر به الآخرون ويتمادون فى غيهم وهم الظالمون فيبقون فى الدنيا

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ٤٢ الشورى
وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ٤٢ الشورى
فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ٤٢ الشورى

على ماهم عليه من الكفر ويصيرون فى الآخرة إلى السعير من غير ولى يلى أمرهم ولا نصير يخلصهم
٩ من العذاب (أم اتخذوا من دونه أولياء) جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين
ولى أو نصير وأم منقطعة وما فيها من بل للانتقال من بيان ماقبلها إلى بيان مابعدها والهمزة لإنكار
الوقوع ونفيه على أبلغ وجه وآكده لا لإنكار الواقع واستقباحه كما قيل إذ المراد بيان أن مافعلوا ليس
من اتخاذ الأولياء فى شىء لأن ذلك فرع كون الأصنام أولياء وهو أظهر الممتنعات أى بل أتخذوا
* متجاوزين الله أولياء من الأصنام وغيرها هيهات وقوله تعالى (فالله هو الولى) جواب شرط محذوف
كأنه قيل بعد إبطال ولاية مااتخذوه أولياء إن أرادوا ولياً فى الحقيقة فالله هو الولى لاولى سواه (وهو
يحيى الموتى) أى ومن شأنه ذلك (وهو على كل شىء قدير) فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً فليخصوه
١٠ بالاتخاذ دون من لا يقدر على شىء (وما اختلفتم فيه من شىء) حكاية لقول رسول الله صلى الله
عليه وسلم للمؤمنين أى وما خالفكم الكفار فيه من أمور الدين فاختلفتم أنتم وهم (فحكمه) راجع
(إلى الله) وهو إثابة المحقين وعقاب المبطلين (ذلكم) الحاكم العظيم الشأن (الله ربى) مالكى (عليه
* توكلت) فى مجامع أمورى خاصة لا على غيره (وإليه أنيب) أرجع فى كل مايعن لى من معضلات
الأمور لا إلى أحد سواه وحيث كان التوكل أمراً واحداً مستمراً والإنابة متعددة متجددة حسب
تجدد موادها أوثر فى الأول صيغة الماضى وفى الثانى صيغة المضارع وقيل وما اختلفتم فيه وتنازعتم
فى شىء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تؤثروا على حكومته
حكومة غيره وقيل وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا فى بيانه إلى المحكم من
كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل وما وقع بينكم الخلاف فيه من
العلوم التى لا تتعلق بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا الله أعلم كمعرفة الروح ولا مساغ لحمل
١١ هذا على الاجتهاد لعدم جوازه بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم (فاطر السموات والأرض)
خبر آخر لذلكم أو خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره (جعل لكم) وقرىء بالجر على أنه بدل من
الضمير أو وصف للاسم الجليل فى قوله تعالى إلى الله وما بينهما اعتراض بين الصفة والموصوف
(من أنفسكم) من جنسكم (أزواجا) نساء وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح قد مر سره
غيره مرة (ومن الأنعام) أى وجعل للأنعام من جنسها (أزواجا) أو خلق لكم من الأنعام
أصنافا أو ذكوراً وإناثاً (يذرؤكم) يكثركم من الذرء وهو البث وفى معناه الذرو والذر (فيه) أى

لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ٤٢ الشورى

شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾

٤٢ الشورى

فيما ذكر من التدبير فإن جعل الناس والأنعام ازواجا يكون بينهم توالد كالمنبع للبث والتكثير (ليس كمثله شيء) أى ليس مثله شيء فى شأن من الشئون التى من جملتها هذا التدبير البديع والمراد من مثله ذاته كما فى قولهم مثلك لا يفعل كذا على قصد المبالغة فى نفيه عنه فإنه إذا نفى عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى ثم سلكت هذه الطريقة فى شأن من لا مثل له وقيل مثله صفته أى ليس كصفته صفة (وهو السميع البصير) المبالغ فى العلم بكل ما يسمع ويبصر (له مقاليد السموات والأرض) أى خزائنهما ١٢ (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يوسع ويضيق حسبما تقتضيه مشيئته المؤسسة على الحكم البالغة (إنه بكل شيء عليم) مبالغ فى الإحاطة به فيفعل كل ما يفعل على ما ينبغى أن يفعل عليه والجملة تعليل لما قبلها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما ١٣ وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى) وإيذان بأن ماشرع لهم صادر عن كمال العلم والحكمة كما أن بيان نسبته إلى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيه على كونه دينا قديما أجمع عليه الرسل والخطاب لأمته عليه الصلاة والسلام أى شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ومن بعده من أرباب الشرائع وأولى العزائم من مشاهير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرهم به أمرا مؤكدا على أن تخصيصهم بالذكر لما ذكر من علو شأنهم ولاستمالة قلوب الكفرة إليه لاتفاق الكل على نبوة بعضهم وتفرد اليهود فى شأن موسى عليه السلام وتفرد النصارى فى حق عيسى عليه السلام وإلا فما من نبى إلا وهو مأمور بما أمروا به وهو عبارة عن التوحيد ودين الإسلام وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدل الأعصار من أصول الشرائع والأحكام كما ينبىء عنه التوصية فإنها معربة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن المأمور به والمراد بإيحائه إليه عليه الصلاة والسلام إما ماذكر فى صدر السورة الكريمة وفى قوله تعالى وكذلك أوحينا الآية أو مايعمهما وغيرهما مما وقع فى سائر المواقع التى من جملتها قوله تعالى ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وقوله تعالى قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد وغير ذلك والتعبير عن ذلك عند نسبته إليه عليه الصلاة والسلام بالذى لزيادة تفخيم شأنه من تلك الحيثية وإيثار الإيحاء على ماقبله وما بعده من التوصية لمراعاة ماوقع فى الآيات المذكورة ولما فى الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه وهو السر فى تقديمه على مابعده مع تقدمه عليه زمانا وتقديم

وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ٤٢ الشورى

توصية نوح عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً وتوجيه الخطاب إليه عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام (أن أقيموا الدين) أى دين الإسلام الذى هو توحيد الله تعالى وطاعته والإيمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وسائر ما يكون الرجل به مؤمناً والمراد بإقامته تعديل أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ أو المواظبة عليه والتشمر له ومحل أن أقيموا إما النصب على أنه بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه أو الرفع على أنه جواب عن سؤال نشأ من إبهام المشروع كأنه قيل وما ذاك فقيل هو إقامة الدين وقيل بدل من ضمير به وليس بذاك لما أنه مع إفضائه إلى خروجه عن حيز الإيحاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم مستلزم لكون الخطاب فى قوله تعالى (ولا تتفرقوا فيه) للأنبياء المذكورين عليهم الصلاة والسلام وتوجيه النهى إلى أممهم تمحل ظاهر مع أن الأظهر أنه متوجه إلى أمته صلى الله عليه وسلم وأنهم المتفرقون كما ستحيط به خبراً أى لا تتفرقوا فى الدين الذى هو عبارة عما ذكر من الأصول دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الأمم باختلاف الأعصار كما ينطق به قوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا وقوله تعالى (كبر على المشركين) شروع فى بيان أحوال بعض من شرع لهم ماشرع من الدين القويم أى عظم وشق عليهم (ماتدعوهم إليه) من التوحيد ورفض عبادة الأصنام واستبعدوه حيث قالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب وقوله تعالى (الله يجتبي إليه من يشاء) استئناف وارد لتحقيق الحق وفيه إشعار بأن منهم من يجيب إلى الدعوة أى الله يجتلب إلى ماتدعوهم إليه من يشاء أن يجتبيه إليه وهو من صرف اختياره إلى مادعى إليه كما ينبيء عنه قوله تعالى (ويهدى إليه من ينيب) أى يقبل إليه حيث يمده بالتوفيق والألطاف

١٤ وقوله تعالى (وما تفرقوا) شروع فى بيان أحوال أهل الكتاب عقيب الإشارة الإجمالية إلى أحوال أهل الشرك قال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود والنصارى لقوله تعالى وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة أى وما تفرقوا فى الدين الذى دعوا إليه ولم يؤمنوا كما آمن بعضهم (إلا من بعد ماجاءهم العلم) بحقيته بما شاهدوا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن من دلائل الحقية حسبما وجدوه فى كتابهم أو العلم بمبعثه صلى الله عليه وسلم وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو من أعم الأوقات أى وما تفرقوا فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا حال مجيء العلم أو إلا وقت مجيء العلم (بغياً بينهم) وحمية وطلباً للرياسة لا لأن لهم فى ذلك شبهة (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهى العدة بتأخير العقوبة (إلى أجل مسمى) هو يوم القيامة (لقضى بينهم) لأوقع القضاء بينهم باستئصالهم لاستيجاب جناياتهم لذلك قطعاً وقوله تعالى (وإن الذين

فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

٤٢ الشورى

أورثوا الكتاب من بعدهم) الخ بيان لكيفية كفر المشركين بالقرآن إثر بيان كيفية كفر أهل الكتاب وقرىء ورثوا وورثوا أى وإن المشركين الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب كتابهم (لفى شك منه) من القرآن (مريب) موقع فى القلق أو فى الريبة ولذلك لا يؤمنون به لا لمحض البغى * والمكابرة بعد ما علموا بحقيته كدأب أهل الكتابين هذا وأما ماقيل من أن ضمير تفرقوا لأمم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأن المراد تفرق كل أمة بعد نبيها مع علمهم بأن الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه على ألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيرده قوله تعالى ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وكذا ماقيل من أن الناس كانوا أمة واحدة مؤمنين بعد ما أهلك الله تعالى أهل الأرض بالطوفان فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم وذلك حين بعث الله تعالى النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم وإنما اختلفوا للبغى بينهم فإن مشاهير الأمم المذكورة قد أصابهم عذاب الاستئصال من غير إنظار وإمهال على أن مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمة وإنما ذكر من ذكر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتحقيق أن ماشرع لهؤلاء دين قديم أجمع عليه أولئك الأعلام عليهم الصلاة والسلام تأكيداً لوجوب إقامته وتشديداً للزجر عن التفرق والاختلاف فيه فالتعرض لبيان تفرق أممهم عنه ربما يوهم الإخلال بذلك المرام (فلذلك) أى فلأجل ماذكر من التفرق ١٥ والشك المريب أو فلأجل أنه شرع لهم الدين القويم القديم الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون (فادع) أى الناس كافة إلى إقامة ذلك الدين والعمل بموجبه فإن كلا من تفرقهم وكونهم فى شك * مريب ومن شرع ذلك الدين لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب للدعوة إليه والأمر بها وليس المشار إليه ما ذكر من التوصية والأمر بالإقامة والنهى عن التفرق حتى يتوهم شائبة التكرار وقيل المشار إليه نفس الدين المشروع واللام بمعنى إلى كما فى قوله تعالى بأن ربك أوحى لها أى فإلى ذلك الدين فادع (واستقم) عليه وعلى الدعوة إليه (كما أمرت) وأوحى إليك (ولا تتبع أهواءهم) * الباطلة (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) أى كتاب كان من الكتب المنزلة لا كالذين آمنوا ببعض منها وكفروا ببعض وفيه تحقيق للحق وبيان لاتفاق الكتب فى الأصول وتأليف لقلوب أهل الكتابين وتعريض بهم وقد مر بيان كيفية الإيمان بها فى خاتمة سورة البقرة (وأمرت لأعدل * بينكم) فى تبليغ الشرائع والأحكام وفصل القضايا عند المحاكمة والخصام وقيل معناه لاسوى بينى وبينكم ولا آمركم بما لا أعمله ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ولا أفرق بين أكابركم وأصاغركم واللام إما على حقيقتها والمأمور به محذوف أى أمرت بذلك لأعدل أو زائدة أى أمرت أن أعدل والباء محذوفة (الله ربنا وربكم) أى خالقنا جميعاً ومتولى أمورنا (لنا أعمالنا) لايتخطانا جزاؤها ثواباً كان

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٤٢ الشورى

اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ٤٢ الشورى

يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٤٢ الشورى

أو عقاباً (ولكم أعمالكم) لاتجاوزكم آثارها لنستفيد بحسناتكم ونتضرر بسيآتكم (لا حجة بيننا وبينكم) لامحاجة ولا خصومة لأن الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة حاجة ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة (الله يجمع بيننا) يوم القيامة (وإليه المصير) فيظهر هناك حالنا وحالكم وهذا كما ترى محاجزة فى مواقف المجاوبة لامتاركة فى مواطن المحاربة حتى يصار إلى النسخ بآية القتال (والذين ١٦ يحاجون فى الله) أى فى دينه (من بعد ما استجيب له) من بعدما استجاب له الناس ودخلوا فيه والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه أو من بعد ما استجاب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وأيده بنصره أو من بعد ما استجاب له أهل الكتاب بأن أقروا بنبوته صلى الله عليه وسلم واستفتحوا به قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم وذلك أن اليهود والنصارى كانوا يقولون للمؤمنين كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالحق (حجتهم داحضة عند ربهم) زالة زائلة باطلة بل لاحجة لهم أصلا وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة مجاراة معهم على زعمهم الباطل (وعليهم غضب) عظيم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره (ولهم عذاب شديد) لايقادر قدره (الله الذى أنزل الكتاب) ١٧ أى جنس الكتاب (بالحق) ملتبساً به فى أحكامه وأخباره أو بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام (والميزان) والشرع الذى يوزن به الحقوق ويسوى بين الناس أو نفس العدل بأن أنزل الأمر به أو آلة الوزن (وما يدريك) أى أى شىء يجعلك عالماً (لعل الساعة) التى يخبر بمجيئها الكتاب الناطق بالحق (قريب) أى شىء قريب أو قريب مجيئها وقيل القريب بمعنى ذات قرب أو الساعة بمعنى البعث والمعنى أنها على جناح الإتيان فاتبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذى يوزن فيه الأعمال ويوفى جزاؤها (يستعجل بها الذين لايؤمنون بها) استعجال ١٨ إنكار واستهزاء كانوا يقولون متى هى ليتها قامت حتى يظهر لنا الحق أهو الذى نحن عليه أم الذى عليه محمد وأصحابه (والذين آمنوا مشفقون منها) خائفون منها مع اعتناء بها لتوقع الثواب (ويعلمون أنها الحق) أى الكائن لامحالة (ألا إن الذين يمارون فى الساعة) يجادلون فيها من المرية أو من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لأن كلا من المتجادلين يستخرج ماعند صاحبه بكلام فيه شدة (لفى ضلال بعيد) عن الحق فإن البعث أشبه الغائبات بالمحسوسات فمن لم يهتد إلى تجويزه فهو عن

ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ٤٢ الشورى

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ٤٢ الشورى

أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ ٤٢ الشورى

تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ٤٢ الشورى

---

١٩ الاهتداء إلى ماوراءه أبعد وأبعد (الله لطيف بعباده) أى بر بليغ البر بهم يفيض عليهم من فنون ألطافه مالا يكاد يناله أيدى الأفكار والظنون (يرزق من يشاء) أن يرزقه كيفما يشاء فيخص كلا من عباده بنوع من البر على ماتقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة (وهو القوى) الباهر القدرة الغالب

٢٠ على كل شيء (العزيز) المنيع الذى لايغلب (من كان يريد حرث الآخرة) الحرث فى الأصل إلقاء البذر فى الأرض يطلق على الزرع الحاصل منه ويستعمل فى ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذور المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور أى من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة (نزد له فى حرثه) نضاعف له ثوابه بالواحد عشرة إلى سبعمائة فما فوقها (ومن كان يريد) * بأعماله (حرث الدنيا) وهو متاعها وطيباتها (نؤته منها) أى شيئاً منها حسبما قسمنا له لا ما يريده ويبتغيه (وما له فى الآخرة من نصيب) إذ كانت همته مقصورة على الدنيا وقد مر تفصيله فى سورة

٢١ الإسراء (أم لهم شركاء) أى بل ألهم شركاء من الشياطين والهمزة للتقرير والتقريع (شرعوا لهم) بالتسويل (من الدين مالم يأذن به الله) كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا وقيل شركاؤهم أوثانهم وإضافتها إليهم لأنهم الذين جعلوها شركاء لله تعالى وإسناد الشرع إليها لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم كقوله تعالى إنهن أضللن كثيراً أو تماثيل من سن الضلالة لهم (ولولا كلمة الفصل) أى القضاء السابق * بتأخير الجزاء أو العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة (لقضى بينهم) أى بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم (وإن الظالمين لهم عذاب أليم) وقرىء بالفتح عطفا على كلمة الفصل أى ولولا * كلمة الفصل وتقدير عذاب الظالمين فى الآخرة لقضى بينهم فى الدنيا فإن العذاب الأليم غالب فى عذاب

٢٢ الآخرة (ترى الظالمين) يوم القيامة والخطاب لكل أحد ممن يصلح له للقصد إلى أن سوء حالهم غير مختص برؤية راء دون راء (مشفقين) خائفين (مما كسبوا) من السيآت (وهو واقع بهم) أى ووباله لاحق بهم لامحالة أشفقوا أو لم يشفقوا والجملة حال من ضمير مشفقين أو اعتراض (والذين آمنوا وعملوا

ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ٤٢ الشورى

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ٤٢ الشورى

الصالحات فى روضات الجنات) مستقرون فى أطيب بقاعها وأنزهها (لهم مايشاءون عند ربهم) أى مايشتهونه من فنون المستلذات حاصل لهم عند ربهم ظرف للاستقرار العامل فى لهم وقيل ظرف ليشاءون (ذلك) إشارة إلى ماذكر من حال المؤمنين وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه) هو الفضل الكبير) الذى لايقادر قدره ولا يبلغ غايته (ذلك) الفضل الكبير هو (الذى يبشر الله عباده) أى يبشرهم به لحذف الجار ثم العائد إلى الموصول كما فى قوله تعالى أهذا الذى بعث الله رسولا أو ذلك التبشير الذى يبشره الله تعالى عباده (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقرىء يبشر من أبشر (قل لا أسألكم عليه) روى أنه اجتمع المشركون فى مجمع لهم فقال بعضهم لبعض أترون أن محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً فنزلت أى لا أطلب منكم على ماأنا عليه من التبليغ والبشارة (أجراً) نفعاً (إلا المودة فى القربى) أى إلا أن تودونى لقرابتى منكم أو تودوا أهل قرابتى وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لا أسألكم أجراً قط ولكن أسألكم المودة وفى القربى حال منها أى إلا المودة ثابتة فى القربى متمكنة فى أهلها أو فى حق القرابة والقربى مصدر كالزلفى بمعنى القرابة روى أنها لما نزلت قيل يارسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم قال على وفاطمة وابناهما وعن النبى صلى الله عليه وسلم حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتى وآذانى فى عترتى ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه فأنا أجازيه عليها غداً إذا لقينى يوم القيامة وقيل القربى التقرب إلى الله أى إلا أن تودوا الله ورسوله فى تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح وقرىء إلا مودة فى القربى (ومن يقترف حسنة) أى يكتسب أى حسنة كانت فتتناول مودة ذى القربى تناولا أولياً وعن السدى أنها المرادة وقيل نزلت فى الصديق رضى الله عنه ومودته فيهم (نزد له فيها) أى فى الحسنة (حسناً) بمضاعفة الثواب وقرىء يزد أى يزد الله وقرىء حسنى (إن الله غفور) لمن أذنب (شكور) لمن أطاع بتوفية الثواب والتفضل عليه بالزيادة (أم يقولون) بل أيقولون (افترى) محمد (على الله كذباً) بدعوى النبوة وتلاوة القرآن على أن الهمزة للإنكار التوبيخى كأنه قيل أيتمالكون أن ينسبوا مثله عليه السلام وهو هو إلى الافتراء لاسيما الافتراء على الله الذى هو أعظم الفرى وأفحشها وقوله تعالى (فإن يشأ الله يختم على قلبك) استشهاد على بطلان ماقالوا ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعاً وتحقيقه أن دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم بأنه تعالى لايشاء صدوره عن النبى صلى الله عليه وسلم بل يشاء عدم صدوره

وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ٤٢ الشورى
وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾
٤٢ الشورى

عنه ومن ضرورته منعه عنه قطعاً فكأنه قيل لوكان افتراء عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنك وإن يشأ ذلك يختم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنى من معانيه ولم تنطق بحرف من حروفه وحيث لم يكن الأمر كذلك بل تواتر الوحى حيناً فحيناً تبين أنه من عند الله تعالى هذا وقيل المعنى إن يشأ يجعلك من المختوم على قلوبهم فإنه لا يجترىء على الافتراء عليه تعالى إلا من كان كذلك ومؤداه استبعاد الافتراء من مثله عليه السلام وأنه فى البعد مثل الشرك بالله والدخول فى جملة المختوم على قلوبهم وعن قتادة يختم على قلبك ينسك القرآن ويقطع عنك الوحى يعنى لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك وهذا معنى ماقيل لو كذب على الله لأنساه القرآن وقيل يختم على قلبك يربط عليه بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم (ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته) استئناف مقرر لنفى الافتراء غير معطوف على يختم كما ينبىء عنه إظهار الاسم الجليل وسقوط الواو كما فى بعض المصاحف لاتباع اللفظ كما فى قوله تعالى ويدع الإنسان بالشر أى ومن عادته تعالى أنه يمحو الباطل ويثبت الحق بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فلوكان افتراء كما زعموا لمحقه ودمغه أو عدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه تعالى يمحو الباطل الذى هم عليه من البهت والتكذيب ويثبت الحق الذى هو عليه بالقرآن أو بقضائه الذى لا مرد له بنصرته عليهم (إنه عليم بذات الصدور) فيجرى عليها أحكامها اللائقة بها من المحو والإثبات (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) التوبة هى ٢٥ الرجوع عن المعاصى بالندم عليها والعزم على أن لا يعاودها أبداً وروى جابر رضى الله عنه أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم إنى استغفرك وأتوب إليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له على رضى الله عنه ياهذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك هذه تحتاج إلى التوبة فقال ياأمير المؤمنين وما التوبة قال اسم يقع على ستة معان على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية وإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته (ويعفو عن السيئات) صغيرها وكبيرها لمن يشاء (ويعلم مايفعلون) كائناً ما كان من خير وشر فيجازى ويتجاوز حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وقرىء ماتفعلون بالتاء (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ٢٦ أى يستجيب الله لهم فحذف اللام كما فى قوله تعالى وإذا كالوهم أى كالوا لهم والمراد إجابة دعوتهم والإثابة على طاعتهم فإنها كدعاء وطلب لما يترتب عليها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم أفضل الدعاء الحمد لله أو يستجيبون الله بالطاعة إذا دعاهم إليها وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له ما بالنا ندعو فلا

وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ٤٢ الشورى

وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ٤٢ الشورى

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ٤٢ الشورى

نجاب قال لأنه دعاكم ولم تجيبوه ثم قرأ والله يدعو إلى دار السلام (ويزيدهم من فضله) على ماسألوا واستحقوا بموجب الوعد (والكافرون لهم عذاب شديد) بدل ما للمؤمنين من الثواب والفضل

٢٧ المزيد (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض) لتكبروا وأفسدوا فيها بطراً أو لعلا بعضهم على بعض بالاستيلاء والاستعلاء كما عليه الجبلة البشرية وأصل البغى طلب تجاوز الاقتصاد فيمايتحرى من حيث الكمية أو الكيفية (ولكن ينزل بقدر) أى بتقدير (مايشاء) أن ينزله مما تقتضيه مشيئته (إنه بعباده خبير بصير) محيط بخفايا أمورهم وجلاياها فيقدر لكل واحد منهم فى كل وقت من أوقاتهم مايليق بشأنهم فيفقر ويغنى ويمنع ويعطى ويقبض ويبسط حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ولو أغناهم جميعاً لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا وروى أن أهل الصفة تمنوا الغنى فنزلت وقيل نزلت فى

٢٨ العرب كانوا إذا أخصبوا تحاربوا وإذا أجدبوا انتجعوا (وهو الذى ينزل الغيث) أى المطر الذى يغيثهم من الجدب ولذلك خص بالنافع منه وقرىء ينزل من الإنزال (من بعد ماقنطوا) يئسوا منه وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضاً لتذكر كمال النعمة وقرىء بكسر النون (وينشر رحمته) أى بركات الغيث ومنافعه فى كل شىء من السهل والجبل والنبات والحيوان أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر انتظاماً أولياً (وهو الولى) الذى يتولى عباده بالإحسان ونشر الرحمة (الحميد) المستحق

٢٩ للحمد على ذلك لاغيره (ومن آياته خلق السموات والأرض) على ماهما عليه من تعاجيب الصنائع فإنها بذاتها وصفاتها تدل على شئونه العظيمة (وما بث فيهما) عطف على السموات أو الخلق (من دابة) من حى على إطلاق اسم المسبب على السبب أو مما يدب على الأرض فإن مايختص بأحد الشيئين المتجاورين يصح نسبته إليهما كما فى قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وإنما يخرج من الملح وقد جوز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشى مع الطيران فيوصفوا بالدبيب وأن يخلق الله فى السماء حيواناً يمشون فيها مشى الأناسى على الأرض كما ينبىء عنه قوله تعالى ويخلق مالا تعلمون وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش العظيم (وهو على جمعهم) أى حشرهم بعد البعث للمحاسبة وقوله تعالى (إذا يشاء) متعلق بما قبله لا بقوله تعالى

وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ٤٢ الشورى

وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ٤٢ الشورى

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ ٤٢ الشورى

إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ٤٢ الشورى

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ ٤٢ الشورى

وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ٤٢ الشورى

(قدير) فإن المقيد بالمشيئة جمعه تعالى لاقدرته وإذا عند كونها بمعنى الوقت كما تدخل الماضى تدخل المضارع (وما أصابكم من مصيبة) أى مصيبة كانت (فبما كسبت أيديكم) أى فهى معاصيكم التى اكتسبتموها ٣٠ والفاء لأن ماشرطية أو متضمنة لمعنى الشرط وقرىء بدونها اكتفاء بما فى الباء من معنى السببية (ويعفوا عن كثير) من الذنوب فلا يعاقب عليها والآية مخصوصة بالمجرمين فإن ما أصاب غيرهم لأسباب أخرى منها تعريضه للثواب بالصبر عليه (وما أنتم بمعجزين فى الأرض) فائتين ماقضى عليكم من المصائب وإن ٣١ هربتم من أقطارها كل مهرب (وما لكم من دون الله من ولى) يحميكم منها (ولا نصير) يدفعها عنكم (ومن آياته الجوار) السفن الجارية (فى البحر) وقرىء الجوارى (كالأعلام) أى كالجبال على ٣٢ الإطلاق لا التى عليها النار للاهتداء خاصة (إن يشأ يسكن الريح) التى تجريها وقرىء الرياح (فيظللن ٣٣ رواكد على ظهره) فيبقين ثوابت على ظهر البحر أى غير جاريات لا غير متحركات أصلا (إن فى ذلك) الذى ذكر من السفن اللاتى يجرين تارة ويركدن أخرى على حسب مشيئته تعالى (لآيات) عظيمة فى أنفسها كثيرة فى العدد دالة على ما ذكر من شئونه تعالى (لكل صبار شكور) لكل من حبس نفسه عن التوجه إلى ما لا ينبغى ووكل همته بالنظر فى آيات الله تعالى والتفكر فى آلائه أو لكل مؤمن كامل فإن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر (أو يوبقهن بما كسبوا) عطف على يسكن والمعنى ٣٤ إن يشأ يسكن الريح فيركدن أو يرسلها فيغرقن بعصفها وإيقاع الإيباق عليهن مع أنه حال أهلهن للمبالغة والتهويل وإجراء حكمه على العفو فى قوله تعالى (ويعف عن كثير) لما أن المعنى أو يرسلها فيوبق ناساً وينج آخرين بطريق العفو عنهم وقرىء ويعفو على الاستئناف (ويعلم الذين يجادلون ٣٥ فى آياتنا) عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم وليعلم الخ كما فى قوله تعالى ولنجعله آية للناس وقوله ولنعلمه من تأويل الأحاديث ونظائرهما وقرىء بالرفع على الاستئناف وبالجزم عطفاً على يعف فيكون المعنى وإن يشأ يجمع بين إهلاك قوم وإنجاء قوم وتحذير قوم (مالهم من محيص) أى من مهرب من العذاب والجملة معلق عنها الفعل .

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ٤٢ الشورى

وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ٤٢ الشورى

وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ٤٢ الشورى

وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ٤٢ الشورى

وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ٤٢ الشورى

---

٣٦ (فما أوتيتم من شيء) مما ترغبون وتتنافسون فيه (فمتاع الحياة الدنيا) أى فهو متاعها تتمتعون به مدة حياتكم (وما عند الله) من ثواب الآخرة (خير) ذاتاً لخلوص نفعه (وأبقى) زماناً حيث لايزول ولا يفنى (للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) لا على غيره أصلا والموصول الأول لما كان متضمناً لمعنى الشرط من حيث أن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع بها فى الحياة الدنيا دخلت جوابها الفاء بخلاف الثانى وعن على رضى الله عنه أنه تصدق أبو بكر رضى الله عنه بماله فلامه جمع من المسلمين

٣٧ فنزلت وقوله تعالى (والذين يجتنبون كبائر الإثم) أى الكبائر من هذا الجنس (والفواحش وإذا ماغضبوا هم يغفرون) مع مابعده عطف على الذين آمنوا أو مدح بالنصب أو الرفع وبناء يغفرون على الضمير خبراً له للدلالة على أنهم الأخصاء بالمغفرة حال الغضب لعزة منالها وقرىء كبير الإثم

٣٨ وعن ابن عباس رضى الله عنهما كبير الإثم الشرك (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة) نزل فى الأنصار دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان فاستجابوا له (وأمرهم شورى بينهم) أى ذو شورى لاينفردون برأى حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه وكانوا قبل الهجرة وبعدها إذا حزبهم أمر اجتمعوا وتشاوروا (ومما رزقناهم ينفقون) أى فى سبيل الخير ولعل فصله عن قرينه بذكر

٣٩ المشاورة لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) أى ينتقمون ممن بغى عليهم على ماجعله الله تعالى لهم كراهة التذلل وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر مهمات الفضائل وهذا لاينافى وصفهم بالغفران فإن كلا منهما فضيلة محمودة فى موقع نفسه ورذيلة مذمومة فى موقع صاحبه فإن الحلم عن العاجز وعوراء الكرام محمود وعن المتغلب ولغواء اللئام مذموم فإنه إغراء على البغى وعليه قول من قال [إذا أنت أكرمت الكريم ملكته * وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا] [فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا * مضر كوضع السيف فى موضع

٤٠ الندى] وقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) بيان لوجه كون الانتصار من الخصال الحميدة مع كونه فى نفسه إساءة إلى الغير بالإشارة إلى أن البادىء هو الذى فعله لنفسه فإن الأفعال مستتبعة لأجزيتها حتما إن خيراً فخيراً وإن شراً فشر وفيه تنبيه على حرمة التعدى وإطلاق السيئة على الثانية

وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ٤٢ الشورى

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ٤٢ الشورى

وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ٤٢ الشورى

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ٤٢ الشورى

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ٤٢ الشورى

لأنها تسوء من نزلت به (فمن عفا) عن المسيء إليه (وأصلح) بينه وبين من يعاديه بالعفو والإغضاء * كما فى قوله تعالى فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم (فأجره على الله) عدة مبهمة منبئة عن * عظم شأن الموعود وخروجه عن الحد المعهود (إنه لا يحب الظالمين) البادئين بالسيئة والمعتدين فى * الانتقام (ولمن انتصر بعد ظلمه) أى بعد ماظلم وقد قرىء به (فأولئك) إشارة إلى من باعتبار المعنى ٤١ كما أن الضميرين لها باعتبار اللفظ (ماعليهم من سبيل) بالمعاتبة أو المعاقبة (إنما السبيل على الذين ٤٢ يظلمون الناس) يبتدئونهم بالإضرار أو يعتدون فى الانتقام (ويبغون فى الأرض بغير الحق) أى * يتكبرون فيها تجبراً وفساداً (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الظلم والبغى بغير الحق (لهم عذاب * أليم) بسبب ظلمهم وبغيهم (ولمن صبر) على الأذى (وغفر) لمن ظلمه ولم ينتصر وفوض أمره إلى ٤٣ الله تعالى (إن فى ذلك) الذى ذكر من الصبر والمغفرة (لمن عزم الأمور) أى إن ذلك منه فحذف * ثقة بغاية ظهوره كما فى قولهم السمن منوان بدرهم وهذا فى المواد التى لا يؤدى العفو إلى الشر كما أشير إليه (ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده) من ناصر يتولاه من بعد خذلانه تعالى إياه (وترى الظالمين ٤٤ لما رأوا العذاب) أى حين يرونه وصيغة الماضى للدلالة على التحقق (يقولون هل إلى مرد) أى * إلى رجعة إلى الدنيا (من سبيل) حتى نؤمن ونعمل صالحاً (وتراهم يعرضون عليها) أى على النار ٤٥ المدلول عليها بالعذاب والخطاب فى الموضعين لكل من يتأتى منه الرؤية (خاشعين من الذل) متذللين * متضائلين مما دهاهم (ينظرون من طرف خفى) أى يبتدىء نظرهم إلى النار من تحريك لأجفانهم ضعيف * كالمصبور ينظر إلى السيف (وقال الذين آمنوا إن الخاسرين) أى المتصفين بحقيقة الخسران (الذين * خسروا أنفسهم وأهليهم) بالتعريض للعذاب الخالد (يوم القيامة) أما ظرف لخسروا فالقول فى *

وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٤٢ الشورى

ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ٤٢ الشورى

فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ٤٢ الشورى

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ٤٢ الشورى

الدنيا أو لقال فالقول يوم القيامة أى يقولون حين يرونهم على تلك الحال وصيغة الماضى للدلالة على تحققه وقوله تعالى (ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم) إما من تمام كلامهم أو تصديق من الله تعالى لهم (وما كان لهم من أولياء ينصرونهم) برفع العذاب عنهم (من دون الله) حسبما كانوا يرجون ذلك ٤٦
فى الدنيا (ومن يضلل الله فما له من سبيل) يؤدى سلوكه إلى النجاة (إستجيبوا لربكم) إذا دعاكم إلى ٤٧
الإيمان على لسان نبيه (من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله) أى لايرده الله بعد ماحكم به على أن من صلة مرد أو من قبل أن يأتى من الله يوم لايمكن رده (مالكم من ملجأ يومئذ) أى مفر تلتجئون إليه (وما لكم من نكير) أى إنكاره لما اقترفتموه لأنه مدون فى صحائف أعمالكم وتشهد عليكم
جوارحكم (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً) تلوين للكلام وصرف له عن خطاب الناس ٤٨
بعد أمرهم بالاستجابة وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه فما أرسلناك رقيباً ومحاسباً عليهم (إن عليك إلا البلاغ) وقد فعلت (وإنا إذاً أذقنا الإنسان منا رحمة) أى نعمة من الصحة والغنى والأمن (فرح بها) أريد بالإنسان الجنس لقوله تعالى
(وإن تصبهم سيئة) أى بلاء من مرض وفقر وخوف (بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور) بليغ * الكفر ينسى النعمة رأساً ويذكر البلية ويستعظمها ولا يتأمل سببها بل يزعم أنها أصابته بغير استحقاق لها وإسناد هذه الخصلة إلى الجنس مع كونها من خواص المجرمين لغلبتهم فيما بين الأفراد وتصدير الشرطية الأولى بإذا مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة للتنبيه على أن إيصال النعمة محقق الوجود كثير الوقوع وأنه مقتضى الذات كما أن تصدير الثانية بأن وإسناد الإصابة إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم للإيذان بندرة وقوعها وأنها بمعزل عن الانتظام فى سلك الإرادة بالذات ووضع الظاهر
موضع الضمير للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم (لله ملك السموات والأرض) ٤٩
فمن قضيته أن يملك التصرف فيهما وفى كل مافيهما كيفما يشاء ومن جملته أن يقسم النعمة والبلية حسبما يريده (يخلق مايشاء) مما تعلمه ومما لاتعلمه (يهب لمن يشاء إناثاً) من الأولاد (ويهب لمن يشاء الذكور)

أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ٤٢ الشورى

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ٤٢ الشورى

٥٠ منهم من غير أن يكون فى ذلك مدخل لأحد (أو يزوجهم) أى يقرن بين الصنفين فيهبهما جميعاً (ذكراناً وإناثاً) قالوا معنى يزوجهم أن تلد غلاماً ثم جارية أو جارية ثم غلاماً أو تلد ذكراً وأنثى توأمين (ويجعل من يشاء عقيما) والمعنى يجعل أحوال العباد فى حق الأولاد مختلفة على ماتقتضيه المشيئة فيهن فيهب لبعض إما صنفاً واحداً من ذكر أو أنثى وإما صنفين ويعقم آخرين ولعل تقديم الإناث لأنها أكثر لتكثير النسل أو لأن مساق الآية للدلالة على أن الواقع ماتتعلق به مشيئته تعالى لا ما تتعلق به مشيئة الإنسان والإناث كذلك أو لأن الكلام فى البلاء والعرب تعدهن أعظم البلايا أو لتطييب قلوب آبائهن أو للمحافظة على الفواصل ولذلك عرف الذكور أو لجبر التأخير وتغيير العاطف فى الثالث لأنه قسيم المشترك بين القسمين ولا حاجة إليه فى الرابع لإفصاحه بأنه قسيم المشترك بين الأقسام المتقدمة وقيل المراد بيان أحوال الأنبياء عليهم السلام حيث وهب لشعيب ولوط إناثاً ولإبراهيم ذكوراً وللنبي صلى الله عليه وسلم ذكوراً وإناثاً وجعل يحيى وعيسى عقيمين (إنه عليم قدير) مبالغ فى العلم والقدرة فيفعل مافيه حكمة ومصلحة (وما كان لبشر) أى وما صح لفرد من

٥١ أفراد البشر (أن يكلمه الله) بوجه من الوجوه (إلا وحياً) أى إلا بأن يوحى إليه ويلهمه ويقذف فى قلبه كما أوحى إلى أم موسى وإلى ابراهيم عليهما السلام فى ذبح ولده وقد روى عن مجاهد أوحى الله الزبور إلى دواود عليه السلام فى صدره أو بأن يسمعه كلامه الذى يخلقه فى بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه وهو المراد بقوله تعالى (أو من وراء حجاب) فإنه تمثيل له بحال الملك المحتجب الذى يكلم بعض خواصه من وراء الحجاب يسمع صوته ولا يرى شخصه وذلك كما كلم موسى وكما يكلم الملائكة عليهم السلام أو بأن يكلمه بواسطة الملك وذلك قوله تعالى (أو يرسل رسولا) أى ملكا (فيوحى) ذلك الرسول إلى المرسل إليه الذى هو الرسول البشرى (بإذنه) أى بأمره تعالى وتيسيره (مايشاء) أن يوحيه إليه وهذا هو الذى يجرى بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى عامة الأوقات من الكلام وقيل قوله تعالى وحياً وقوله تعالى أو يرسل مصدران واقعان موقع الحال وقوله تعالى أو من وراء حجاب ظرف واقع موقعها والتقدير وما صح أن يكلم الا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب أو مرسلا وقرىء أو يرسل بالرفع على إضمار مبتدأ وروى أن اليهود قالت للنبي صلى الله عليه وسلم ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه فإنا لن نؤمن حتى تفعل ذلك فقال عليه السلام لم ينظر موسى عليه السلام إلى الله تعالى فنزلت وعن عائشة رضي الله عنها من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ثم قالت رضى الله عنها

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ٤٢ الشورى

صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ٤٢ الشورى

* أو لم تسمعوا ربكم يقول فتلت هذه الآية (إنه على) متعال عن صفات المخلوقين لا يتأتى جريان
* المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلا بأحد الوجوه المذكورة (حكيم) يجرى أفعاله على سنن الحكمة
٥٢ فيكلم تارة بواسطة وأخرى بدونها إما الهاماً وإما خطاباً (وكذلك) أى ومثل ذلك الإيحاء البديع
* (أوحينا إليك روحا من أمرنا) هو القرآن الذى هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يحييها حياة
* أبدية وقيل جبريل عليه السلام ومعنى إيحائه إليه عليهما السلام إرساله إليه بالوحى (ما كنت تدرى)
* قبل الوحى (ماالكتاب) أى أى شىء هو (ولا الإيمان) أى الإيمان بتفاصيل ما فى تضاعيف
الكتاب من الأمور التى لا تهتدى إليها العقول لا الإيمان بما يستقل به العقل والنظر فإن درايته عليه
* الصلاة والسلام له بما لا ريب فيه قطعاً (ولكن جعلناه) أى الروح الذى أوحيناه إليك (نوراً
* نهدى به من نشاء) هدايته (من عبادنا) وهو الذى يصرف اختياره نحو الاهتداء به وقوله تعالى
* (وإنك لتهدى) تقرير لهدايته تعالى وبيان لكيفيتها ومفعول لتهدى محذوف ثقة بغاية الظهور أى
* وإنك لتهدى بذلك النور من نشاء هدايته (إلى صراط مستقيم) هو الإسلام وسائر الشرائع والأحكام
٥٣ وقرىء لتهدى أى ليهديك الله وقرىء لتدعو (صراط الله) بدل من الأول وإضافته إلى الاسم الجليل
* ثم وصفه بقوله تعالى (الذى له مافى السموات والأرض) لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيد
وجوب سلوكه فإن كون جميع مافيهما من الموجودات له تعالى خلقاً وملكا وتصرفا مما يوجب ذلك
* أتم إيجاب (ألا إلى الله تصير الأمور) أى أمور مافيهما قاطبة لا إلى غيره ففيه من الوعد للمهتدين
إلى الصراط المستقيم والوعيد للضالين عنه مالا يخفى. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ
سورة حم عسق كان ممن تصلى عليه الملائكة ويستغفرون ويسترحمون له.

وتسمى سورة (حم عسق. وعسق) نزلت على ما روى عن ابن عباس . وابن الزبير بمكة وأطلق غير واحد القول بمكيتها من غير استثناء ، وفى البحر هى مكية إلا أربع آيات من قوله تعالى :(قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) إلى آخر أربع آيات ، وقال مقاتل: فيها مدنى قوله تعالى : (ذلك الذى يبشر الله عباده - إلى - الصدور) واستثنى بعضهم قوله تعالى : (أم يقولون افترى) الخ، قال الجلال السيوطى: ويدل له ما أخرجه الطبرانى . والحاكم فى سبب نزولها فانها نزلت فى الأنصار ، وقوله سبحانه : (ولو بسط الله الرزق) الخ فانها نزلت فى أصحاب الصفة رضى الله تعالى عنهم ، واستثنى أيضا (الذين إذا أصابهم البغى) إلى قوله تعالى : (من سبيل) حكاه ابن الفرس ، وسيأتى إن شاء الله تعالى ما يدل على استثناء غير ذلك على بعض الروايات ، وجوز أن يكون الاطلاق باعتبار الأغلب وعدد آياتها ثلاث وخمسون فى الكوفى وخمسون فيما عداه والخلاف فى (حم عسق) وقوله تعالى: (كالأعلام) كما فصله الدانى. وغيره، ومناسبة أولها لآخر السورة قبلها اشتمال كل على ذكر القرآن وذب طعن الكفرة فيه وتسلية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم *

﴿ بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحيم حَم ١ عسق ٢ ﴾ لعلهما اسمان للسورة وأيد بعدهما آيتين والفصل بينهما فى الخط وبورود تسميتها (عسق) من غير ذكر (حم) ، وقيل: هما اسم واحد وآية واحدة وحقه أن يرسم متصلا كما فى (كهيعص) لكنه فصل ليكون مفتتح السورة على طرز مفتتح اخواتها حيث رسم فى كل مستقلا وعلى الأول هما خبران لمبتدا محذوف ،وقيل: (حم) مبتدأ و(عسق) خبره وعلى الثانى الكل خبر واحد ، وقيل: إن (حم عسق) إشارة إلى هلاك مدينتين تبنيان على نهر من أنهار المشرق يشق النهر بينهما يجتمع فيهما كل جبار عنيد يبعث الله تعالى على إحداهما ناراً ليلا فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت كأنها لم تكن مكانها ويخسف بالأخرى فى الليلة الأخرى ، وروى ذلك عن حذيفة ، وقيل: إن «حم» اسم من أسماء الله تعالى و«عين» إشارة إلى عذاب يوم بدر و(سين) إشارة إلى قوله تعالى : (سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) و«قاف» إلى قارعة من السماء تصيب الناس ، وروى ذلك بسند ضعيف عن أبى ذر، والذى يغلب على الظن عدم ثبوت شئ من الروايتين *

وفى البحر ذكر المفسرون فى (حم عسق) أقوالا مضطربة لا يصح منها شئ ضربنا عن ذكرها صفحا، وما ذكرناه أولا قد اختاره غير واحد، ومنهم من اختار أنها مقطعات جئ بها للايقاظ ، وقرأ ابن عباس . وابن مسعود (حم سق) بلا عين *

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُوحى الَيْكَ وَالَى الَّذينَ منْ قَبْلكَ اللهُ الْعَزِيزُ الحَكيمُ ٣ ﴾ كلام مستأنف وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما فى تضاعيف الكتب المنزلة على سائر الرسل المتقدمين فى الدعوة إلى

التوحيد والارشاد الى الحق أو أن ايحاءها بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيه على فخامة شأنها، والكاف مفعول «يوحى» على الأول أى يوحى مثل مافى هذه السورة من المعانى أو نعت لمصدر مؤكد على الثانى أى يوحى ايحاء مثل ايحائها اليك والى الرسل أى بواسطة الملك، وهى فى الوجهين اسم كما هو مذهب الأخفش وإن شئت فاعتبرها حرفا واعتبر الجار والمجرور مفعولا أو متعلقا بمحذوف وقع نعتا، وقول العلامة الثانى فى التلويح: ان جار الله لايجوز الابتداء بالفعل ويقدر المبتدأ فى جميع مايقع فيه الفعل ابتداء كلام غير مسلم وقد ترددوا فيه حتى قيل: انه لم يظهر له وجه *

وجوز أبو البقاء كون «كذلك» مبتدأ و«يوحى» الخبر والعائد محذوف أى مثل ذلك يوحيه اليك الخ وحذف مثله شائع فى الفصيح، نعم هذا الوجه خلاف الظاهر، والاشارة كما أشرنا اليه الى مافى السورة أو الى إيحائها، والدلالة على البعد لبعد منزلة المشار اليه فى الفضل، وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية للدلالة على استمراره فى الأزمنة الماضية وان ايحاء مثله عادته عز وجل، وقيل: انها على التغليب فان الوحى إلى من مضى مضى واليه عليه الصلاة والسلام بعضه ماض وبعضه مستقبل، وجوز أن تكون على ظاهرها ويضمر عامل يتعلق به «الى الذين» أى وأوحى الى الذين وهو كما ترى، وفى جعل مضمون السورة أو ايحائها مشبها به من تفخيمها ما لا يخفى *

وقرأ مجاهد. وابن كثير. وعياش. ومحبوب كلاهما عن أبى عمرو «يوحى» مبنيا للمفعول على ان «كذلك» مبتدأ و«يوحى» خبره المسند الى ضميره أو مصدر و«يوحى» مسند الى «اليك» و(الله) مرتفع عند السكاكى على الفاعلية ليوحى الواقع فى جواب من يوحى؟ نحو ماقرروه فى قوله تعالى: «يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال» على قراءة «يسبح» بالبناء للمفعول، وقوله: *

ليبك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

وقال الزمخشرى: رافعه مادل عليه (يوحى) كأن قائلا قال: من الموحى؟ فقيل: الله وإنما قدر كذلك على ماقاله صاحب الكشف ليدل على أن الايحاء مسلم معلوم وإنما الغرض من الاخبار اثبات اتصافه بأنه تعالى من شأنه الوحى لا اثبات أنه موح، ولم يرتض القول بعدم الفرق بين هذا وقوله تعالى: «يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال» بل أوجب الفرق لأن الفعل المضارع هنالك على ظاهره لم يؤت به للدلاله على الاستمرار ولهم فيه مقال،

و«العزيز الحكيم» صفتان له تعالى عند الشيخين، وجوز أبو حيان كون الاسم الجليل مبتدأ وما بعده خبر له وقيل: «الله العزيز الحكيم» الى آخر السورة قائم مقام فاعل «يوحى» أى هذه الكلمات *

وقرأ أبو حيوة. والاعشى عن أبى بكر. وأبان (نوحى) بنون العظمة فالله مبتدأ وما بعده خبر أو (العزيز الحكيم) صفتان، وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ٤﴾ خبر له، وعلى الاوجه السابقة استئناف مقرر لعزته تعالى وحكمته عز وجل ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾ وقرىء (يكاد) بالياء ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشققن من عظمة الله تعالى وجلاله جل شأنه وروى ذلك عن قتادة. وأخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن ابن عباس انه قال: تكاد السموات يتفطرن من الثقل، وقيل: من دعاء الشريك والولد له سبحانه كما فى سورة مريم، وأيد هذا بقوله تعالى بعد: «والذين اتخذوا من دونه أولياء» فايراد الغفور الرحيم بعد لأنهم استوجبوا بهذه المقالة

صب العذاب عليهم لكنه صرف عنهم لسبق رحمته عز وجل، والآية عليه واردة للتنزيه بعد اثبات المالكية والعظمة، والأول أولى فى هذا المقام لأن الكلام مسوق لبيان عظمته تعالى وعلوه جل جلاله ويؤيده ترك العاطف، ويليه ما روى عن الحبر فان الآية وان تضمنت عليه الغرض المسوق له الكلام لكن دلالتها عليه بناء على القول الأول أظهر *

وقرأ البصريان. وأبو بكر (ينفطرن) بالنون، والأول ابلغ لأن المطاوع والمطاوع من التفعيل والتفعل الموضوع للمبالغة بخلاف الثانى فانه انفعال مطاوع للثلاثى، وروى يونس عن أبى عمرو انه قرأ (تتفطرن) بتاءين ونون فى آخره على مافى الكشاف، و(تنفطرن) بتاء واحدة ونون على مافى البحر عن ابن خالويه وهو على الروايتين شاذ عن القياس والاستعمال لأن العرب لا تجمع بين علامتى التأنيث فلا تقول النساء تقمن ولا الوالدات ترضعن، والوجه فيه تأكيد التأنيث كتأكيد الخطاب فى أرأيتك، ومثله ما رواه أبو عمر الزاهد فى نوادر ابن الاعرابى الابل تتشممن * ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أى يبتدأ التفطر من جهتهن الفوقانية، وتخصيصها على الأول فى سبب التفطر لما أن أعظم الآيات وأدلها على العظمة والجلال كالعرش والكرسى والملائكة من تلك الجهة ولذا كانت قبلة الدعاء، وعلى الثالث للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الأولى لأن تلك الكلمة الشنعاء الواقعة فى الأرض حين أثرت من جهة الفوق فلأن تؤثر من جهة التحت أولى، وكذا على الثانى لأن العادة تفطر سطح البيت مثلا من جهة التحتانية بحصول ثقل عليه، وقيل: الضمير للارض أى لجنسها فيشمل السبع ولذا جمع الضمير وهو خلاف الظاهر، وقال على بن سليمان الاخفش: الضمير للكفار والمراد من فوق الفرق والجماعات الملحدة، وبهذا الاعتبار أنث الضمير، وفى ذلك اشارة الى أن التفطر من أجل أقوال هاتيك الجماعات، وفيه ما فيه *

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ينزهونه سبحانه عما لا يليق به جل جلاله ملتبسين بحمده عز وجل، وقيل: يصلون والظاهر العموم فى الملائكة، وقال مقاتل: المراد بهم حملة العرش ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بالسعى فيما يستدعى مغفرتهم من الشفاعة والالهام وترتيب الامور المقربة الى الطاعة كالمعاونة فى بعض أمور المعاش ودفع العوائق واستدعاء تأخير العقوبة طمعا فى إيمان الكافر وتوبة الفاسق وهذا يعم المؤمن والكافر بل لو فسر الاستغفار بالسعى فيما يدفع الخلل المتوقع عم الحيوان بل الجماد، وهو فيما ذكر مجاز مرسل أو استعارة *

وقال السدى. وقتادة: المراد بمن فى الأرض المؤمنون لقوله تعالى فى آية أخرى: (ويستغفرون للذين آمنوا) والمراد بالاستغفار عليه حقيقته، وقيل: الشفاعة *

﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥﴾ إذ مامن مخلوق الا وله حظ عظيم من رحمته تعالى وانه سبحانه لذو مغفرة للناس على ظلمهم، وفيه اشارة الى قبول استغفار الملائكة عليهم السلام وأنه سبحانه يزيدهم على ماطلبوه من المغفرة رحمة، والآية على كون قوله تعالى: (تكاد السموات يتفطرن) لبيان عظمته جل شأنه مقررة لما دل عليه ذلك ومؤكدة له لأن تسبيح الملائكة وتنزيههم له تعالى لمزيد عظمته تبارك وتعالى وعظيم جلاله جل وعلا والاستغفار لغيرهم للخوف عليهم من سطوة جبروته عز وجل والتذييل بقوله تعالى: (ألا إن الله) الخ

على هذا ظاهر، وعلى كون تفطر السموات لنسبة الولد والشريك بيان لكمال قدسه تعالى عما نسب اليه عز وجل فيكون تسبيحهم عما يقوله الكفرة واستغفارهم للمؤمنين الذين تبرأوا عما صدر من هؤلاء. والتذييل للاشارة الى سبب ترك معاجلة العذاب مع استحقاقهم له وعمم بعض المستغفر لهم وأدخل استغفار الملائكة في سبب ترك المعاجلة ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ شركاء وأنداداً ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ رقيب على أحوالهم واعمالهم فيجازيهم بها ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ٦ ﴾ أى بموكل بهم أو بموكول اليك أمرهم وانما وظيفتك البلاغ والانذار فوكيل فعيل بمعنى مفعول من المزيد أو الثلاثي، وما في هذه الآية من الموادعة على ما في البحر منسوخ بآية السيف ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ذلك أشارة الى مصدر (أوحينا) ومحل الكاف على ماذهب اليه الاخفش من ورودها اسما النصب على المصدرية (وقرآنا) مفعول لأوحينا أى ومثل ذلك الايحاء البديع البين المفهم أوحينا اليك قرآنا عربيا لالبس فيه عليك ولا على قومك، وقيل: اشارة الى ماتقدم من (الله حفيظ عليهم وما انت عليهم بوكيل) فالكاف مفعول لأوحينا (وقرآنا عربيا) حال من المفعول به أى أوحيناه اليك وهو قرآن عربي، وجوز نصبه على المدح أو البدلية من كذلك، وقيل: أولى من هذا أن يكون اشارة الى معنى الآية المتقدمة من أنه تعالى هو الحفيظ عليهم وأنه عليه الصلاة والسلام نذير فحسب لأنه أتم فائدة وأشمل عائدة ولابد عليه من التجوز في قرآنا عربيا اذ لا يصح أن يقال أوحينا ذلك المعنى وهو قرآن عربي لأن القرآنية والعربية صفة اللفظ لا المعنى لكن أمره سهل لقربه من الحقيقة لما بين اللفظ والمعنى من الملابسة القوية حتى يوصف احدهما بما يوصف به الآخر مع مافي المجاز من البلاغة ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ أى أهل أم القرى على التجوز في النسبة أو بتقدير المضاف والمراد بأم القرى مكة، وسميت بذلك على ماقال الراغب لماروى أنه دحيت الدنيا من تحتها فهى كالاصل لها والام تقال لكل ما كان أصلا لشيء، وقد يقال: هي ام لما حولها من القرى لأنها حدثت قبلها لا كل قرى الدنيا، وقد يقال لبلد: هي أم البلاد باعتبار احتياج أهالى البلاد اليها ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من العرب على ماذهب اليه كثير وخص المذكورون بالذكر لأن السورة مكية وهم أقرب اليه عليه الصلاة والسلام وأول من أنذر أو لدفع مايتوهم من أن أهل مكة ومن حولها لهم طمع في شفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم وإن لم يؤمنوا لحق القرابة والمساكنة والجوار فخصهم بالانذار لازالة ذلك الطمع الفارغ، وقيل: (من حولها) جميع أهل الارض واختاره البغوى وكذا القشيرى وقال: لأن الكعبة سرة الأرض والدنيا محدقة بماهي فيه أعنى مكة. وهذا عندى لايكاد يصح مع قولهم: إن عرضها كام وطولها عز وان المعمور في جانب الشمال اكثر منه في جانب الجنوب ﴿ وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ أى يوم القيامة لأنه يجمع فيه الخلائق قال الله تعالى: (يوم يجمعكم ليوم الجمع) وقيل: تجمع فيه الارواح والاشباح، وقيل: الأعمال والعمال، والانذار يتعدى الى مفعولين وقد يستعمل ثانيهما بالباء وقد حذف ههنا ثانى مفعولى الاول وهو (يوم الجمع) والمراد به عذابه وأول مفعولى الثانى وهو (ام القرى ومن حولها) فقد حذف من الأول ما أثبت في الثانى ومن الثانى ماأثبت في الاول وذلك من الاحتباك. وقال جار الله: الاول عام في الانذار بأمور الدنيا والآخرة ثم خص بقوله تعالى: (وتنذر يوم الجمع) يوم القيامة زيادة في الانذار وبيانا لعظمة أهواله لأن الافراد بالذكر يدل عليه وكذلك ايقاع الانذار عليه ثانيا

والظاهر عليه أن حذف المفعول الثانى من الأول لافادة العموم وإن كان حذف الأول من الثانى لذلك أيضا وتنذر كل أحد يوم الجمع ، وقيل : يوم الجمع ظرف فيكون المفعولان محذوفين وقرئ (لينذر) بياء الغيبة على على أن الفاعل ضمير القرآن لعدم حسن الالتفات ههنا ﴿ لَا رَيْبَ فيه ﴾ اعتراض فى آخر الكلام مقرر لما قبله ويحتمل الحالية من (يوم الجمع) أو الاستئناف ﴿ فَرِيقٌ فى الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فى السَّعِير ٧ ﴾ أى بعد جمعهم فى الموقف فانهم يجمعون فيه أولا ثم يفرقون بعد الحساب، (وفريق) مبتدأ (وفى الجنة) صفته والخبر محذوف وكذا (فريق فى السعير) أى منهم فريق كائن فى الجنة ومنهم فريق كائن فى النار ، وضمير منهم للمجموعين لدلالة الجمع عليه ، وجملة المبتدأ والخبر استئناف فى جواب سؤال تقديره ثم كيف يكون حالهم ؟ أو حال ولا ركاكة فيه ، واشتراط الواو فيه غير مسلم ، وجوز كون (فريق) فاعلا للظرف المقدر ، وفيه ضعف ، وكونه مبتدأ والظرف المقدر فى موضع الصفة له وفى الجنة خبره أى (فريق) كائن منهم مستقر فى الجنة ، وكونه مبتدأ خبره مابعده من غير أن يكون هناك ظرف مقدر واقع صفة ، وساغ الابتداء بالنكرة لأنها فى سياق التفصيل والتقسيم كما فى قوله : ﴿ فثوب لبست وثوب أجر ﴾ ، وكونه خبر مبتدأ محذوف أى المجموعون فريق الخ ﴿

وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما (فريقا وفريقا) بنصبهما فقيل : هو على الحال من مقدر أى افترقوا أى المجموعون فريقا وفريقا أو من ضمير جمعهم المقدر لأن أل قامت مقامه أى وتنذر يوم جمعهم متفرقين وهو من مجاز المشارفة أى مشارفين للتفرق أو الحال مقدرة فلا يلزم كون افتراقهم فى حال اجتماعهم أو يقال إن اجتماعهم فى زمان واحد لا ينافى افتراق أمكنتهم كما تقول : صلوا فى وقت واحد فى مساجد متفرقة فالمراد متفرقين فى دارى الثواب والعقاب ، وإذا اريد بالجمع جمع الأرواح بالاشباح أو الأعمال بالعمال لايحتاج الى توفيق أصلا ، وجوز كون النصب بتنذر المقدر أو المذكور والمعنى تنذر فريقا من أهل الجنة وفريقا من أهل السعير لأن الانذار ليس فى الجنة والسعير ولا يخفى تكلفه ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللّهُ ﴾ جعلهم أمة واحدة ﴿ لَجَعَلَهُمْ ﴾ أى فى الدنيا ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ مهتدين أو ضالين وهو تفصيل لما أجمله ابن عباس فى قوله : على دين واحد ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ أنه تعالى يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها ويدخل من يشاء فى عذابه أن يدخله فيه ولا ريب فى أن مشيئته تعالى لكل من الادخالين تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول ما أدخله ومن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب اختلاف حال الداخلين فيهما قطعا فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة بل جعلهم فريقين وانما قيل ﴿ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٨ ﴾ وكان الظاهر أن يقال ويدخل من يشاء فى عذابه ونقمته للايذان بأن الادخال فى العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم لامن جهته عز وجل كما فى الادخال فى الرحمة ، واختار الزمخشرى كون المراد أمة واحدة مؤمنين وهو ماقاله مقاتل على دين الاسلام كما فى قوله تعالى : (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) وقوله سبحانه : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) والمعنى ولو شاء الله تعالى مشيئة قدرة لقسرهم على الايمان ولكنه سبحانه شاء مشيئة حكمة وكلفهم وبنى أمرهم على مايختارون ليدخل المؤمنين فى رحمته وهم المرادون بقوله تعالى (من يشاء) وترك الظالمين بغير ولى ولا نصير ، والكلام متعلق بقوله تعالى : (والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما

أنت عليهم بوكيل) كالتعليل للنهى عن شدة حرصه صلى الله تعالى عليه وسلم على ايمانهم، فالظالمون مظهر أقيم مقام ضمير المتخذين ليفيد أن ظلمهم علة لما بعده أو هو للجنس و يتناولهم تناولا أوليا، وعدل عن الظاهر الى ما فى النظم الجليل اذ الكلام فى الانذار وهو أبلغ فى تخويفهم لاشعاره بأن كونهم فى العذاب أمر مفروغ منه وانما الكلام فى أنه بعد تحتمه هل لهم من يخلصهم بالدفع او الرفع فاذا نفى ذلك علم أنهم فى عذاب لاخلاص منه*

وتعقب بأن فرض جعل الكل مؤمنين يأباه تصدير الاستدراك بادخال بعضهم فى رحمته تعالى إذ الكل حينئذ داخلون فيها فكان المناسب حينئذ تصديره باخراج بعضهم من بينهم وادخالهم فى عذابه، وربما يقال: حيث أن الآية متعلقة بما سمعت كان المراد ولو شاء الله تعالى لجعل الجميع مؤمنين كما تريد وتحرص عليه ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك بل جعل بعضهم مؤمنا كما أردت وجعل بعضهم الآخر وهم أولئك المتخذون من دونه أولياء كفارا لاخلاص لهم من العذاب حسبما تقتضيه الحكمة وكان التصدير بما صدر به مناسبا كما لا يخفى على من له ذوق بأساليب الكلام الا أن الظاهر على هذا أدخل من شاء دون «يدخل من يشاء» لكن عدل عنه اليه حكاية للحال الماضية، وقال شيخ الاسلام: الذى يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه أن يراد الاتحاد فى الكفر كما فى قوله تعالى: «كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين» الاية على أحد الوجهين، فالمعنى ولو شاء الله تعالى لجعلهم أمة واحدة متفقة على الكفر بأن لا يرسل اليهم رسولا لينذرهم ماذكر من يوم الجمع وما فيه من ألوان الاهوال فيبقوا على ماهم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء فى رحمته سبحانه أى شأنه عز شأنه ذلك فيرسل الى الكل من ينذرهم ما ذكر فيتأثر بعضهم بالانذار فيصرفون اختيارهم الى الحق فيوفقهم الله تعالى للايمان والطاعات ويدخلهم فى رحمته عز وجل ولا يتأثر به الاخرون ويتمادون فى غيهم وهم الظالمون فيبقون فى الدنيا على ماهم عليه من الكفر ويصيرون فى الآخرة الى السعير من غير ولى يلى أمرهم ولا نصير يخلصهم من العذاب انتهى*

ولا يخفى أن بين قوله تعالى: (كان الناس أمة واحدة) الاية، وقوله سبحانه: (ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة) بالمعنى الذى اختاره هنا فيهما نوع تناف فتدبر جميع ذلك والله تعالى الموفق ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين ولى أو نصير وكلام الكشاف يومى الى أنه متصل بقوله تعالى «والذين اتخذوا» الخ على معنى دع الاهتمام بشأنهم واقطع الطمع فى ايمانهم وكيت وكيت أليسوا الذين اتخذوا من دون الله تعالى أولياء وهو سبحانه الولى الحقيقى القادر على كل شىء وعدلوا عنه عز وجل الا مالا نسبة بينه تعالى وبينه أصلا وإن قوله سبحانه «وكذلك أوحينا» الآية اعتراض مؤكد لمضمون الآيتين، و«أم» على القولين منقطعة وهى تقدر فى الاغلب ببل والهمزة، وقدرها جماعة هنا بهما الا أن بل على القول الثانى للاضراب وعلى القول الأول للانتقال من بيان ما قبلها الى بيان ما بعدها، والهمزة قيل: لانكار الواقع واستقباحه، وقيل: لا بل لانكار الوقوع ونفيه على أبلغ وجه وآكده اذ المراد بيان أن ما فعلوا ليس من اتخاذ الاولياء فى شىء لأن ذلك فرع كون الاصنام أولياء وهو أظهر الممتنعات أى بل اتخذوا متجاوزين الله تعالى أولياء من الاصنام وغيرها ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ قيل: هو جواب شرط مقدر أى إن ارادوا وليا بحق فالله تعالى هو الولى بحق لا ولى بحق سواه عز وجل، وكونه جواب الشرط على معنى الاخبار ونحوه*

وقال فى البحر: لاحاجة إلى اعتبار شرط محذوف والكلام يتم بدونه، ولعله يريد ماقيل: إنه عطف على

ماقبله أو أنه تعليل للانكار المأخوذ من الاستفهام كقولك أتضرب زيدا فهو أخوك أي لا ينبغي لك ضربه فإنه أخوك *

وتعقب بأن المعروف في مثله استعماله بالواو وإنما يحسن التعليل في صريح الانكار، ولا يناسب معنى المضى أيضا ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أي شأنه ذلك نحو فلان يقري الضيف ويحمي الحريم ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٩ ﴾ فهو سبحانه الحقيق بأن يتخذ وليا فليخصوه بالاتخاذ دون من لا يقدر على شيء ما أصلا :

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ إلى آخره حكاية لقول رسول الله ﷺ للمؤمنين أي ما خالفكم الكفار فيه من أمور الدين كاتخاذ الله تعالى وحده وليا فاختلفتم أنتم وهم ﴿ فَحُكْمُهُ ﴾ راجع ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ وهو اثابة المحقين وعقاب المبطلين، ويجوز أن يكون كلاما من جهته تعالى متضمنا التسلية ويكون قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ الخ بتقدير قل، والامام اعتبره من أول الكلام، وأياما كان فالاشارة اليه تعالى من حيث اتصافه بما تقدم من الصفات على ما قاله الطيبي من كونه تعالى هو يحيي الموتى وكونه سبحانه على كل شيء قدير وكونه عز وجل ما اختلفوا فيه فحكمه اليه، وقال في الارشاد: أي ذلكم الحاكم العظيم الشأن ﴿ اللَّهُ رَبِّي ﴾ مالكي ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في مجامع أموري خاصة لا على غيره ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ١٠ ﴾ أرجع في كل ما يعن لي من معضلات الامور لا الى أحد سواه وحيث كان التوكل أمرا واحدا مستمرا والانابة متعددة متجددة حسب تجدد موادها أوثر في الأول صيغة الماضي وفي الثاني صيغة المضارع ، وقيل : وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره كقوله تعالى:(فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) *

وقيل: وما اختلفتم فيه من شيء من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله تعالى والظاهر من سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل : وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتعلق بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا الله تعالى أعلم كمعرفة الروح. وأورد على الكل أنه مخالف للسياق لأن الكلام مسوق للمشركين وهو على ذلك مخصوص بالمؤمنين ، وظاهر كلام الامام اختيار الاختصاص فانه قال في وجه النظم الكريم: إنه تعالى كما منع رسوله ﷺ أن يحمل الكفار على الايمان كذلك منع المؤمنين أن يشرعوا معه في الخصومات والمنازعات ، وذكر أنه احتج نفاة القياس به فقالوا . إما أن يكون المراد منه وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه مستفاد من نص الله تعالى أو من القياس على ما نص سبحانه عليه والثاني باطل لأنه يقتضي أن تكون كل الاحكام مبنية على القياس فتعين الأول، ولقائل أن يقول: لم لا يجوز أن يكون المراد فحكمه معروف من بيان الله تعالى سواء كان ذلك البيان بالنص أو بالقياس ، وأجيب عنه بأن المقصود من التحاكم إلى الله تعالى قطع الاختلاف لقوله تعالى:(وما اختلفتم) والرجوع إلى القياس مما يقوي الاختلاف فوجب الرجوع إلى النصوص اه

وانت تعلم أن النصوص غير كافية في جميع الاحكام وأن الآية على ما سمعت أولا مما لا يكاد يصح الاستدلال بها على هذا المطلب من أول الامر. وفي الكشاف لا يجوز حمل الاختلاف فيها على اختلاف المجتهدين في احكام الشريعة لأن الاجتهاد لا يجوز بحضرة الرسول ﷺ ولا يخفى عليك أن هذه المسئلة مختلف فيها فقال الاكثرون بجواز الاجتهاد المذكور عقلا ومنهم من أحاله، ثم المجوزون منهم من منع وقوع التعبد به وهو مذهب أبي علي. وابنه أبي هاشم، واليه ذهب صاحب الكشاف وذكر ما يخالفه نقل لمذهب الغير وان لم يعقبه برد كما هو عادته

فى الاكثر ومنهم من ادعى الوقوع ظنا ومنهم من جزم بالوقوع ، وقيل: إنه الاصح عند الاصوليين ومنهم من توقف، والبحث فيها مستوفى فى أصول الفقه، والذى نقوله هنا: إن الاستدلال بالآية على منعه لايكاد يتم وأقل ما يقال فيه: إنه استدلال بما فيه احتمال، وقوله تعالى ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خبر آخر لذلكم أو خبر لمبتدأ محذوف أى هو فاطر أو صفة لربى أو بدل منه أو مبتدأ خبره ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما بالجر على أنه بدل من ضمير (اليه) أو (عليه) أو وصف للاسم الجليل فى قوله تعالى: (إلى الله) وما بينهما جملة معترضة بين الصفة والموصوف وقد تقدم معنى (فاطر) وجعل أى خلق ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ من جنسكم ﴿ أَزْوَاجاً ﴾ نساء *

وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً ﴾ أى وخلق للانعام من جنسها أزواجا كما خلق لكم من أنفسكم أزواجا ففيه جملة مقدرة لدلالة القرينة أو وخلق لكم من الانعام أصنافا أو ذكورا وإناثا ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ يكثركم يقال ذرأ الله تعالى الخلق بثهم وكثرهم والذرء والذر اخوان ﴿ فيه ﴾ أى فيما ذكر من التدبير وهو أن جعل سبحانه للناس والانعام أزواجا يكون بينهم توالد وجعل التكثير فى هذا الجعل لوقوعه فى خلاله واثنائه فهو كالمنبع له، ويجوز أن تكون فى للسببية وغاب فى (يذرؤكم) المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل فهناك تغليب واحد اشتمل على جهتى تغليب وذلك لأن الانعام غائب غير عاقل فاذا ادخلت فى خطاب العقلاء كان فيه تغليب العقل والخطاب معا، وهذا التغليب ـ أعنى التغليب لأجل الخطاب والعقل ـ من الاحكام ذات العلتين وهما هنا الخطاب والعقل وهذا هو الذى عناه جار الله وهو مما لا بأس فيه لأن العلة ليست حقيقية، وزعم ابن المنير أن الصحيح انهما حكمان متباينان غير متداخلين أحدهما. مجيئه على نعت ضمير العقلاء أعم من كونه مخاطبا أو غائبا. والثانى مجيئه بعد ذلك على نعت الخطاب فالاول لتغليب العقل والثانى لتغليب الخطاب ليس بشىء ولا يحتاج اليه، وكلام صاحب المفتاح يحتمل اعتبار تغليبين. أحدهما تغليب المخاطبين على الغيب. وثانيهما تغليب العقلاء على ما لا يعقل، وقال الطيبى: إن المقام يأبى ذلك لأنه يؤدى إلى أن الاصل يذرؤكم ويذرؤها ويذرؤكن ويذرؤها لكن الاصل يذرؤكم ويذرؤها لاغير لأن ـكم ـ فى (يذرؤكم) هو كم (فى جعل لكم من أنفسكم أزواجا) بعينه لكن غلب ههنا على الغيب فليس فى يذرؤكم الاتغليب واحد انتهى، ثم أنه لا ينبغى أن يقال: إن التذرئة حكم علل فى الآية بعلتين. احداهما جعل الناس أزواجا. والثانية جعل الانعام أزواجا ويجوز أن يكون هو الذى عناه جار الله لأن الحكم هو البث المطلق وعلته المجموع وإن جعل كل جزء منه علة فكل بث حكم أيضا فأين الحكم الواحد المتعدد علته فافهم، وعن ابن عباس أن معنى (يذرؤكم) فيه يجعل لكم فيه معيشة تعيشون بها، وقريب منه قول ابن زيد يرزقكم فيه، والظاهر عليه أن الضمير لجعل الازواج من الانعام *

وقال مجاهد أى يخلقكم نسلا بعد نسل وقرنا بعد قرن، ويتبادر منه أن الضمير للجعل المفهوم من (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) ويجوز أن يكون كما فى الوجه الاول ويفهم منه أن الذرء أخص من الخلق وبه صرح ابن عطية قال: ولفظة ذرأ تزيد على لفظة خلق معنى آخر ليس فى خلق وهو توالى الطبقات على مر الزمان، وقال العتبى: ضمير (فيه) للبطن لأنه فى حكم المذكور والمراد يخلقكم فى بطون الاناث، وفى رواية عن ابن زيد أنه لما خلق من السموات والارض، وهو كما ترى ومثله ما قبله والله تعالى أعلم ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ نفى للمشابهة من كل وجه ويدخل فى

ذلك نفى أن يكون مثله سبحانه شيء يزاوجه عز وجل وهو وجه ارتباط هذه الآية بماقبلها أوالمراد ليس مثله تعالى شيء فى الشئون التى من جملتها التدبير البديع السابق فترتبط بماقبلها أيضا، والمراد من مثله ذاته تعالى فلا فرق بين ليس كذاته شيء وليس كمثله شيء فى المعنى إلا أن الثانى كناية مشتملة على مبالغة وهى أن المماثلة منفية عمن يكون مثله وعلى صفته فكيف عن نفسه وهذا لا يستلزم وجود المثل اذ الفرض كاف فى المبالغة ومثل هذا شائع فى كلام العرب نحو قول أوس بن حجر :

ليس كمثل الفتى زهير خلق يوازيه فى الفضائل

وقول الآخر : وقتلى كمثل جذوع النخيل تغشاهم مسبل منهمر

وقول الآخر: سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم ما أن كمثلهم فى الناس من أحد

وقد ذكر ابن قتيبة وغيره أن العرب تقيم المثل مقام النفس فتقول مثلك لا يبخل وهى تريد أنت لا تبخل أى على سبيل الكناية وقد سمعت فائدتها . وفى الكشف أنها الدلالة على فضل اثبات لذلك الحكم المطلوب وتمكينه وذلك لوجهين . أحدهما أنه فرض جامع يقتضى ذلك فاذا قلت مثلك لا يبخل دل على أن موجب عدم البخل موجود بخلافه إذا قلت أنت لا تبخل. والثانى أنه إذا جعل من جماعة لا يبخلون يكون أدل على عدم البخل لأنه جعل معدودا من جملتهم ، ومن ذلك قولهم قد أيفعت لداته أى أترابه وأمثاله فى السن، وقول رقيقة بنت أبى صيفى بن هاشم فى سقيا عبد المطلب: الا وفيهم الطيب الطاهر لداته تعنى رسول الله ﷺ إلى غير ذلك ، وقيل: إن مثلا بمعنى الصفة وشيئا عبارة عنها أيضا حكاه الراغب ثم قال : والمعنى ليس كصفته تعالى صفة تنبيها على أنه تعالى وإن وصف بكثير مما يوصف به البشر فليست تلك الصفات له عز وجل حسب ما يستعمل فى البشر ه وذهب الطبرى . وغيره إلى أن مثلا زائدة للتأكيد كالكاف فى قوله :

بالامس كانوا فى رخاء مأمول فاصبحت مثل كعصف مأكول

وقول الآخر: أهل عرفت الدار بالغريين وصاليات ككما يؤثفين

وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بجيد لأن مثلا اسم والاسماء لا تزاد بخلاف الكاف فانها حرف فتصلح للزيادة ، ونسب إلى الزجاج . وابن جنى . والأكثرين القول بأن الكاف زائدة للتأكيد، ورده ابن المنير بأن الكاف تفيد تأكيد التشبيه لا تأكيد النفى ونفى المماثلة المهملة أبلغ من نفى المماثلة المؤكدة فليست الآية نظير شطرى البيتين ، ويقال نحوه فيما نقل عن الطبرى ومن معه ، وأجيب بأنه يفيد تأكيد التشبيه ان سلبا فسلب وإن إثباتا فاثبات فيندفع ما أورد، نعم الأول هو الوجه ، والمثل قال الراغب : أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة وذلك ان الند يقال لما يشارك فى الجوهر فقط والشبه لما يشارك فى الكيفية فقط والمساوى لما يشارك فى الكمية فقط والشكل لما يشارك فى القدر والمساحة فقط والمثل عام فى جميع ذلك، ولهذا لما أراد الله تعالى نفى الشبه من كل وجه خصه سبحانه بالذكر ، وذكر الامام الرازى أن المثلين عند المتكلمين هما اللذان يقوم كل منهما مقام الآخر فى حقيقته وماهيته وحمل المثل فى الآية على ذلك أى لا يساوى الله تعالى فى حقيقة الذات شيء ، وقال : لا يصح أن يكون المعنى ليس كمثله تعالى فى الصفات شيء لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين كما أن الله تعالى يوصف بذلك وكذا يوصفون بكونهم معلومين مذكورين مع أن الله تعالى يوصف بذلك، وأطال الكلام فى هذا المقام وفى القلب منه شيء

وفى شرح جوهرة التوحيد اعلم أن قدماء المعتزلة كالجبائى . وابنه أبى هاشم ذهبوا إلى أن المماثلة هى المشاركة فى أخص صفات النفس فمماثلة زيد لعمرو مثلا عندهم مشاركته إياه فى الناطقية فقط ، وذهب المحققون من الماتريدية إلى أن المماثلة هى الاشتراك فى الصفات النفسية كالحيوانية والناطقية لزيد وعمرو .

ومن لازم الاشتراك فى الصفة النفسية أمران. أحدهما الاشتراك فيما يجب ويجوز ويمتنع. وثانيهما أن يسد كل منهما مسد الآخر والمتماثلان وان اشتركا فى الصفات النفسية لكن لابد من اختلافهما بجهة أخرى ليتحقق التعدد والتمايز فيصح التماثل ، ونسب إلى الأشعرى أنه يشترط فى التماثل التساوى من كل وجه .

واعترض بأنه لا تعدد حينئذ فلا تماثل، وبأن أهل اللغة مطبقون على صحة قولنا : زيد مثل عمرو فى الفقه إذا كان يساويه فيه ويسد مسده وإن اختلف فى كثير من الأوصاف ، وفى الحديث «الحنطة بالحنطة مثلا بمثل» وأريد به الاستواء فى الكيل دون الوزن وعدد الحبات وأوصافها، ويمكن أن يجاب بأن مراده التساوى فى الوجه الذى به التماثل حتى أن زيدا وعمرا لو اشتركا فى الفقه وكان بينهما مساواة فيه بحيث ينوب أحدهما مناب الآخر صح القول بأنهما مثلان فيه وإلا فلا فلا يخالف مذهب الماتريدية، وفيه أيضا أنه عز وجل ليس له سبحانه مماثل فى ذاته وصفاته فلا يسد مسد ذاته تعالى ذات ولا مسد صفته جلت صفته صفة ، والمراد بالصفة الصفة الحقيقية الوجودية ، ومن هنا تعلم ما فى قول الامام لا يصح أن يكون المعنى ليس كمثله تعالى فى الصفات شيء لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين كما أن الله سبحانه يوصف بذلك فان معنى ذلك أنه تعالى ليس مثل صفته سبحانه صفة ، ومن المعلوم البين أن علم العباد وقدرتهم ليسا مثل علم الله عز وجل وقدرته جل وعلا أى ليسا سادين مسدهما ، وأما كونه تعالى مذكورا ونحوه فهو ليس من الصفات المعتبرة القائمة بذاته تعالى كما لا يخفى ، وزعم جهم بن صفوان أن المقصود من هذه الآية بيان أنه تعالى ليس مسمى باسم الشيء لأن كل شيء فانه يكون مثلا لمثل نفسه فقوله تعالى : (ليس كمثله شيء) معناه ليس مثل مثله شيء وذلك يقتضى أن لا يكون هو سبحانه مسمى باسم الشيء فلم يجعل المثل كناية عن الذات على ما سمعت ولا حكم بزيادته ولا بزيادة الكاف ومع هذا واغماض العين عما فى كلامه لا يتم له مقصوده إذ لنا أن نجعل ليس مثل مثله شيء نفيا للمثل على سبيل الكناية أيضا لكن بوجه آخر وهو أنه نفى للشيء بنفى لازمه لأن نفى اللازم يستلزم نفى الملزوم كما يقال : ليس لأخى زيد أخ فأخو زيد ملزوم والأخ لازمه لأنه لابد لأخى زيد من أخ هو زيد فنفيت هذا اللازم والمراد نفى ملزومه أى ليس لزيد أخ إذ لو كان له أخ لكان لذلك الأخ أخ هو زيد فكذا نفيت أن يكون لمثل الله تعالى مثل ، والمراد نفى مثله سبحانه وتعالى إذ لو كان له مثل لكان هو مثل مثله إذ التقدير أنه موجود، ومغايرته لما تقدم أن مبناه إثبات اللزوم بين وجود المثل ووجود مثل المثل ليكون نفى اللازم كناية عن نفى الملزوم من غير ملاحظة والتفات إلى أن حكم الأمثال واحد وأنه يجرى فى النفى دون الاثبات فان نفى اللازم يستلزم نفى الملزوم دون العكس بخلاف ما تقدم فان مبناه ان حكم المتماثلين واحد وإلا لم يكونا متماثلين ولا يحتاج الى اثبات اللزوم بين وجود المثل ومثل المثل وانه يجرى فى النفى والاثبات كما سمعت من الأمثلة وليس ذاك من المذهب الكلامى فى شيء، أما أولا فلأنه ايراد الحجة وليس فى الآية اشعار بها فضلا عن الايراد ، وأما ثانيا فلأنه حينئذ تكون الحجة قياسا استثنائيا استثنى فيه نقيض التالى هكذا لو كان له سبحانه مثل لكان هو جل شأنه مثل مثله لكنه ليس مثلا لمثله فلا بد من بيان بطلان التالى حتى تتم الحجة

اذ ليس بينا بنفسه بل وجود المثل ووجود مثل المثل فى مرتبة واحدة فى العلم والجهل لايجوز جعل أحدهما دليلا على الآخر، لكن قيل: ان المفهوم من ليس مثل مثله شيء على ذلك التقدير نفى أن يكون مثل لمثله سواه تعالى بقرينة الاضافة كما أن المفهوم من قول المتكلم: ان دخل دارى أحد فكذا غير المتكلم، وأيضا لانسلم انه لو وجد له سبحانه مثل لكان هو جل وعلا مثل مثله لأن وجود مثله سبحانه محال والمحال جاز ان يستلزم المحال.

وأجيب عن الاول أن اسم ليس (شيء) وهو نكرة فى سياق النفى فتعم الآية نفى شيء يكون مثلا لمثله، ولاشك أنه على تقدير وجود المثل يصدق عليه أنه شيء مثل لمثله، والاضافة لا تقتضى خروجه عن عموم شيء بخلاف المثال المذكور فان القرينة العقلية دلت على تخصيص أحد بغير المتكلم لأن مقصوده المنع عن دخول الغير، وعن الثانى أن وجود المثل لشيء مطلقا يستلزم المثل مع قطع النظر عن خصوصية ذلك الشيء وذلك بين فالمنع بتجويز أن يكون لذاته تعالى مثل ولا يكون هو سبحانه مثلا لمثله مكابرة، ثم ان هذا الوجه لكثرة ما فيه من القيل والقال بالنسبة إلى غيره من الأوجه السابقة لم نذكره عند ذكرها وهو على علاته أحسن من القول بالزيادة كما لايخفى على من وفقه الله عز وجل ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ المدرك ادراكا تاما لا على طريق التخيل والتوهم لجميع المسموعات ولا على طريق تأثر حاسة ولا وصول هواء ﴿ الْبَصِيرُ ١١ ﴾ المدرك إدراكا تاما لجميع المبصرات أو الموجودات لا على سبيل التخيل والتوهم ولا على طريق تأثر حاسة ولا وصول شعاع فالسمع والبصر صفتان غير العلم على ماهو الظاهر وأرجعهما بعضهم إلى صفة العلم، وتمام الكلام على ذلك فى الكلام، وقدم سبحانه نفى المثل على اثبات السمع والبصر لأنه أهم فى نفسه وبالنظر إلى المقام.

﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدم تفسيره فى سورة الزمر وكذا قوله تعالى: ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ وقرىء (يقدر) بالتشديد ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٢ ﴾ مبالغ فى الإحاطة به فيفعل كل ما يفعل جل شأنه ما ينبغى أن يفعل عليه، والجملة تعليل لما قبلها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى:

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ وايذان بأن ماشرع سبحانه لهم صادر عن كمال العلم والحكمة كما أن بيان نسبته الى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيه على كونه دينا قديما أجمع عليه الرسل، والخطاب لأمته عليه الصلاة والسلام أى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ومن بعده من أرباب الشرائع وأولى العزم من مشاهير الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرهم به أمرا مؤكدا، وتخصيص المذكورين بالذكر لما أشير اليه من علو شأنهم وعظم شهرتهم ولاستمالة قلوب الكفرة الى الاتباع لاتفاق كل على نبوة بعضهم واختصاص اليهود بموسى عليه السلام والنصارى بعيسى عليه السلام والا فما من نبي الا وهو مأمور بما أمروا به من اقامة دين الاسلام وهو التوحيد ومالا يختلف باختلاف الامم وتبدل الاعصار من أصول الشرائع والاحكام كما ينبىء عنه التوصية فانها معربة عن تأكيد الامر والاعتناء بشأن المأمور به، والمراد بايحائه اليه صلى الله تعالى عليه وسلم إما ما ذكر فى صدر السورة الكريمة وفى قوله تعالى: (وكذلك أوحينا اليك) الآية وإما ما يعمهما وغيرهما مما وقع فى سائر المواقع التى من جملتها قوله تعالى: (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا) وقوله سبحانه: (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم إله واحد) وغير ذلك، وايثار الايحاء على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع فى الآيات المذكورة ولما فى الايحاء من

التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لانكار الكفرة، والالتفات الى نون العظمة لاظهار كمال الاعتناء بايحائه، وفي ذلك اشعار بأن شريعته صلى الله تعالى عليه وسلم هي الشريعة المعتنى بها غاية الاعتناء ولذا عبر فيها بالذي التي هي أصل الموصولات وذلك هو السر في تقديم الذي أوحي اليه عليه الصلاة والسلام على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً، وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة الى بيان كون المشروع لهم دينا قديما، وقد قيل: إنه عليه الصلاة والسلام أول الرسل، وتوجيه الخطاب اليه عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ أي دين الاسلام الذي هو توحيد الله تعالى وطاعته والايمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وسائر ما يكون العبد به مؤمنا، والمراد باقامته تعديل أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ والمواظبة عليه، و(أن) مصدرية وتقدم الكلام في وصلها بالأمر والنهي أو مخففة من الثقيلة لما في (شرع) من معنى العلم، والمصدر اما منصوب على أنه بدل من مفعول (شرع) والمعطوفين عليه أو مرفوع على أنه خبر مبتدا محذوف أو مبتدأ خبره محذوف والجملة جواب عن سؤال نشأ من ابهام المشروع كأنه قيل: وما ذاك؟ فقيل: هو أن أقيموا الدين، وقيل: هو مجرور على أنه بدل من ضمير (به) ولا يلزمه بقاء الموصول بلا عائد لأن المبدل منه ليس في نية الطرح حقيقة، نعم قال شيخ الاسلام: إنه ليس بذاك لما أنه مع إفضائه الى خروجه عن حيز الايحاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مستلزم لكون الخطاب في النهي الآتي عن التفرق للانبياء المذكورين عليهم السلام وتوجيه النهي الى أممهم تمحل ظاهر مع أن الاظهر أنه متوجه الى أمته صلى الله تعالى عليه وسلم وأنهم المتفرقون، ثم بين ما استظهره وسنشير اليه إن شاء الله تعالى.

وجوز كونه بدلا من (الدين) ويجوز كون (أن) مفسرة فقد تقدمها ما يتضمن معنى القول دون حروفه والخطاب في (أقيموا) وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ على ما اختاره غير واحد من الاجلة شامل للنبي ﷺ وأتباعه وللانبياء والامم قبلهم وضمير (فيه) للدين أي ولا تتفرقوا في الدين الذي هو عبارة عما تقدم من الأصول بأن يأتي به بعض ولا يأتي بعض ويأتي بعض ببعض منه دون بعض وهو مراد مقاتل أي لا تختلفوا فيه، ولا يشمل هذا النهي عن الاختلاف في الفروع فانها ليست من الاصول المرادة هنا ولم يتحد بها النبيون كما يؤذن بذلك قوله تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) وبعضهم أدخل بعض الفروع في أصول الدين المرادة هنا من الدين.

قال مجاهد: لم يبعث نبي الا أمر باقامة الصلاة وايتاء الزكاة والاقرار بالله تعالى وطاعته سبحانه وذلك اقامة الدين، وقال الحافظ أبو بكر بن العربي: لم يكن مع آدم عليه السلام الا بنوه ولم يفرض له الفرائض ولا شرعت له المحارم وانما كان منبها على بعض الامور مقتصرا على بعض ضروريات المعاش واستمر الامر الى نوح عليه السلام فبعثه الله تعالى بتحريم الامهات والبنات ووظف عليه الواجبات وأوضح له الادب في الديانات ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر بالانبياء واحدا بعد واحد وشريعة اثر شريعة حتى ختمه سبحانه بخير الملل على لسان أكرم الرسل، فمعنى الآية شرعنا لكم ما شرعنا للانبياء دينا واحدا في الاصول وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج والتقرب بصالح الاعمال والصدق والوفاء بالعهد وأداء الامانة وصلة الرحم وتحريم الكبر والزنا والايذاء للخلق والاعتداء على الحيوان واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات فهذا كله مشروع دينا واحدا وملة متحدة لم يختلف على ألسنة الانبياء وان اختلفت أعدادهم، ومعنى (أقيموا الدين ولا تتفرقوا

فيه) اجعلوه قائما أى دائما مستمرا من غير خلاف فيه ولا اضطراب انتهى، ولعله أراد بالصلاة والزكاة والصيام والحج مطلقها لا ما نعرفه فى شرعنا منها فان الصلوات الخمس والزكاة المخصوصة وصيام شهر رمضان من خواص هذه الامة على الصحيح، والظاهر أن حج البيت لم يشرع لأمة موسى وأمة عيسى عليهما السلام ولا لأكثر الامم قبلهما على أن الآية مكية ولم تشرع الزكاة المعروفة وصيام رمضان الا فى المدينة، وبالجملة لا شك فى اختلاف الاديان فى الفروع، نعم لا يبعد اتفاقها فيما هو من مكارم الاخلاق واجتناب الرذائل ﴿ كَبُرَ ﴾ أى عظم وشق ﴿ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ على سبيل الاستمرار التجددى من التوحيد ورفض عبادة الاصنام ويشعر بارادته التعبير بالمشركين وهو أصل الاصول وأعظم ماشق عليهم كما تنبىء بذلك الآيات أو ماتدعوهم اليه من اقامة الدين وعدم التفرق فيه ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ تسلية له صلى الله تعالى عليه وسلم بأن منهم من يجيب، و(يجتبى) من الاجتباء بمعنى الاصطفاء والضمير فى (اليه) لله تعالى كما ذكر محيي السنة وغيره وكذا الضمير فى قوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ١٣ ﴾ أى يصطفى اليه سبحانه من يشاء اصطفاءه ويخصصه سبحانه بفيض إلهى يتحصل له منه أنواع النعم ويهدى اليه عز وجل بالارشاد والتوفيق من يقبل اليه تعالى شأنه، وعدى الاجتباء بإلى لما فيه من الجمع على ما يفهم من كلام الراغب، وجعله جمع من الجباية بمعنى الجمع يقال: جبيت الماء فى الحوض جمعته فيه فمنهم من اختار جعل ضمير (اليه) فى الموضعين ـ لما ـ لما فيه من اتساق الضمائر أى يجتلب ويجمع من يشاء اجتلابه وجمعه الى ما تدعوهم اليه، ومنهم من اختار جعله للدين لمناسبة معنوية هى اتحاد المتفرق فيه والمجتمع عليه والزمخشرى اختار كونه من الجباية بمعنى الجمع وعود الضمير على الدين، وما ذكره محيي السنة وغيره ـ قال فى الكشف ـ أظهر وأملأ بالفائدة، أما الثانى فللدلالة على أن أهل الاجتباء غير أهل الاهتداء وكلتا الطائفتين هم أهل الدين والتوحيد الذين لم يتفرقوا فيه وعلى مختار طائفة واحدة ٭

وأما الأول فلأن الاجتباء بمعنى الاصطفاء أكثر استعمالا ولأنه يدل على أن أهل الدين هم صفوة الله تعالى اجتباهم اليه واصطفاهم لنفسه سبحانه، وأما الذى آثره الزمخشرى فكلام ظاهرى بناه على أن الكلام فى عدم التفرق فى الدين فناسب الجمع والانتهاء اليه، وقيل: (ما تدعوهم اليه) على معنى ما تدعوهم الى الايمان به والمراد به الرسالة أى ثقلت عليهم رسالتك وعظم لديهم تخصيصنا اياك بالرسالة والوحى دونهم وقوله تعالى: (الله يجتبى اليه من يشاء) رد عليهم على نحو (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وما قدمنا أظهر ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا ﴾ أى أمم الانبياء بعد وفاة أنبيائهم كما فى الكشف منذ بعث نوح عليه السلام فى الدين الذى دعوا اليه واختلفوا فيه فى وقت من الاوقات ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ من أنبيائهم بأن الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه؛ وهذا يؤيد ما دل عليه سابقا من أن الامم القديمة والحديثة أمروا باتفاق الكلمة واقامة الدين، والمراد بالعلم سببه مجازا مرسلا، ويجوز أن يكون التجوز فى الاسناد، وأن يكون الكلام بتقدير مضاف أى جاءهم سبب العلم، وقد يقال جاء مجاز عن حصل، والاستثناء على ما أشرنا اليه مفرغ من أعم الاوقات، وجوز أن يكون من أعم الاحوال أى ما تفرقوا فى حال من الاحوال الا حال مجيء العلم ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أى عداوة على أن البغى

الظلم والتجاوز والعداوة سبب له وهي الداعي للتفرق أو طلبا للدنيا والرياسة على أن البغي مصدر بغي بمعنى طلب ﴿ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ هي عدته تعالى بترك معاجلتهم بالعذاب ﴿ الَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ معلوم له سبحانه وهو يوم القيامة أو آخر أعمارهم المقدرة لهم ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ باستئصال المبطلين حين افترقوا لعظم ما اقترفوا ﴿ وَانَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ هم أهل الكتاب الذين كانوا فى عهده ﷺ وقرأ زيد ابن على (ورثوا) مبنيا للمفعول مشددا الواو ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾ أى من كتابهم فلم يؤمنوا به حق الايمان ﴿ مُرِيبٍ ١٤ ﴾ مقلق أو مدخل فى الريبة ، والجملة اعتراض يؤكد أن تفرقهم ذلك باق فى أعقابهم منضما اليه الشك فى كتابهم مع انتسابهم اليه فهم تفرقوا بعد العلم الحاصل لهم من النبي المبعوث اليهم المصدق لكتابهم وتفرقوا قبله شكا فى كتابهم فلم يؤمنوا به ولم يصدقوا حقه ٭

﴿ فَلِذَٰلِكَ ﴾ أى إذا كان الأمر كما ذكر فلأجل ذلك التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر فى الأمم السالفة شعبا ﴿ فَادْعُ ﴾ إلى الائتلاف والاتفاق على الملة الحنيفية القديمة ﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ أى أثبت على الدعاء كما أوحى اليك ، وقيل: الاشارة إلى قوله تعالى: (شرع لكم) وما يتصل به ونقل عن الواحدى أى ولأجل ذلك من التوصية التى شوركت فيها مع نوح ومن بعده ولأجل ذلك الأمر بالاقامة والنهى عن التفرق فادع ، وما ذكر أولا أولى لأن قوله تعالى. (أن أقيموا) شمل النبي عليه الصلاة والسلام وأتباعه كما سمعت ، ويدل عليه (كبر على المشركين ماتدعوهم اليه) فقوله تعالى: (فلذلك فادع) الخ لا يتسبب عنه لما يظهر من التكرار وهو تفرع الأمر عن الأمر ، وأما تسببه عن تفرقهم فظاهر على معنى فلما أحدثوا من التفرق وأبدعوا فاثبت أنت على الدعاء الذى أمرت به واستقم وهذا ظاهر للمتأمل ٭

ومن الناس من جعل المشار اليه الشرع السابق ولم يدخل فيه الأمر بالاقامة لئلا يلزم التكرار أى فلأجل أنه شرع لهم الدين القويم القديم الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون فادع ، وقيل: هو الكتاب ، وقيل: هو العلم المذكور فى قوله تعالى: (جاءهم العلم) وقيل: هو الشك ورجح بالقرب وليس بذاك ، واللام على جميع الأقوال المذكورة للتعليل ، وقيل: على بعضها هى بمعنى إلى صلة الدعاء فما بعدها هو المدعو اليه ، وأنت تعلم أنه لاحاجة فى إرادة ذلك إلى جعلها بمعنى إلى فان الدعاء يتعدى بها أيضا كما فى قوله: ٭ دعوت لما نابنى مسورا ٭

ونقل ذلك عن الفراء والزجاج ، وأياما كان فالفاء الأولى واقعة فى جواب شرط مقدر كما أشرنا اليه والفاء الثانية مؤكدة للاولى ، وقيل: كان الناس بعد الطوفان أمة واحدة موحدين فاختلف أبناؤهم بعد موتهم حين بعث الله تعالى النبيين مبشرين ومنذرين ، وجعل ضمير (تفرقوا) لأخلاف أولئك الموحدين والذين أورثوا الكتاب باق على ماتقدم والأول أظهر ٭

وقيل: (ضمير) تفرقوا لأهل الكتاب تفرقوا من بعد ماجاءهم العلم ببعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهذا كقوله تعالى: (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة) وإنما تفرقوا حسدا له عليه الصلاة والسلام لا لشبهة ، والمراد بالذين أورثوا الكتاب من بعدهم مشركو مكة وأحزابهم لأنهم أورثوا القرآن فالكتاب القرآن وضمير منه له وقيل للرسول وهو خلاف الظاهر ، واختار كون المتفرقين أهل الكتاب

اليهود والنصارى والمورثين الشاكين مشركى مكة وأحزابهم شيخ الاسلام واستظهر أن الخطاب فى (أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) لأمته صلى الله تعالى عليه وسلم. وتعقب القول بكون المتفرق كل أمة بعد نبيها والقول بكونه اخلاف الموحدين الذين كانوا بعد الطوفان فقال: يرد ذلك قوله تعالى: (ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم) فان مشاهير الأمم المذكورة قد أصابهم عذاب الاستئصال من غير إنظار وإمهال على أن مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمة وإنما ذكر من ذكر من الأنبياء عليهم السلام لتحقيق أن ماشرع لهؤلاء دين قديم أجمع عليه أولئك الأعلام عليهم الصلاة والسلام تأكيد الوجوب اقامته وتشديداً للزجر عن التفرق والاختلاف فيه فالتعرض لبيان تفرق أممهم عنه ربما يوهم الاخلال بذلك المرام انتهى *

وأجيب عن الأول بأن ضمير (بينهم) لأولئك الذين تفرقوا وقد علمت أن المراد بهم المتفرقون بعد وفاة أنبيائهم وهم لم يصبهم عذاب الاستئصال وإنما أصاب الذين لم يؤمنوا فى عهد أنبيائهم واطلاق المتفرقين ليس بذاك الظهور، وقيل: المراد لقضى بينهم ريثما افترقوا ولم يمهلوا أعواما، وقيل: المراد لقضى بينهم باهلاك المبطلين وإثابة المحقين إثابتهم فى العقبى وهو كما ترى، وعن الثانى بأنا لانسلم إيهام التعرض لبيان تفرق الأمم الاخلال بالمرام بعد بيان أنه لم يكن إلا بعد أن جاءهم العلم بأنه ضلال وفساد وأمر متوعد عليه وأنه كان بغيا بينهم ولم يكن لشبهة فى صحة الدين، وقيل. ضمير (تفرقوا) للمشركين فى قوله تعالى: (كبر على المشركين)*

حكى فى البحر عن ابن عباس أنه قال: وما تفرقوا يعنى قريشا والعلم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وكانوا يتمنون أن يبعث اليهم نبي كما قال سبحانه: (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) لئن جاءهم نذير الآية، وقد يقال عليه: المراد بالذين أورثوا الكتاب أهل الكتاب الذين عاصروا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ومعنى من بعدهم على ماقال أبو حيان من بعد أسلافهم *

ونقل الطبرسى عن السدى مايدل على أن المراد من بعد احبارهم وفسر الموصول بعوام أهل الكتاب، وقيل: ضمير بعدهم للمشركين أيضا والبعدية رتبية كما قيل فى قوله تعالى: «والارض بعد ذلك دحاها» ولا يخفى عليك أنه لابأس بعود ضمير (تفرقوا) للمشركين لو وجد للذين أورثوا الكتاب توجيه يقع فى حيز القبول والله تعالى الموفق، وجعل متعلق (استقم) الدعاء لاتخفى مناسبته. وجوز جعله عاما فيكون استقم أمرا بالاستقامة فى جميع أموره عليه الصلاة والسلام، والاستقامة أن يكون على خط مستقيم، وفسرها الراغب بلزوم المنهج المستقيم فلا حاجة إلى التأويل بالدوام على الاستقامة أى دم على الاستقامة ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى شيئا من أهوائهم الباطلة على أن الاضافة للجنس ﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أى بجميع الكتب المنزلة لأن مامن أدوات العموم، وتنكير (كتاب) المبين مؤيد لذلك، وفى هذا القول تحقيق للحق وبيان لاتفاق الكتب فى الاصول وتأليف لقلوب أهل الكتابين وتعريض بهم حيث لم يؤمنوا بجميعها ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أى أمرنى الله تعالى بما أمرنى به لأعدل بينكم فى تبليغ الشرائع والاحكام فلاأخص بشيء منها شخصا دون شخص وقيل: لأعدل بينكم فى الحكم إذا تخاصمتم، وقيل: بتبليغ الشرائع وفصل الخصومة واختاره غير واحد، وقيل: لاسوى بينى وبينكم ولا آمركم بمالاأعمله ولاأخالفكم إلى ماأنهاكم عنه ولاأفرق بين أصاغركم وأكابركم فى اجراء حكم الله عز وجل، فاللام للتعليل والمأمور به محذوف، وقيل: اللام مزيدة أى أمرت أن أعدل ويحتاج

لتقدير الباء أى بأن أعدل، ولايخلو عن بعد ﴿ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أى خالق الكل ومتولى أمره فليس المراد خصوص المتكلم والمخاطب ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا ﴾ لا يتخطانا جزاؤها ثوابا كان أو عقابا ﴿ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ لايجاوزكم آثارها لننتفع بحسناتكم وتتضرر بسيئاتكم ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ أى لااحتجاج ولاخصومة لأن الحق قد ظهر فلم يبق للاحتجاج حاجة ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة والعناد، وجاءت الحجة هنا على أصلها فانها فى الاصل مصدر بمعنى الاحتجاج كما ذكره الراغب وشاعت بمعنى الدليل وليس بمراد ﴿ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ١٥ ﴾ فيفصل سبحانه بيننا وبينكم، وليس فى الآية مايدل على متاركة الكفار رأسا حتى تكون منسوخة بآية السيف، وادعى أبوحيان أن مايظهر منها الموادعة المنسوخة بتلك الآية *

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللهِ ﴾ أى يخاصمون فى دينه، قال ابن عباس . ومجاهد نزلت فى طائفة من بنى اسرائيل همت برد الناس عن الاسلام واضلالهم فقالوا: كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فديننا أفضل من دينكم ، وفى رواية بدل فديننا الخ فنحن أولى بالله تعالى منكم ، وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخل الناس فى دين الله أفواجا فاخرجوا من بين أظهرنا أو اتركوا الاسلام، والمحاجة فيه غير ظاهرة ولعلهم مع هذا يذكرون مافيه ذلك ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ ﴾ أى من بعد مااستجاب الناس لله عزوجل أو لدينه ودخلوا فيه وأذعنوا له لظهور الحجة ووضوح المحجة، والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم اليه ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ زائلة باطلة لاتقبل عنده عز وجل بل لاحجة لهم أصلا، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة وهى الدليل ههنا مجاراة معهم على زعمهم الباطل *

وجوز كون ضمير (له) للرسول عليه الصلاة والسلام لكونه فى حكم المذكور والمستجيب أهل الكتب واستجابتهم له صلى الله تعالى عليه وسلم اقرارهم بنعوته واستفتاحهم به قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام فاذا كانوا هم المحاجين كان الكلام فى قوة والذين يحاجون فى دين الله من بعد مااستجابوا لرسوله وأقروا بنعوته حجتهم فى تكذيبه باطلة لما فيها من نفى ماأقروا به قبل وصدقه العيان ، وقيل: المستجيب هو الله عزوجل وضمير (له) لرسوله عليه الصلاة والسلام، واستجابته تعالى له صلى الله عليه وسلم باظهار المعجزات الدالة على صدقه، وإلى نحوه ذهب الجبائى حيث قال: أى من بعد مااستجاب الله تعالى دعاءه فى كفار بدر حتى قتلهم بأيدى المؤمنين ودعاءه على أهل مكة حتى قحطوا ودعاءه للمستضعفين حتى خلصهم الله تعالى من أيدى قريش وغير ذلك مما يطول تعداده، وبطلان حجتهم لظهور خلاف ماتقتضيه بزعمهم بذلك، وهذا ظاهر فى أن هذه الآية مدنية لأن وقعة بدر بعد الهجرة وحمل (استجيب) على الوعد خلاف الظاهر جدا، وكذا ماروى عن عكرمة ، وقيل: إن حمل الاستجابة على استجابة أهل الكتاب يقتضى ذلك أيضا إذ لم يكن بمكة أحد منهم ، وقيل: لايقتضيه لأن خبر استجابتهم واقرارهم بنعوته صلى الله تعالى عليه وسلم وهو عليه الصلاة والسلام بمكة بلغ أهل مكة والمجادلون محمول عليهم فلا مانع من كونها مكية ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ عظيم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ١٦ ﴾ لايقادر قدره *

﴿ اللهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ ﴾ جنس الكتاب أو الكتاب المعهود أو جميع الكتب ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ ملتبسا بالحق بعيدا من الباطل فى أحكامه وأخباره أو ملتبسا بما يحق ويجب من العقائد والاحكام ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ أى العدل كما قال ابن عباس . ومجاهد . وقتادة . وغيرهم أو الشرع الذى يوزن به الحقوق ويسوى بين الناس ، وعلى الوجهين فيه استعارة ونسبة الانزال اليه مجاز لأنه من صفات الاجسام والمنزل حقيقة من بلغه ، واعتبر بعضهم الامر أى انزل الامر بالميزان ، وتعقب بأنه أيضا محتاج إلى التأويل ، وقد يقال : نسبة الانزال وكذا النزول إلى الامر مشهورة جدا فالتحقت بالحقيقة ، ويجوز أن يتجوز فى الانزال ويقال نحو ذلك فى (أنزل الكتاب) وعن مجاهد أن الميزان الآلة المعروفة فعلى هذا انزاله على حقيقته ، وجوز أن يكون على سبيل الامر به ، واستظهر الأول لما نقل الزمخشرى فى الحديد أنه نزل إلى نوح وأمر أن يوزن به ، وكون المراد به ميزان الاعمال بعيد هنا *

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أى أى شىء يجعلك داريا أى عالما ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ ﴾ أى اتيان الساعة الذى أخبر به الكتاب الناطق بالحق فالكلام بتقدير مضاف مذكر ، وقوله تعالى : ﴿ قَرِيبٌ ١٧ ﴾ خبر عنه فى الحقيقة لأن المحذوف بقرينة كالملفوظ وهو وجه فى تذكيره ؛ وجوز أن يكون لتأويل الساعة بالبعث وأن يكون (قريب) من باب تامر ولابن أى ذات قرب إلى أوجه أخر تقدمت فى الكلام على قوله تعالى : (إن رحمة الله قريب) وأياما كان فالمعنى إن الساعة على جناح الاتيان فاتبع الكتاب وواظب على العدل واعمل بالشرع قبل أن يفاجئك اليوم الذى توزن فيه الاعمال ويوفى جزاؤها ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ استعجال انكار واستهزاء كانوا يقولون : متى هى ليتها قامت حتى يظهر لنا أهو الذى نحن عليه أم كالذى عليه محمد عليه الصلاة والسلام واصحابه *

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أى خائفون منها مع اعتناء بها فان الاشفاق عناية مختلطة بخوف فاذا عدى بمن كما هنا فمعنى الخوف فيه اظهر وإذا عدى بعلى فمعنى العناية اظهر ، وعنايتهم بها لتوقع الثواب ، وزعم الجلبى أن الآية من الاحتباك والاصل يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها والذين آمنوا مشفقون منها فلا يستعجلون بها ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ الامر المتحقق الكائن لامحالة ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ ﴾ أى يجادلون فيها ، وأصله من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب ، واطلاق المماراة على المجادلة لأن كلا من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه ، ويجوز أن يكون من المرية التردد فى الامر وهو أخص من الشك ومعنى المفاعلة غير مقصود فالمعنى ان الذين يترددون فى أمر الساعة ويشكون فيه ﴿ لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ ١٨ ﴾ عن الحق فان البعث أقرب الغائبات بالمحسوسات لأنه يعلم من تجويزه من احياء الارض بعد موتها وغير ذلك فمن لم يهتد اليه فهو عن الاهتداء إلى ماوراءه أبعد وأبعد *

﴿ اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ بر بليغ البر بهم يفيض جل شأنه على جميعهم من صنوفه مالا يبلغه الأفهام ويؤذن بذلك مادة اللطف وصيغة المبالغة فيها وتنكيرها الدال على المبالغة بحسب الكمية والكيفية ، قال حجة الاسلام عليه الرحمة : إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها ومادق منها ولطف ثم يسلك فى إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف فاذا اجتمع الرفق فى الفعل واللطف فى الادراك تم معنى اللطيف ولا يتصور كمال ذلك إلا فى الله تعالى شأنه ، فصنوف البر من المبالغة فى الكم ، وكونها لا تبلغها الأفهام من المادة

والمبالغة فى الكيفية لأنه إذا دق جدا كان أخفى وأخفى، وارادة الجميع من اضافة العباد وهو جمع ألى ضميره تعالى فيفيد الشمول والاستغراق، وبالعموم قال مقاتل الا أنه قال: لطيف بالبر والفاجر حيث لم يقتلهم جوعا *

وقال أبو حيان: لطيف بعباده أى بر بعباده المؤمنين ومن سبق له الخلود فى الجنة وما يرى من النعم على الكافر فليس بلطف إنما هو املاء الا ما آل الى رحمة ووفاة على الاسلام، وحكى الطيبى هذا التخصيص عن الواحدى ومال الى ترجيحه وذلك أنه ادعى أن الاضافة فى (عباده) اضافة تشريف اذ أكثر استعمال التنزيل الجليل فى مثل ذلك فيختص العباد بأوليائه تعالى المؤمنين، وحمل اللطف على منح الهداية وتوفيق الطاعة وعلى الكمالات الأخروية والكرامات السنية، وحمل الرزق فى قوله تعالى: ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ عليه أيضا وقال: ان استعماله فيما ذكر كاستعماله فى قوله تعالى: « ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) *

وجعل قوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ ١٩ ﴾ مؤذنا بالتعليل كأنه قيل: انما تلطف جل شأنه فى حق عباده المؤمنين دون من غضب عليهم بمحض مشيئته سبحانه لأنه تعالى قوى قادر على أن يختص برحمته وكرامته من يشاء من عباده عزيز غالب لا يمنعه سبحانه عما يريده أحد، وادعى أنه يكون وزان الآية على هذا مع قوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ﴾ الآية وزان قوله عز وجل: (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) وينتظم الكلام أتم انتظام وتلتئم أطرافه أشد التئام، ولا يقال حينئذ: ان قوله تعالى: (يرزق من يشاء) حكم مترتب على السابق فكان ينبغى أن يعم عمومه والعموم أظهر، وحديث التخصيص فى (يرزق من يشاء) فقد أجاب عنه صاحب التقريب فقال انما خص الرزق بمن يشاء مع أنهم كلهم بر سبحانه بهم لأنه تعالى قد يخص أحدا بنعمة وغيره بأخرى فالعموم لجنس البر والخصوص لنوعه. وأشار جار الله الى أنه لا تخصيص بالحقيقة فان المعنى الله تعالى بالغ البر بجميع عباده يرزق من يشاء ما يشاء سبحانه منه ـ فيرزق من يشاء ـ بيان لتوزيعه على جميعهم فليس الرزق الا النصيب الخاص لكل واحد، ولما شمل الدارين لائم قوله تعالى: (من كان يريد) الخ كل الملاءمة، ولا يتوقف هذا على ما قاله الطيبى، ولعل أمر التذييل بالاسمين الجليلين على القول بالعموم أظهر والتعليل أنسب فكأنه قيل: لطيف بعباده عام الاحسان بهم لأنه تعالى القوى الباهر القدرة الذى غلب وغلبت قدرته سبحانه جميع القدر يرزق من يشاء لأنه العزيز الذى لا يغلب على ما يريد فكل من الاسمين الجليلين ناظر إلى حكم فافهم (وقل رب زدنى علما) *

فكم لله من لطف خفى يدق خفاه عن فهم الذكى

والحرث فى الاصل القاء البذر فى الارض يطلق على الزرع الحاصل منه، ويستعمل فى ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذور المتضمن لتشبيه الاعمال بالبذور أى من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة نضاعف له ثوابه بالواحد عشرة الى سبعمائة فما فوقها ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ ﴾ بأعماله ﴿ حَرْثَ الدُّنْيَا ﴾ وهو متاعها وطيباتها ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أى شيئا منها حسبما قدرناه له بطلبه وارادته ﴿ وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ٢٠ ﴾ اذ كانت همته مقصورة على الدنيا، وقرأ ابن مقسم والزعفرانى ومحبوب،

والمنقري كلاهما عن أبي عمرو (يزد ويؤته) بالياء فيهما، وقرأ سلام (نؤته) بضم الهاء وهي لغة أهل الحجاز وقد جاء في الآية فعل الشرط ماضيا والجواب مضارعا مجزوما قال أبو حيان: ولا نعلم خلافا في جواز الجزم في مثل ذلك وانه فصيح مختار مطلقا الا ماذكره صاحب كتاب الاعراب أبو الحكم بن عذرة عن بعض النحويين أنه لا يجيء في الفصيح الا اذا كان فعل الشرط كان، وانما يجيء معها لأنها أصل الأفعال ونص كلام سيبويه والجماعة انه لا يختص بكان بل سائر الافعال مثلها في ذلك وانشد سيبويه للفرزدق

دست رسولا بأن القوم ان قدروا عليك يشفوا صدورا ذات توغير

وقال أيضا: تعش فان عاهدتني لاتخونني نكن مثل من ياذئب يصطحبان

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ في الكفر وهم الشياطين ﴿شَرَعُوا لَهُمْ﴾ أي لهؤلاء الكفرة المعاصرين لك بالتسويل والتزيين ﴿مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا . و(أم) منقطعة فيها معنى بل الاضرابية والهمزة التي للتقرير والتقريع والاضراب عما سبق من قوله تعالى: (شرع لكم من الدين) الخ فالعطف عليه وما اعترض به بين الآيتين من تتمة الأولى، وتأخير الأضراب ليدل على أنهم في شرع يخالف ماشرعه الله تعالى من كل وجه فالشرك في مقابلة اقامة الدين والاستقامة عليه وإنكار البعث في مقابلة قوله تعالى (والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) والعمل للدنيا لقوله سبحانه: (من كان يريد حرث الآخرة) وهذا أظهر من جعل الأضراب عما تقدم من قوله تعالى: (كبر على المشركين) كما لا يخفى، وقيل: شركاؤهم أصنامهم، وإضافتها اليهم لأنهم الذين جعلوها شركاء لله سبحانه، وإسناد الشرع اليها لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم كقوله تعالى: (إنهن أضللن كثيرا) وجوز أن يكون الاستفهام المقدر على هذا للانكار أي ليس لهم شرع ولا شارع كما في قوله تعالى: (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) وأياما كان فضمير (شرعوا) للشركاء وضمير (لهم) للكفار *

وجوز على تفسير الشركاء بالأصنام أن يكون الأول للكفار والثاني للشركاء أي شرع الكفار لأصنامهم ورسموا من المعتقدات والأحكام مالم يأذن به الله تعالى كاعتقاد أنهم آلهة وأن عبادتهم تقربهم إلى الله سبحانه، وكجعل البحيرة والسائبة والوصيلة وغير ذلك، وهو كما ترى ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي القضاء والحكم السابق منه تعالى بتأخير العذاب إلى يوم القيامة أو إلى آخر أعمارهم ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الكافرين والمؤمنين في الدنيا أو حين افترقوا بالعقاب والثواب، وجوز أن يكون المعنى لولا ماوعدهم الله تعالى به من الفصل في الآخرة لقضى بينهم فالفصل بمعنى البيان كما في قوله تعالى: (هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين) وقيل: ضمير بينهم للكفار وشركائهم بأي معنى كان ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ وهم المحدث عنهم أو الأعم منهم ويدخلون دخولا أوليا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١)﴾ في الآخرة. وفي البحر أي في الدنيا بالقتل والأسر والنهب وفي الآخرة بالنار *

وقرأ الأعرج. ومسلم بن جندب (وأن) بفتح الهمزة عطفا على (كلمة الفصل) أي لولا القضاء السابق بتأخير العذاب وتقدير أن الظالمين لهم عذاب أليم في الآخرة أو لولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة وتقدير أن الظالمين لهم الخ لقضى بينهم، والعطف على التقديرين تتميم للايضاح لا تفسيري محض ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ جملة مستأنفة لبيان ماقبل، والخطاب لكل أحد يصلح له للقصد إلى المبالغة في سوء حالهم أي ترى يامن يصح

منه الرؤيا الظالمين يوم القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين الخوف الشديد ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ فى الدنيا من السيآت، والكلام قيل على تقدير مضاف *

و(من) صلة الاشفاق أى مشفقين من وبال ما كسبوا ﴿وَهُوَ﴾ أى الوبال ﴿وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أى حاصل لهم لاحق بهم، واختار بعضهم أن لا تقدير ومن تعليلية لأنه أدخل فى الوعيد، والجملة اعتراض للاشارة الى أن اشفاقهم لا ينفعهم، وايثار (واقع) على يقع مع أن المعنى على الاستقبال لأن الخوف انما يكون من المتوقع بخلاف الحزن للدلالة على تحققه وأنه لا بد منه، وجوز أن تكون حالا من ضمير (مشفقين) وظاهر ما سمعت انه حال مقدرة *

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أى مستقرون فى أطيب بقاعها وأنزهها *

وقال الراغب: هى محاسنها وملاذها، وأصل الروضة مستنقع الماء والخضرة واللغة الكثيرة فى واوها جمعا التسكين كما فى المنزل ولغة هذيل بن مدركة فتحها فيقولون روضات اجراء للمعتل مجرى الصحيح نحو جفنات ولم يقرأ أحد فيما علمنا بلغتهم ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى ما يشتهونه من فنون المستلذات حاصل لهم عند ربهم فالظرف متعلق بمتعلق الجار والمجرور الواقع خبر الما أو به واختاره جار الله ونفى أن يكون متعلقا بيشاؤن مع أنه الظاهر نحواه، وبين صاحب الكشف ذلك بأنه كلام فى معرض المبالغة فى وصف ما يكون أهل الجنة فيه من النعيم الدائم فأفيد أنهم فى انزه موضع من الجنة وأطيب مقعد منها بقوله تعالى: (فى روضات الجنات) لأن روضة الجنة انزه موضع منها لا سيما والاضافة فى هذا المقام تنبىء عن تميزها بالشرف والطيب، والتعقيب بقوله تعالى: «لهم ما يشاؤن» أيضا ثم أفيد أن لهم ما يشتهون من ربهم ولا خفاء أنك اذا قلت: لى عند فلان ما شئت كان ابلغ فى حصول كل مطالبك منه مما اذا قلت: لى ما شئت عند فلان بالنسبة الى الطالب والمطلوب منه *

أما الأول فلأنه يفيد أن جميع ما تشاؤه موجود مبذول لك منه، والثانى يفيد ان ما شئت عنده مبذول لا جميع ما تشاؤه، وأما الثانى فلأنك وصفته بأنه يبذل جميع المرادات، وفى الثانى وصفته بان ما شئت عنده مبذول لك إما منه وإما من غيره ثم فى الاول مبالغة فى تحقيق ذلك وثبوته كما تقول: لى عندك وقبلك كذا، فالله تعالى شأنه أخبر بان ذلك حق لهم ثابت مقضى فى ذمة فضله سبحانه ولا كذلك فى الثانى، ثم قال: ولعل الأوجه أن يجعل (عند ربهم) خبرا آخر أى الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند ربهم فى روضات الجنات لهم فيها ما يشاؤن، وانما أخر توخيا لسلوك طريق المبالغة فى الترقى من الادنى الى الاعلى ومراعاة لترتيب الوجود أيضا فان الوافد والضيف ينزل فى أنزه موضع ثم يحضر بين يديه الذى يشتهيه، وملاك ذلك كله أن يختصه رب المنزل بالقرب والكرامة، وأن جعله حالا من فاعل يشاؤن أو من المجرور فى (لهم) افاد هذا المعنى أيضا لكنه يقصر عما آثرناه لأنه قد أتى به اتيان الفضلة وهو مقصود بذاته عمدة، ولعمرى أن ما آثره حسن معنى إلا أنه أبعد لفظا مما آثره جار الله، ولا يخفى عليك ماهو الانسب بالتنزيل. وفى الخبر عن أبى ظبية قال: إن السرب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول: ما أمطركم؟ فما يدعو داع من القوم الا امطرته حتى أن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب اترابا ﴿ذَٰلِكَ﴾ اشارة إلى ماذكر من حال المؤمنين، ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ٢٢﴾ الذى لا يقدر قدره ولا تبلغ غايته ويصغر دونه ما لغيرهم فى الدنيا ﴿ذَٰلِكَ﴾

الفضل الكبير أو الثواب المفهوم من السياق هو ﴿ الَّذِى يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أى يبشر به فحذف الجار ثم العائد إلى الموصول كما هو عادتهم فى التدريج فى الحذف، ولا مانع كما قال الشهاب من حذفهما دفعة ، وجوز كون ذلك اشارة إلى التبشير المفهوم من (يبشر) بعد والاشارة قد تكون لما يفهم بعد كما قرروه فى قوله تعالى : (و كذلك جعلناكم أمة وسطا) ونحوه ، والعائد إلى الموصول ضمير منصوب بيبشر على أنه مفعول مطلق له لأنه ضمير المصدر أى ذلك التبشير يبشره الله عباده، وزعم أبو حيان أنه لا يظهر جعل الاشارة إلى التبشير لعدم تقدم لفظ البشرى ولا ما يدل عليها وهو ناشىء عن الغفلة عما سمعت فلا حاجة فى الجواب عنه أن كون ما تقدم تبشيرا للمؤمنين كاف فى صحة ذلك، ثم قال: ومن النحويين من جعل الذى مصدرية حكاه ابن مالك عن يونس و تأول عليه هذه الآية أى ذلك تبشير الله تعالى عباده، وليس بشئ لأنه اثبات للاشتراك بين مختلفى الحد بغير دليل وقد ثبتت اسمية الذى فلا يعدل عن ذلك بشىء لا يقوم به دليل ولا شبهة ٭

وقرأ عبد الله بن يعمر. وابن أبى إسحق . والجحدرى . والاعمش . وطلحة فى رواية. والكسائى . وحمزة (يبشر) ثلاثيا . ومجاهد . وحميد بن قيس بضم الياء وتخفيف الشين من أبشر وهو معدى بالهمزة من بشر اللازم المكسور الشين وإما بشر بفتحها فمتعد وبشر بالتشديد للتكثير لا للتعدية لأن المعدى الى واحد وهو مخفف لا يعدى بالتضعيف اليه فالتضعيف فيه للتكثير لا للتعدية ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى على ما اتعاطاه لكم من التبليغ والبشارة وغيرهما ﴿ أَجْرًا ﴾ أى نفعا ما، ويختص فى العرف بالمال ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ ﴾ أى الا مودتكم إياى ﴿ فِى الْقُرْبَىٰ ﴾ أى لقرابتى منكم ففى للسببية مثلها فى «إن امرأة دخلت النار فى هرة» فهى بمعنى اللام لتقارب السبب والعلة ، والى هذا المعنى ذهب مجاهد . وقتادة . وجماعة . والخطاب إما لقريش على ما قيل: انهم جمعوا له مالا وأرادوا أن يرشوه على أن يمسك عن سب آلهتهم فلم يفعل ونزلت، وله عليه الصلاة والسلام فى جميعهم قرابة . أخرج أحمد. والشيخان. والترمذى. وغيرهم عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى: (الا المودة فى القربى) فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ابن عباس: عجلت ان النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن بطن من قريش الا كان له فيهم قرابة أو للانصار بناء على ما قيل: انهم أتوه بمال ليستعين به على ما ينوبه فنزلت فرده ، وله عليه الصلاة والسلام قرابة منهم لأنهم اخواله فان أم عبد المطلب وهى سلمى بنت زيد النجارية منهم وكذا اخوال آمنة أمه عليه الصلاة والسلام كانوا على ما فى بعض التواريخ من الانصار أيضا أو لجميع العرب لقرابته عليه الصلاة والسلام منهم جميعا فى الجملة كيف لا وهم إما عدنانيون وقريش منهم وإما قحطانيون والانصار منهم، وقرابته عليه الصلاة والسلام من كل قد علمت وذلك يستلزم قرابته من جميع العرب ، وقضاعة من قحطان لا قسم برأسه على ما عليه معظم النسابين، والمعنى ان لم تعرفوا حقى لنبوتى وكونى رحمة عامة ونعمة تامة فلا أقل من مودتى لأجل حق القرابة وصلة الرحم التى تعتنون بحفظها ورعايتها ٭

وحاصله لا أطلب منكم الا مودتى ورعاية حقوقى لقرابتى منكم وذلك أمر لازم عليكم ، وروى نحو هذا فى الصحيحين عن ابن عباس بل جاء ذلك عنه رضى الله تعالى عنه فى روايات كثيرة وظاهرها ان الخطاب لقريش منها ما أخرجه سعيد بن منصور. وابن سعد. وعبد بن حميد. والحاكم. وصححه. وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل

عن الشعبي قال: أكثر الناس علينا فى هذه الآية (قل لا أسئلكم) الخ فكتبنا الى ابن عباس نسأله فكتب رضى الله تعالى عنه إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان وسط النسب فى قريش ليس بطن من بطونهم الا وقد ولدوه قال الله تعالى: (قل لا اسئلكم عليه أجرا) على ما أدعوكم عليه (الا المودة فى القربى) تودونى لقرابتى منكم وتحفظونى بها. ومنها ماأخرجه ابن جرير. وابن المنذر. وابن أبى حاتم. والطبرانى عنه قال: كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قرابة من جميع قريش فلما كذبوه وأبوا أن يتابعوه قال: ياقوم اذا أبيتم أن تتابعونى فاحفظوا قرابتى فيكم ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظى ونصرتى منكم، والظاهر من هذه الاخبار أن الآية مكية والقول بأنها فى الانصار يقتضى كونها مدنية، والاستثناء متصل بناء على ما سمعت من تعميم الاجر*

وقيل: لاحاجة الى التعميم. وكون المودة المذكورة من أفراد الاجر ادعاء كاف لاتصال الاستثناء، وقيل: هو منقطع اما بناء على أن المودة له عليه الصلاة والسلام ليست أجرا أصلا بالنسبة اليه صلى الله تعالى عليه وسلم أو لأنها لازمة لهم ليصلوا بصلة الرحم فنفعها عائد عليهم والانقطاع اقطع لتوهم المنافاة بين هذه الآية والآيات المتضمنة لنفى سؤال الاجر مطلقا، وذهب جماعة الى أن المعنى لا أطلب منكم أجرا الا محبتكم أهل بيتى وقرابتى. وفى البحر أنه قول ابن جبير. والسدى. وعمرو بن شعيب، و(فى) عليه للظرفية المجازية و(القربى) بمعنى الاقرباء، والجار والمجرور فى موضع الحال أى الا المودة ثابتة فى اقربائى متمكنة فيهم، ولمكانة هذا المعنى لم يقل: الا مودة القربى، وذكر أنه على الاول كذلك وأمر اتصال الاستثناء وانقطاعه على ماسبق، والمراد بقرابته عليه الصلاة والسلام فى هذا القول قيل: ولد عبد المطلب، وقيل على. وفاطمة. وولدها رضى الله تعالى عنهم وروى ذلك مرفوعا، أخرج ابن المنذر. وابن أبى حاتم. والطبرانى. وابن مردويه من طريق ابن جبير عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية (قل لا اسئلكم) الخ قالوا: يارسول الله من قرابتك الذين وجبت مودتهم؟ قال على. وفاطمة. وولدها صلى الله تعالى عليه وسلم على النبى وعليهم»*

وسند هذا الخبر على ماقال السيوطى فى الدر المنثور ضعيف، ونص على ضعفه فى تخريج احاديث الكشاف ابن حجر، وأيضا لو صح لم يقل ابن عباس ما حكى عنه فى الصحيحين وغيرهما وقد تقدم الا أنه روى عن جماعة من أهل البيت ما يؤيد ذلك، اخرج ابن جرير عن أبى الديلم قال: لما جئ بعلى بن الحسين رضى الله تعالى عنهما اسيرا فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم فقال له على رضى الله تعالى عنه: أقرأت القرآن؟ قال: نعم قال: أقرأت آل حم؟ قال: نعم قال: ما قرأت (قل لا أسئلكم عليه اجرا إلا المودة فى القربى) قال: فانكم لأنتم هم؟ قال: نعم. وروى زاذان عن على كرم الله تعالى وجهه قال: فينا فى آل حم آية لايحفظ مودتنا الا مؤمن ثم قرأ هذه الآية، وإلى هذا أشار الكميت فى قوله:

وجدنا لكم فى آل حم آية ... تأولها منا تقى ومعرب

ولله تعالى در السيد عمر الهيتى احد الاقارب المعاصرين حيث يقول:

بأية آية يأتى يزيد ... غداة صحائف الاعمال تتلى
وقام رسول رب العرش يتلو ... وقد صمت جميع الخلق قل لا

والخطاب على هذا القول لجميع الأمة لا للانصار فقط وإن ورد ما يوهم ذلك فانهم كلهم مكلفون بمودة أهل البيت. فقد أخرج مسلم. والترمذى. والنسائى عن زيد بن أرقم «أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

قال: اذكركم الله تعالى فى أهل بيتى . وأخرج الترمذى . وحسنه . والطبرانى . والحاكم . والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال . قال عليه الصلاة والسلام « أحبوا الله تعالى لما يغذوكم به من نعمة وأحبونى لحب الله تعالى وأحبوا أهل بيتى لحبى » واخرج ابن حبان . والحاكم . عن أبى سعيد قال : « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والذى نفسى بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلا أدخله الله تعالى النار » الى غير ذلك مما لا يحصى كثرة من الاخبار ، وفى بعضها ما يدل على عموم القربى وشمولها لبنى عبد المطلب . أخرج أحمد . والترمذى وصححه . والنسائى عن المطلب بن ربيعة قال : دخل العباس على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : إنا لنخرج فنرى قريشا تحدث فاذا رأونا سكتوا فغضب رسول الله ﷺ ودر عرق بين عينيه ثم قال : والله لا يدخل قلب أمرئ مسلم ايمان حتى يحبكم لله تعالى ولقرابتى ، وهذا ظاهر إن خص القربى بالمؤمنين منهم والا فقيل : إن الحكم منسوخ ، وفيه نظر ، والحق وجوب محبة قرابته عليه الصلاة والسلام من حيث انهم قرابته ﷺ كيف كانوا ، وما أحسن ما قيل: داريت أهلك فى هواك وهم عدا ولأجل عين ألف عين تكرم

وكلما كانت جهة القرابة أقوى كان طلب المودة أشد ، فمودة العلويين الفاطميين الزم من محبة العباسيين على القول بعموم (القربى) وهى على القول بالخصوص قد تتفاوت أيضا باعتبار تفاوت الجهات والاعتبارات وآثار تلك المودة التعظيم والاحترام والقيام بأداء الحقوق أتم قيام ، وقد تهاون كثير من الناس بذلك حتى عدوا من الرفض السلوك فى هاتيك المسالك . وأنا أقول قول الشافعى الشافى العى :

يا راكبا قف بالمحصب من منى واهتف بساكن خيفها والناهض

سحرا اذا فاض الحجيج الى منى فيضا كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

ومع هذا لا أعد الخروج عما يعتقده أكابر أهل السنة فى الصحابة رضى الله تعالى عنهم دينا وأرى حبهم فرضا على مبينا فقد أوجبه أيضا الشارع وقامت على ذلك البراهين السواطع . ومن الظرائف ماحكاه الامام عن بعض المذكرين قال : انه عليه الصلاة والسلام قال : « مثل أهل بيتى كسفينة نوح من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها هلك » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ونحن الآن فى بحر التكليف وتضربنا أمواج الشبهات والشهوات وراكب البحر يحتاج إلى أمرين . أحدهما السفينة الخالية عن العيوب ، والثانى الكواكب الطالعة النيرة ، فاذا ركب تلك السفينة ووضع بصره على تلك الكواكب كان رجاء السلامة غالبا ، فلذلك ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ﷺ ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة يرجون أن يفوزوا بالسلامة والسعادة فى الدنيا والآخرة انتهى ، والكثير من الناس فى حق كل من الآل والأصحاب فى طرفى التفريط والافراط وما بينهما هو الصراط المستقيم ، ثبتنا الله تعالى على ذلك الصراط *

وقال عبد الله بن القاسم : المعنى لا أسألكم عليه أجرا إلا أن يود بعضكم بعضا وتصلوا قراباتكم ، وأمر (فى) والاستثناء لا يخفى *

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أن المعنى لا أسألكم عليه أجرا إلا التقرب إلى الله تعالى بالعمل الصالح فالقربى بمعنى القرابة وليس المراد قرابة النسب ، قيل : ويجرى فى الاستثناء الاتصال والانقطاع ، واستظهر

الخفاجي أنه منقطع وأنه على نهج قوله : * ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * البيت، وأراه على القول قبله كذلك *

وقرأ زيد بن علي رضى الله تعالى عنهما (إلا مودة فى القربى) هذا ومن الشيعة من أورد الآية فى مقام الاستدلال على امامة على كرم الله تعالى وجهه قال : على كرم الله تعالى وجهه واجب المحبة وكل واجب المحبة واجب الطاعة وكل واجب الطاعة صاحب الامامة ينتج على رضى الله تعالى عنه صاحب الامامة وجعلوا الآية دليل الصغرى ، ولا يخفى ما فى كلامهم هذا من البحث ، أما أولا فلأن الاستدلال بالآية على الصغرى لايتم إلا على القول بأن معناها لاأسألكم عليه أجرا الا أن تودوا قرابتى وتحبوا أهل بيتى وقد ذهب الجمهور الى المعنى الأول، وقيل فى هذا المعنى : انه لايناسب شأن النبوة لما فيه من التهمة فان أكثر طلبة الدنيا يفعلون شيئا ويسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم وقراباتهم ، وأيضا فيه منافاة ما لقوله تعالى : (وما تسألهم عليه من أجر) وأما ثانيا فلأنا لانسلم أن كل واجب المحبة واجب الطاعة فقد ذكر ابن بابويه فى كتاب الاعتقادات أن الامامية أجمعوا على وجوب محبة العلوية مع أنه لا يجب طاعة كل منهم ، وأما ثالثا فلأنا لانسلم أن كل واجب الطاعة صاحب الامامة أى الزعامة الكبرى والا لكان كل نبي فى زمنه صاحب ذلك ونص (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا) يأبى ذلك ، وأما رابعا فلأن الآية تقتضى أن تكون الصغرى أهل البيت واجبو الطاعة ومتى كانت هذه صغرى قياسهم لا ينتج النتيجة التى ذكروها ولو سلمت جميع مقدماته بل ينتج أهل البيت صاحبو الامامة وهم لا يقولون بعمومه الى غير ذلك من الابحاث فتأمل ولا تغفل *

﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ أى يكتسب أى حسنة كانت ، والكلام تذييل ، وقيل المراد بالحسنة المودة فى قربى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وروي ذلك عن ابن عباس . والسدى ، وأن الآية نزلت فى أبى بكر رضى الله تعالى عنه لشدة محبته لأهل البيت ، وقصة فدك . والعوالى لا تأبى ذلك عند من له قلب سليم ، والكلام عليه تتميم ، ولعل الأول أولى ، وحب آل الرسول عليه الصلاة والسلام من أعظم الحسنات وتدخل فى الحسنة هنا دخولا أوليا ﴿ نَزِدْ لَهُ فِيهَا ﴾ أى فى الحسنة ﴿ حُسْناً ﴾ بمضاعفة الثواب عليها فانها يزاد بها حسن الحسنة ، فى للظرفية و(حسنا) مفعول به أو تمييز ، وقرأ زيد بن علي . وعبدالوارث عن أبى عمرو . وأحمد بن جبير عن الكسائى (يزد) بالياء أى يزد الله تعالى . وقرأ عبد الوارث عن أبى عمرو «حسنى» بغير تنوين وهو مصدر كبشرى أو صفة لموصوف مقدر أى صفة أوخصلة حسنى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ ساتر ذنوب عباده ﴿ شَكُورٌ ٢٣ ﴾ مجاز من أطاع منهم بتوفية الثواب والتفضل عليه بالزيادة ، وقال السدى : غفور لذنوب آل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم شكور لحسناتهم *

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ بل أيقولون ﴿ افْتَرَى ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ بدعوى النبوة أو القرآن ، والهمزة للانكار التوبيخى وبل للاضراب من غير ابطال وهو اضراب أطم من الاول فأطم فان اثبات ما هم عليه من الشرع وإن كان شرا وشركا أقرب من جعل الحق الابلج المعتضد بالبرهان النير من أوسطهم فضلا ودعة وعقلا افتراء ثم افتراء على الله عز وجل فكأنه قيل : أيتمالكون التفوه بنسبة مثله عليه

الصلاة والسلام الى الافتراء ثم الى الافتراء على الله عز وجل الذى هو أعظم الفرى وأفحشها ولا تحترق ألسنتهم *

وفى ذلك أتم دلالة على بعده صلى الله تعالى عليه وسلم من الافتراء كيف وقد أردف بقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ فان هذا الاسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله عليه الصلاة والسلام وأنه فى البعد مثل الشرك بالله سبحانه والدخول فى جملة المختوم على قلوبهم فكأنه قيل : فان يشأ الله سبحانه يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفترى عليه الكذب فانه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله تعالى الا من كان فى مثل حالهم وهو فى معنى فان يشأ يجعلك منهم لأنهم هم المفترون الذين شرعوا من الدين مالم يأذن به الله تعالى ، وما أحسن هذا التعريض بأنهم المفترون وأنهم فى نفس هذه المقالة عن افترائهم مفترون ، ونظير الآية فيما ذكر قول أمين نسب الى الخيانة : لعل الله تعالى خذلنى لعل الله تعالى أعمى قلبى وهو لا يريد اثبات الخذلان وعمى القلب وانما يريد استبعاد أن يخون مثله والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم ، فالكلام تعليل لانكار قولهم ، وأتى بإن مع أن عدم مشيئته تعالى مقطوع به قيل ارخاء للعنان ، وقيل : اشعار بعظمته تعالى وأنه سبحانه غنى عن العالمين ، ثم ذيل بقوله تعالى : ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ تأكيداً للمفهوم من السابق من أنه ليس من الافتراء فى شيء أى كيف يكون افتراء ومن عادته تعالى محو الباطل ومحقه واثبات الحق بوحيه أو بقضائه وما أتى به عليه الصلاة والسلام يزداد كل يوم قوة ودحوا فلو كان مفتريا كما يزعمون لكشف الله تعالى افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه *

والفعل المضارع للاستمرار . والكلام ابتدائى فيمح مرفوع لا مجزوم بالعطف على (يختم) وأسقطت الواو فى الرسم فى أغلب المصاحف تبعا لاسقاطها فى اللفظ لالتقاء الساكنين كما فى «سندع الزبانية . ويدع الانسان بالشر» وكان القياس اثباتها رسما لكن رسم المصحف لا يلزم جريه على القياس ، ويؤيد الاستئناف دون العطف على «يختم» اعادة الاسم الجليل ورفع (يحق) وهذا ماذكره جار الله فى الجملتين وبيان ارتباطهما بما قبلهما ، وقد دقق النظر فى ذلك وأتى بما استحسنه النظار حتى قال العلامة الطيبى : لو لم يكن فى كتابه إلا هذا لكفاه مزية وفضلا ، وجوز هو أيضا فى قوله تعالى : (ويمح) الخ أن يكون عدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالنصر أى يمحو الله تعالى باطلهم وما بهتوك به ويثبت الحق الذى أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذى لا مرد له ، وحينئذ يكون اعتراضا يؤكد ماسبق له الكلام من كونهم مبطلين فى هذه النسبة الى من هو أصدق الناس لهجة بأصدق حديث من اصدق متكلم ، وقال فى ارشاد العقل السليم فى الجملة الأولى : إنها استشهاد على بطلان ما قالوه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام لو افترى على الله تعالى كذبا لمنعه من ذلك قطعا ، وتحقيقه أن دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم انه سبحانه لا يشاء صدوره عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بل يشاء عدم صدوره عنه ومن ضرورياته منعه عنه قطعا فكأنه قيل : لو كان افتراء عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنك وان يشأ ذلك يختم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنى من معانيه ولم تنطق بحرف من حروفه وحيث لم يكن الأمر كذلك بل تواتر الوحى حينا فحينا تبين أنه من عند الله عز وجل ، وذكر فى الجملة الثانية ما ذكره جار الله من الوجهين ، ولا يخفى عليك مايرد على كلامه من المنع مع أن فيه جعل مفعول المشيئة غير مايدل عليه الجواب وهو ذلك المشار به الى عدم الصدور ، والمتبادر كون المفعول الختم على ماهو المعروف

فى نظائر هذا التركيب أى فان يشأ الله تعالى الختم على قلبك يختم ، وايهام كون القرآن ناشئا منه ﷺ لا منزلا عليه عليه الصلاة والسلام ، وقال السمرقندى : المعنى إن يشأ يختم على قلبك كما فعل بهم فهو تسلية له عليه الصلاة والسلام وتذكير لاحسانه اليه واكرامه له صلى الله تعالى عليه وسلم ليشكر ربه سبحانه ويترحم على من ختم على قلبه فاستحق غضب ربه ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر ، فالتفريع بالنظر الى المعنى المكنى عنه ، وحاصله انهم اجترؤا على هذا لأنهم مطبوعون على الضلال انتهى ، وفيه شمة مما ذكره الزمخشرى *

وعن قتادة . وجماعة يختم على قلبك ينسك القرآن ، والمراد على ماقال ابن عطية الرد على مقالة الكفار وبيان بطلانها كأنه قيل : وكيف يصح أن تكون مفتريا وأنت من الله تعالى بمرأى ومسمع وهو سبحانه قادر ولو شاء لختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمر افتراؤك ، وفيه أن اللفظ ضيق عن اداء هذا المعنى ، وذكر القشيرى أن المعنى فان يشأ الله تعالى يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم ويعاجلهم بالعذاب ، وعدل عن الغيبة الى الخطاب ومن الجمع الى الافراد ، وحاصله يختم على قلبك أيها القائل إنه عليه الصلاة والسلام افترى على الله تعالى كذبا ، وفيه من البعد ما فيه مع أن الكفار مختوم على قلوبهم ، وقال مجاهد . ومقاتل : المعنى فان يشأ يربط على قلبك بالصبر على اذاهم حتى لا يشق عليك قولهم انك مفتر ، ولا مانع عليه من عطف (يمح) على جواب الشرط بل هو الظاهر فيكون سقوط الواو للجازم ، و(يحق) حينئذ مستأنف أى وان يشأ يمح باطلهم عاجلا لكنه سبحانه لم يفعل لحكمة أو مطلقا وقد فعل جل وعلا بالآخرة وأظهر دينه ، وقيل : لامانع من العطف على بعض الأقوال السابقة أيضا أى إن يشأ يمح افتراءك لوافتريت وهو كما ترى ، وكذا جوز كون الجملة حالية وإن أحوج ذلك الى تقدير المبتدأ وفيه تكلف مستغنى عنه ، وربما يقال: إن جملة (فان يشأ الله يختم) من تتمة قولهم مفرعا على (افترى) كأنه قيل: افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبه بسبب افترائه فلا يعقل شيئا أو كأنه قيل : افتريت على الله فان يشأ يختم على قلبك جزاء ذلك الا ان نكتة اختيار الغيبة فى احدى الجملتين والخطاب فى الاخرى غير ظاهرة ، وكونها الاشارة الى أن من افترى يحق أن يواجه بالجزاء ليس مما يهش له السامع فيما أرى ، ولعل الأولى أن يكون (فان يشأ) الخ مفرعا على كلامهم خارجا مخرج التهكم بهم ، ولا بأس حينئذ بعطف يمح على جواب الشرط ويراد بالباطل ما هو باطل بزعمهم كأنه قيل : أم يقولون افترى على الله فاذن إن يشأ الله يختم على قلبك ويمح ما يزعمون أنه باطل ، وهذا كما تقول لمن أخبرك أن زيدا افترى عليك وأنت تعلم أنه لم يفتر وانما ادى عنك ما أمرته به فاذن نؤدبه وننتقم منه ونمحو افتراءه تقصد بذلك التهكم بالقائل فتأمل ، فهذه الآية كما قال الخفاجى من أصعب مامر فى كلامه تعالى العظيم وفقنا الله تعالى وإياكم لفهم معانيه والوقوف على سره وخافيه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٢٤﴾ فيعلم سبحانه ما فى صدرك وصدورهم فيجرى جل وعلا الأمر على حسب ذلك *

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه والقبول يعدى بعن لتضمنه معنى الابانة وبمن لتضمنه معنى الاخذ كما فى قوله تعالى : (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم) أى تؤخذ ، وقيل : القبول مضمن هنا معنى التجاوز والكلام على تقدير مضاف أى يقبل التوبة متجاوزا عن ذنوب عباده وهو تكلف *

والتوبة أن يرجع عن القبيح والاخلال بالواجب فى الحال ويندم على مامضى ويعزم على تركه فى المستقبل

وزادوا التفصى منه بأى وجه أمكن إن كان الذنب لعبد فيه حق وذلك بالرد اليه أو إلى وكيله أو الاستحلال منه إن كان حيا وبالرد الى ورثته إن كان ميتا ووجدوا ثم القاضى لو كان أمينا وهو كالا كسير ومن رأى الا كسير؟ فإن لم يقدر على شيء من ذلك يتصدق عنه والا يدع له ويستغفر *

وفي الكشف التفصى داخل فى الرجوع اذ لا يصح الرجوع عنه وهو ملتبس به بعد، واختير أن حقيقتها الرجوع وأما الندم والعزم ليكون الرجوع اقلاعا ويتحقق انه التوبة التى ندبنا اليها وهو موافق لما فى الاحياء من أنها اسم لتلك الحالة بالحقيقة والباقى شروط التحقق، ويشترط أيضا أن يكون الباعث على الرجوع مع الندم والعزم دينيا فلو رجع لمانع آخر من ضعف بدن أو غرم لذلك لم يكن من التوبة فى شيء، وأشار الزمخشرى الى ذلك بكون الرجوع لأن المرجوع عنه قبيح واخلال بالواجب وخرج عنه ما لو رجع طلبا للثناء أو رياء أو سمعة لأن قبح القبيح معناه كونه مقتضيا للعقاب آجلا وللذم عاجلا فلو رجع لماسبق لم يكن رجوعا لذلك *

وروى جابر أن اعرابيا دخل مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال: اللهم انى أستغفرك وأتوب اليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له على كرم الله وجهه: ان سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك تحتاج الى التوبة فقال يا أمير المؤمنين: ما التوبة؟ قال: اسم يقع على ستة معان على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الاعادة ورد المظالم واذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية واذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته، وهذا يحتمل أن تكون التوبة مجموع هذه الامور فالمراد اكمل أفرادها، ويحتمل أنها اسم لكل واحد منها والأول أظهر. واختلف فى التوبة عن بعض المعاصى مع الاصرار على البعض هل هى صحيحة أم لا والذى عليه الاصحاب أنها صحيحة لظواهر الآيات والأحاديث وصدق التعريف عليها، وأكثر المعتزلة على أنها غير صحيحة قال أبو هاشم منهم: لو تاب عن القبيح لكونه قبيحا وجب أن يتوب عن كل القبائح وإن تاب عنه لا لمجرد قبحه بل لغرض آخر لم تصح توبته. وتعقب بأنه يجوز أن يكون الباعث شدة القبح أو أمرا دينيا آخر وأيضا يجرى نظير هذا فى فعل الحسن بل يقال: لو فعل الحسن لكونه حسنا وجب عليه أن يفعل كل حسن وإن فعله لغرض آخر لم يقبل وفيه بحث *

واستدل المعتزلة بالآية على أنه يجب عليه تعالى قبول التوبة واستدل أهل السنة بها على عدم الوجوب لمكان التمدح ولا تمدح بالواجب، وفيه أيضا بحث والانفع فى هذا المقام أدلة نفى الوجوب مطلقا عليه عز وجل *

﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ صغائرها وكبائرها لمن يشاء من غير اشتراط شيء كالتوبة للكبائر واجتنابها للصغائر *

وقال الطيبى: المعنى من شأنه تعالى شأنه قبول التوبة عن عباده اذا تابوا والعفو عن سيآتهم بمحض رحمته او بشفاعة شافع، وقال المعتزلة: أى يعفو عن الكبائر اذا تيب عنها وعن الصغائر اذا اجتنبت الكبائر فالعفو عن السيئات عليه أعم من قبول التوبة لشموله الصغائر اذا اجتنبت الكبائر وهو تعميم بعد تخصيص، والظاهر مع أهل السنة اذلا دلالة فى النظم الجليل على تخصيص السيئات نعم المراد بها غير الشرك بالاجماع *

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ٢٥﴾ بتاء الخطاب عند حفص والاخوين وعلقمة وعبدالله وبياء الغيبة عند الجمهور وعلى الأول ففيه التفات وما موصولة والعائد محذوف أى يعلم الذى تفعلونه كائنا ما كان من خير وشر فيجازى بالثواب والعقاب أو يتجاوز سبحانه بالعفو حسبما تقتضيه مشيئته جل وعلا المبنية على الحكم والمصالح *

وقيل: يعلم ذلك فيجازي التائب ويتجاوز عن غيره اذا شاء سبحانه والاول أظهر. وفي الكشاف يعلم سبحانه ذلك فيثيب على الحسنات ويعاقب على السيئات. وفي الكشف بعد نقله هو أي قوله تعالى. (ويعلم) الخ تذييل للكلام السابق يؤكد ماذكره من القبول والعفو لأنه تعالى إذا علم العملين والعاملين جازى كلا بما فعل فاولى أن يجازى هؤلاء المحسنين بافعالهم، ثم فيه لطف وحث على لزوم الحذر منه تعالى والاخلاص له سبحانه في امحاض التوبة، ونحن أيضا لاننكر أنه تذييل فيه تأكيد كما لايخفى ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ عطف على (يقبل التوبة) فالفاعل ضميره تعالى و(الذين) مفعول بدون تقدير شيء بناء على أن (يستجيب) يتعدى بنفسه كما يتعدى باللام نحو شكرته وشكرت له أو بتقدير اللام على أنه من باب الحذف والايصال والاصل يستجيب للذين آمنوا بناء على أنه يتعدى الداعي باللام وللدعاء بنفسه ونحو هذا قوله:

وداع دعا يامن يجيب الى الندى … فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وأجاب واستجاب بمعنى أي ويجيب الله تعالى الذين آمنوا اذا دعوا وحاصله يجيب دعاءهم، وجوز بعضهم أن يكون الكلام بتقدير هذا المضاف قيل: وهو أولى من القول بايصال الفعل بحذف الصلة لأن حذف المضاف اذا لم يلبس منقاس وذاك مسموع، ويجوز أن يكون المراد يثيبهم على طاعتهم فان الطاعة لكونها طلب ما يترتب عليها من الثواب شابهت الدعاء وشابهت الاثابة عليها الاجابة، ومن هذا يسمى الثناء دعاء لأنه يترتب عليه مايترتب عليه، وسئل سفيان عن قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث: «أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي لا إله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» فقال: هذا كقوله تعالى في الحديث القدسي: «من شغله ذكري عن مسئلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» ألا ترى قول أمية بن الصلت لابن جدعان حين أتاه يبغي نائله:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني … ثناؤك إن شيمتك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يوما … كفاه عن تعرضك الثناء

وجعلوا من ذلك قوله ﷺ «أفضل الدعاء الحمد لله» على معنى أن الحمد يدل على الدعاء والسؤال بطريق الكناية والتعريض، وقيل: هو على اطلاق الدعاء على الحمد لشبهه به في طلب مايترتب عليه، وجوز أن يراد بالاجابة معناها الحقيقي والاثابة بناء على القول بصحة الجمع بين الحقيقة والمجاز أي يجيب دعاءهم ويثيبهم على الطاعة ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ على ماسألوا واستحقوا ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ الواسع جل شأنه، وقيل: إن فاعل (ويستجيب الذين آمنوا) واستظهره أبو حيان، والجملة عطف على مجموع قوله تعالى: (هو الذين يقبل التوبة) الخ أي ينقادون لله تعالى ويجيبونه سبحانه إذا دعاهم، وهو المروي عن ابن جبير، وعن ابراهيم بن أدهم أنه قيل له: مالنا ندعوا فلا نجاب؟ فقال: لأنه سبحانه دعاكم فلم تجيبوه ثم قرأ (والله يدعو إلى دار السلام. ويستجيب الذين آمنوا) وهذا يؤكد هذا الوجه لأنه قدس سره ذكر أن الله تعالى دعاكم بقوله عز وجل: (والله يدعو إلى دار السلام) وذكر أن المؤمن من استجاب دعوة ربه تعالى بقوله: (ويستجيب الذين آمنوا) فمن لايجيب دعاءه تعالى لايجيب تعالى ايضا دعاءه، وكون الفاعل ضميره تعالى قد روى مايقتضيه عن ابن عباس. ومعاذ بن جبل (ويزيدهم) عليه عطف على ماقبله وعلى الوجه الآخر عطف على مقدر أي فيوفيهم اجورهم ويزيدهم عليها على اسلوب (وقالا الحمد لله الذي فضلنا) وقوله سبحانه. (من

فضله متعلق بيزيدهم مطلقا، وجوز تعليقه بالفعلين على التنازع فان الاجابة والثواب فضل منه تعالى كالزيادة *
وأيا ماكان فالظاهر عموم الذين آمنوا وروى عن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ حين قدم المدينة واستحكم الاسلام قالت الانصار فيما بينها: نأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام ونقول له: إن تعرك أمور فهذه اموالنا تحكم فيها فنزلت قل (لا أسئلكم عليه أجرا الا المودة فى القربى) فقرأها عليهم، وقال تودون قرابتى من بعدى فخرجوا مسلمين فقال المنافقون: إن هذا لشيء افتراه فى مجلسه أراد بذلك عز قرابته من بعده فنزلت (أم يقولون افترى على الله كذبا) فأرسل اليهم فتلاها عليهم فبكوا واندموا فأنزل الله تعالى (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) فأرسل ﷺ اليهم فبشرهم وقال: (ويستجيب الذين آمنوا) وهم الذين سلموا لقوله ذكر ذلك الطبرسى، وذكر قريبا منه فى الدر المنثور لكن قال: أخرجه الطبرانى فى الاوسط. وابن مردويه عن ابن جبير بسند ضعيف، والذى يغلب على الظن الوضع ﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ٢٦ ﴾ بدل ما للمؤمنين من الاجابة والتفضل *
﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ ﴾ أى لتكبروا فيها بطرا وتجاوزوا الحد الذى يليق بالعبيد أو لظلم بعضهم بعضا فان الغنى مبطرة مأشرة، وكفى بحال قارون عبرة، وفى الحديث «أخوف ما أخاف على أمتى زهرة الدنيا وكثرتها» ولبعض العرب:

وقد جعل الوسمى ينبت بيننا ... وبين بنى رومان نبعا وشوحطا

وأصل البغى طلب أكثر مما يجب بأن يتجاوز فى القدر والكمية أو فى الوصف والكيفية ﴿ وَلَٰكِنْ يُنَزِّلُ ﴾ بالتشديد، وقرأ ابن كثير. وأبو عمرو بالتخفيف من الانزال ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ بتقدير ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ وهو ما اقتضته حكمته جل شأنه ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ٢٧ ﴾ محيط بخفيات أمورهم وجلاياها فيقدر لكل واحد منهم فى كل وقت من أوقاتهم ما يليق بشأنه فيفقر ويغنى ويمنع ويعطى ويقبض ويبسط حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ولو أغناهم جميعا لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا. واستشكلت الآية بأن الغنى قد يكون سبب البغى فكذلك الفقر قد يكون فلا يظهر الشرطية، وأجاب جار الله بأنه لا شبهة أن البغى مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب وكلاهما سبب ظاهر للاقدام على البغى والاحجام عنه فلو عم البسط لغلب البغى حتى ينقلب الامر إلى عكس ما عليه الآن وأراد والله تعالى أعلم أن نظام العالم على ما هو عليه يستمر وان كان قد يصدر من الغنى فى بعض الاحيان بغى ومن الفقير كذلك لكن فى أحدهما ما يدفع الآخر أمالو أفقرهم كلهم لكان الضعف والهلاك لازما ولو بسط عليهم كلهم مع أن الحاجة طبيعية لكان من البغى ما لا يقادر قدره لأن نظام العالم بالفقر أكثر منه بالغنى، وهذا أمر ظاهر مكشوف، ثم ان الفقر الكلى لا يتصور معه البغى للضعف العام ولأنه لا يجد حاجته عند غيره ليظلمه، وأما الغنى الكلى فعنده البغى التام، وأما الذى عليه سنة الله عز وجل فهو الذى جمع الامرين مشتملا على خوف للغنى من الفقراء يزعه عن الظلم وخوف للفقير من الاغنياء أكثر منه يدعوه إلى التعاون ليفوز بمبتغاه ويزعه عن البغى، ثم قد يتفق بغى من هذا أو ذاك كذا قرره صاحب الكشف ثم قال: وهذا جواب حسن لا تكلف فيه وهو اشارة إلى رد العلامة الطيبى فانه زعم أنه جواب متكلف وان السؤال قوى، وذهب هو الى أن المراد (بعباده) من خصهم الله تعالى بالكرامة وجعلهم من أوليائه ثم قال: وينصره التذييل بقوله تعالى: (إنه بعباده خبير بصير)

ووضع المظهر موضع المضمر أي أنه تعالى خبير بأحوال عباده المكرمين بصير بما يصلحهم وما يرديهم، واليه ينظر ماورد عنه ﷺ إذا أحب الله تعالى عبدا حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الماء، ويشده من عضده قول خباب بن الارت نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها فنزلت (ولو بسط) الآية وقول عمرو ابن حريث طلب قوم من أهل الصفة من الرسول ﷺ أن يغنيهم الله تعالى ويبسط لهم الاموال والارزاق فنزلت وعليه تفسير محي السنة انتهى. ولا يخفى أن الانسب بحال المكرمين المصطفين من عباده تعالى أن لايبطرهم الغنى لصفاء بواطنهم وقوة توجههم إلى حظائر القدس ومزيد تعلق قلوبهم بمحبوبهم ووقوفهم على حقائق الاشياء وكمال علمهم بمنتهى زخارف الحياة الدنيا، وأبناء الدنيا لو فكروا في ذلك حق التفكر لهان أمرهم وقل شغفهم كما قيل:

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسبيه لم يسبه

فلعل الأولى ماتقدم أو يقال إن هذا في بعض العباد المؤمنين فتأمل ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ أي المطر الذي يغيثهم من الجدب ولذلك خص بالنافع منه فلا يقال غيث لكل مطر، وقرأ الجمهور (ينزل) مخففا.

﴿ مِنْ بَعْدِ مَاقَنَطُوا ﴾ يئسوا منه، وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضا لتذكير كمال النعمة، وقرأ الاعمش. وابن وثاب (قنطوا) بكسر النون ﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ أي منافع الغيث وآثاره في كل شيء من السهل والجبل والنبات والحيوان أو رحمته الواسعة المنتظمة لماذكر انتظاما أوليا، وقيل: الرحمة هنا ظهور الشمس لأنه إذا دام المطر سئم فتجئ الشمس بعده عظيمة الموقع ذكره المهدوي وليس بشئ، ومن البعيد جدا ماقاله السدي من أن الرحمة هنا الغيث نفسه عدد النعمة نفسها بلفظين، (وأياما كان فضمير) رحمته لله عز وجل، وجوز على الأول كونه للغيث.

﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ ﴾ الذي يتولى عباده بالاحسان ونشر الرحمة ﴿ الْحَمِيدُ ٢٨ ﴾ المستحق للحمد على ذلك لا غيره سبحانه

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ على ماهما عليه من تعاجيب الصنائع فانها بذاتها وصفاتها تدل على شؤنه تعالى العظيمة، ومن له أدنى انصاف وشعور يجزم باستحالة صدورها من الطبيعة العديمة الشعور.

﴿ وَمَابَثَّ فِيهِمَا ﴾ عطف على (السموات) أي ومن آياته خلق مابث أو عطف على (خلق) أي ومن آياته مابث. و(ما) تحتمل الموصولية والمصدرية والموصولية أظهر ولاحاجة عليه إلى تقدير مضاف أي خلق الذي بث خلافا لأبي حيان ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أي حيوان له دبيب وحركة، وظاهر الآية وجود ذلك في السموات وفي الارض وبه قال مجاهد وفسر الدابة بالناس والملائكة، ويجوز أن يكون للملائكة مشى مع الطيران، واعترض ذلك ابن المنير بأن اطلاق الدابة على الاناسي بعيد في عرف اللغة فكيف بالملائكة وادعى أن الاصح كون الدواب في الارض لاغير؛ ومافي أحد الشيئين يصدق أنه فيهما في الجملة، فالآية على أسلوب (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وذلك لقوله تعالى في البقرة: (وبث فيها من كل دابة) فانه يدل على اختصاص الدواب بالارض لأن مقام الاطناب يقتضي ذكره لو كان لا للعمل بمفهوم اللقب الذي لايقول به الجمهور والجواب أن التي في البقرة لما كانت كلاما مع الغبي والفهم والمسترشد والمعاند جيء فيه بما هو معروف عند الكل وهو بث الدواب في الارض وأما ههنا فجيء به مدمجا مختصرا لما تكرر في القرآن ولاسيما في هذه السورة من كمال قدرته على كل ممكن فقيل: (ومن

آياته خاق السموات والارض ومابث فيهما) مؤثرا على لفظ الخلق ليدل على التكثير الدال على كمال القدرة وبين بقوله تعالى: (من دابة) تعميما وتغليبا لغير ذوى العلم فى السماوى والارضى تحقيقا للمخلوقية فقد ثبت فى صحاح الاحاديث مايدل على وجود الدواب فى السماء من مراكب أهل الجنة وغيرها، وكذلك مايدل على وجود ملائكة كالأوعال بل لايبعد أن يكون فى كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور شتى وأحوال مختلفة لانعلمها ولم يذكر فى الاخبار شئ منها فقد قال تعالى: (ويخلق مالاتعلمون) وأهل الارصاد اليوم يتراءى لهم بواسطة نظاراتهم مخلوقات فى جرم القمر لكنهم لم يحققوا أمرها لنقص مافى الآلات على مايدعون، ويحتمل أن يكون فيما عدا القمر ونفى ذلك ليس من المعلوم من الدين بالضرورة ليضر القول به، وقيل: المراد بالسموات جهات العلو المسامتة للاقاليم مثلا وفى جو كل قليم بل كل بلدة بل كل قطعة من الارض حيوانات لايحصى كثرتها الا الله تعالى بعضها يحس بها بلا واسطة آلة وبعضها بواسطتها، وقيل: المراد بها السحب وفيها من الحيوانات مافيها وكل ذلك على مافيه لايحتاج اليه، وكذا لايحتاج إلى ماذهب اليه كثير من أن المراد بالدابة الحى مجازا إما من استعمال المقيد فى المطلق أو اطلاق الشيء على لازمه أو المسبب على سببه لأن الحياة سبب للدبيب وإن لم تكن الدابة سببا للحى فيكون مجازا مرسلا تبعيا لأن الاحتياج إلى ذلك عدول عن الظاهر ولا يعدل عنه إلا إذا دل دليل على خلافه وأين ذلك الدليل؟ بل هو قائم على وجود الدواب فى السماء كما هى موجودة فى الارض *

﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ أى حشرهم بعد البعث للمحاسبة ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ ذلك ﴿قَدِيرٌ ٢٩﴾ تام القدرة كاملها، و(إذا) متعلقة بما قبلها لابقدير لأن المقيد بالمشيئة جمعه تعالى لاقدرته سبحانه وهى كما تدخل على الماضى تدخل على المضارع، ومنه قوله:

وإذا ماأشاء أبعث منها آخر الليل ناشطا مذعورا

وقول صاحب الكشف: لقائل أن يفرق بين إذا وإذا ما الظاهر أنه ليس فى محله وقد نص الخفاجى على عدم الفرق وجعل القول به توهما، وكذا نص على أنها تدخل على الفعلين ظرفية كانت أو شرطية، وقيد ذلك الطيبى بما اذا كانت بمعنى الوقت كما هنا، وضمير (جمعهم) قيل للسموات والأرض وما فيهما على التغليب وهو كما ترى، وقيل: للدواب المفهوم مما تقدم وضمير العقلاء للتغليب المناسب لكون الجمع للمحاسبة، وقيل: للناس المعلوم من ذلك ولعله الأولى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ أى مصيبة كانت من مصائب الدنيا كالمرض وسائر النكبات ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أى فبسبب معاصيكم التى اكتسبتموها، و(ما) اسم موصول مبتدا والمبتدا إذا كان موصولا صلته جملة فعلية تدخل على خبره الفاء كثيرا لما فيه من معنى الشرط لاشعاره بابتناء الخبر عليه فلذا جىء بالفاء هنا *

وقرأ نافع. وابن عامر. وأبو جعفر فى رواية. وشيبة (بما) بغير فاء لأنها ليست بلازمة وإيقاع المبتدا موصولا يكفى فى الاشعار المذكور، وحكى عن ابن مالك أنه قال: اختلاف القراءتين دل على أن ماموصولة فجىء تارة بالفاء فى خبرها وأخرى لم يؤت بها حطا للمشبه عن المشبه به، وجوز كون ماشرطية واستظهره أبو حيان فى القراءة بالفاء وجعلها موصولة فى القراءة الأخرى بناء على أن حذف الفاء من جواب الشرط مخصوص بالشعر عند سيبويه نحو * من يفعل الحسنات الله يشكرها * والأخفش. وبعض نحاة بغداد أجازوا ذلك مطلقا، ومنه

قوله تعالى : (وإن أطعتموهم انكم لمشركون) ٠

وقال أبو البقاء : حذف الفاء من الجواب حسن إذا كان الشرط بلفظ الماضي ويعلم منه مزيد حسن حذفها هنا على جعل ما موصولة ﴿ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ٣٠ ﴾ أي من الذنوب فلا يعاقب عليها بمصيبة عاجلا قيل وآجلا٠ وجوز كون المراد بالكثير الكثير من الناس والظاهر الأول وهو الذي تشهد له الأخبار. روى الترمذي عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : «لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله تعالى عنه أكثر وقرأ (وما أصابكم من مصيبة)» ٠

وأخرج ابن المنذر . وجماعة عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية (وما أصابكم) الخ ، قال عليه الصلاة والسلام والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عز وجل عنه أكثر ، وأخرج ابن سعد عن أبي مليكة أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما كانت تصدع فتضع يدها على رأسها وتقول بذنبي وما يغفره الله تعالى أكثر ، وروى على كف شريح قرحة فقيل : بم هذا؟ فقال : بما كسبت يدي ، وسئل عمران بن حصين عن مرضه فقال : إن أحبه إلي أحبه الى الله تعالى وهذا بما كسبت يدي ، والآية مخصوصة باصحاب الذنوب من المسلمين وغيرهم فان من لا ذنب له كالأنبياء عليهم السلام قد تصيبهم مصائب ، ففي الحديث «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» ويكون ذلك لرفع درجاتهم أو لحكم أخرى خفيت علينا ، وأما الأطفال والمجانين فقيل غير داخلين في الخطاب لأنه للمكلفين وبفرض دخولهم أخرجهم التخصيص باصحاب الذنوب فما يصيبهم من المصائب فهو لحكم خفية ، وقيل : في مصائب الطفل رفع درجته ودرجة أبويه أو من يشفق عليه بحسن الصبر ثم ان المصائب قد تكون عقوبة على الذنب وجزاء عليه بحيث لا يعاقب عليه يوم القيامة ، ويدل على ذلك مارواه أحمد في مسنده . والحكيم الترمذي . وجماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : ألا أخبركم بافضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) وسأفسرها لك يا علي ما أصابك من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله تعالى أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا الله تعالى عنه في الدنيا فالله سبحانه أكرم من أن يعود بعد عفوه، وزعم بعضهم أنها لا تكون جزاء لأن الدنيا دار تكليف فلو حصل الجزاء فيها لكانت دار جزاء وتكليف معا وهو محال فما هي الا امتحانات ، وخبر علي كرم الله وجهه يرده وكذا ما صح من ان الحدود أي غير حد قاطع الطريق مكفرات وأي محالية في كون الدنيا دار تكليف ويقع فيها لبعض الاشخاص ما يكون جزاء له على ذنبه أي مكفراً له ٠

وعن الحسن تفسير المصيبة بالحد قال : المعنى ما أصابكم من حد من حدود الله تعالى فانما هو بكسب أيديكم وارتكابكم ما يوجبه ويعفو الله تعالى عن كثير فيستره على العبد حتى لا يحد عليه، وهو مما تأباه الاخبار ومع هذا ليس بشيء. ولعله لم يصح عن الحسن ٠

وفي الانتصاف ان هذه الآية تبلس عندها القدرية ولا يمكنهم ترويج حيلة في صرفها عن مقتضى نصها فانها حملوا قوله تعالى٠ (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) على التائب وهو غير ممكن لهم ههنا فانه قد أثبت التبعيض

فى العفو ومحال عندهم أن يكون العفو هنا مقيدا بالتوبة فانه يلزم تبعيضها أيضا وهى عندهم لا تتبعض كما نقل الامام عن أبى هاشم وهو رأس الاعتزال والذى تولى كبره منهم فلا محل لها الا الحق الذى لا مرية فيه وهو رد العفو الى مشيئة الله تعالى غير موقوف على التوبة. وأجيب عنهم بأن لهم أن يقولوا: المراد ويعفو عن كثير فلا يعاقب عليه فى الدنيا بل يؤخر عقوبته فى الآخرة لمن لم يتب. وأنت تعلم مادل خبر على كرم الله تعالى وجهه *

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى بجاعلين الله سبحانه وتعالى عاجزا عن أن يصيبكم بالمصائب بما كسبت أيديكم وإن هربتم فى أقطار الارض كل مهرب، وقيل: المراد انكم لا تعجزون من فى الأرض من جنوده تعالى فكيف من فى السماء ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ من متول بالرحمة يرحمكم إذا أصابتكم المصائب وقيل يحميكم عنها ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ٣١ ﴾ يدفعها عنكم ، والجملة كالتقرير لقوله تعالى: (ويعفو عن كثير) أى ان الله تعالى يعفو عن كثير من المصائب اذ لا قدرة لكم أن تعجزوه سبحانه فتفوتوا ماقضى عليكم منها ولا لكم أيضا من متول بالرحمة غيره عز وجل ليرحمكم اذا أصابتكم ولا ناصر سواه لينصركم منها ولهذا جاء عن على كرم الله تعالى وجهه أن هذه أرجى آية فى القرآن للمؤمنين ، ويقوى أمر الرجاء على ماقيل: أن معنى (ما أنتم) الخ ما أنتم بمعجزين الله تعالى فى دفع مصائبكم أى أنه سبحانه قادر على ذلك ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ ﴾ أى السفن الجوارى أى الجارية فهى صفة لموصوف محذوف لقرينة قوله تعالى: ﴿ فِي الْبَحْرِ ﴾ وبذلك حسن الحذف والا فهى صفة غير مختصة والقياس فيها أن لا يحذف الموصوف وتقوم مقامه، وجوز أبو حيان أن يقال: إنها صفة غالبة كالابطح وهى يجوز فيها أن تلى العوامل بغير ذكر الموصوف، و(فى البحر) متعلق بالجوارى وقوله تعالى: ﴿ كَالْأَعْلَامِ ٣٢ ﴾ فى موضع الحال *

وجوز أن يكون الأول أيضا كذلك ، والاعلام جمع علم وهو الجبل وأصله الاثر الذى يعلم به الشئ كعلم الطريق وعلم الجيش وسمى الجبل علما لذلك ولا اختصاص له بالجبل الذى عليه النار للاهتداء بل اذا أريد ذلك قيد كما فى قول الخنساء :

وإن صخرا لتأتم الهداة به   كأنه علم فى رأسه نار

وفيه مبالغة لطيفة ، وحكى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لما سمعه : قاتلها الله تعالى مارضيت بتشبيهه بالجبل حتى جعلت على رأسه نارا. وقرأ نافع وأبو عمرو (الجوارى) بياء فى الوصل دون الوقف *

وقرأ ابن كثير بها فيهما والباقون بالحذف فيهما والاثبات على الاصل والحذف للتخفيف ، وعلى كل فالاعراب تقديرى وسمع من بعض العرب الاعراب على الراء ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ ﴾ التى تجرى بها ويعدم سبب تموجها وهو تكاثف الهواء الذى كان فى المحل الذى جرت اليه وتراكم بعضه على بعض وسبب ذلك التكاثف إما انخفاض درجة حرارة الهواء فيقل تمدده ويتكاثف ويترك أكثر المحل الذى كان مشغولا به خاليا وإما تجمع فجائى يحصل فى الابخرة المنتشرة فى الهواء فيخلو محلها، وهذا على ماقيل أقوى الاسباب فاذا وجد الهواء أمامه فراغا بسبب ذلك جرى بقوة ليشغله فتحدث الريح وتستمر حتى تملأ المحل وماذكر فى سبب التموج هو الذى ذكره فلاسفة العصر . وأما المتقدمون فذكروا أشياء أخر، ولعل هناك أسبابا غير ذلك كله لا يعلمها الا الله عز وجل ، والقول بالاسباب تحريكا واسكانا لا ينافى اسناد الحوادث الى الفاعل المختار جل جلاله وعم نواله *

وقرأ نافع (الرياح) جمعا ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ﴾ فيصرن ثوابت على ظهر البحر أى غير جاريات لا غير متحركات أصلا ، وفسر بعضهم (يظللن) ببيقين فيكون (رواكد) حالا والأول أولى *

وقرأ قتادة (فيظللن) بكسر اللام والقياس الفتح لأن الماضى مكسور العين فالكسر فى المضارع شاذ ، وقال الزمخشرى : هو من ظل يظل ويظل بالفتح والكسر نحو ضل بالضاد يضل ويضل ، وتعقبه أبو حيان بأنه ليس كما ذكر لأن يضل بالفتح من ضللت بالكسر ويضل بالكسر من ضللت بالفتح وكلاهما مقيس ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ الذى ذكر من السفن المسخرة فى البحر تحت أمره سبحانه وحسب مشيئته تعالى : ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمة كثيرة على عظمة شؤنه عز وجل ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣٣ ﴾ لكل من حبس نفسه عن التوجه الى ما لا ينبغى ووكل همته بالنظر فى آيات الله تعالى والتفكر فى آلائه سبحانه فالصبر هنا حبس مخصوص والتفكر فى نعمه تعالى شكر *

ويجوز أن يكون قد كنى بهذين الوصفين عن المؤمن الكامل لأن الايمان نصفه صبر ونصفه شكر *

وذكر الامام أن المؤمن لا يخلو من أن يكون فى السراء والضراء فان كان فى الضراء كان من الصابرين وان كان فى السراء كان من الشاكرين ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ ﴾ عطف على (يسكن) أى أو يهلكهن بارسال الريح العاصفة المغرقة ، والمراد على ما قال غير واحد اهلاك أهلها إما بتقدير مضاف أو بالتجوز باطلاق المحل على حاله أو بطريق الكناية لأنه يلزم من اهلاكها اهلاك من فيها والقرينة على ارادة ذلك قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ وأصله أو يرسلها أى الريح فيوبقهن لأنه قسيم يسكن فاقتصر فيه على المقصود من ارسالها عاصفة وهو إما اهلاكهم أو انجاؤهم المراد من قوله تعالى : ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ٣٤ ﴾ اذ المعنى أو يرسلها فيوبق ناسا بذنوبهم وينج ناسا على طريق العفو عنهم وبهذا ظهر وجه جزم (يعف) لأنه بمعنى ينج معطوف على يوبق ، ويعلم وجه عطفه بالواو لأنه مندرج فى القسيم وهو ارسالها عاصفة ، وعلى هذا التفسير تكون الآية متضمنة لاسكانها ولارسالها عاصفة مع الاهلاك والانجاء وارسالها باعتدال معلوم من قوله سبحانه الجوارى فانها المطلوب الاصلى منها *

وقال بعض الاجلة: التحقيق أن (يعف) عطف على قوله تعالى : (يسكن الريح) الى قوله سبحانه: (بما كسبوا) ولذا عطف بالواو لا بأو والمعنى إن يشأ يعاقبهم بالاسكان أو الاعصاف وإن يشأ يعف عن كثير *

وجوز بعضهم حمل (يوبقهن) على ظاهره لأن السفن من جملة أموالهم التى هلاكها والخسارة فيها بذنوبهم أيضا وجعل الآية مثل قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة) * الخ

وقرأ الاعمش (يعفو) بالواو الساكنة آخره على عطفه على مجموع الشرط والجواب دون الجواب وحده كما فى قراءة الجزم ، وعن أهل المدينة أنهم قرؤا (يعفو) بالواو المفتوحة على أنه منصوب بأن مضمرة وجوبا بعد الواو والعطف على هذه القراءة على مصدر متصيد من الكلام السابق كأنه قيل: يقع وهو من العطف على المعنى وهذا مذهب البصريين فى مثل ذلك وتسمى هذه الواو واو الصرف لصرفها عن عطف الفعل المجزوم قبلها الى عطف مصدر على مصدر ، ومذهب الكوفيين ان الواو بمعنى أن المصدرية ناصبة للمضارع بنفسها *

واختار الرضى أن الواو اما واو الحال والمصدر بعدها مبتدأ خبره مقدر والجملة حالية أو واو المعية وينصب بعدها الفعل لقصد الدلالة على معية الافعال كما أن الواو فى المفعول معه دالة على مصاحبة الاسماء فعدل به عن

الظاهر ليكون نصا فى معنى الجمعية، والمشهور اليوم على ألسنة المعربين مذهب البصريين وعليه خرج أبو حيان النصب فى هذه القراءة وكذا خرج غير واحد ومنهم الزجاج النصب فى قوله تعالى :

﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ٣٥ ﴾ أى من مهرب ومخلص من العذاب على ذلك ، وجعلوا الجزاء بمنزلة الانشاء كالاستفهام فكأنه تقدم أحد الأمور الستة ولم يرتض ذلك الزمخشرى وقال : فيه نظر لما أورده سيبويه فى الكتاب قال: واعلم أن النصب بالفاء والواو فى قوله : إن تأتنى آتك وأعطيك ضعيف وهو نحو من قوله : ٭ وألحق بالحجاز فأستريحا ٭ فهذا تجوز ولايحد الكلام ولاوجهه إلا أنه فى الجزاء صار أقوى قليلا لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أن يكون من الاول فعل فلما ضارع الذى لايوجبه كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعف ، ولايجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحد الكلام ولاوجهه ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة انتهى ، وخرج هو النصب فى (يعلم) على العطف على علة مقدرة قال: أى لينتقم منهم ويعلم الذين الخ، وكم من نظير له فى القرآن العظيم إلا أن ذلك مع وجود حرف التعليل كقوله تعالى : (ولنجعله آية للناس) وقوله سبحانه : (خلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت) ٭

وقال أبو حيان : يبعد هذا التقدير أنه ترتب على الشرط اهلاك قوم ونجاة قوم فلا يحسن لينتقم منهم ٭

وأجيب بأن الآية مخصوصة بالمجرمين فالمقصود الهلاك ويجوز أن يقدر ليظهر عظيم قدرته تعالى ويعلم الذين يجادلون فلا يرد عليه ماذكر ويحسن ذلك التقدير فى توجيه النصب فى (يعفو) على ماروى عن أهل المدينة إذا خدش التوجيه السابق بما نقل عن سيبويه فيقال : إنه عطف على تعليل مقدر أى لينتقم منهم ويعفو عن كثير، وقراءة النصب فى (يعلم) هى التى قرأ بها أكثر السبعة ٭

وقرأ نافع . وابن عامر . وأبو جعفر . والاعرج . وشيبة . وزيد بن على بالرفع، وقرر فى الكشف وجهه بأنه على عطف يعلم على مجموع الجملة الشرطية على معنى ومن آياته الدالة على كمال القدرة السفن فى البحر ثم ذكر وجه الدلالة وأنها مسخرة تحت أمره سبحانه تارة بتضمن نفع من فيها وتارة بالعكس ثم قال جل وعلا ويعلم الذين يعاندون ولا يعترفون بآيات الله تعالى الباهرة بدل قوله سبحانه فيها بالضمير الراجع الى الآية المبحوث عنها شهادة بأنها من آيات الله تعالى وزيادة للتحذير وذم الجدال فيها وليكون على أسلوب الكناية على نحو العرب لا تخفر الذمم فكأنه لما قيل: إن يشأ يسكن الريح وذكر سبب الدلالة صار فى معنى يعلمها ويعترف بها المتدبرون فى آياتنا المسترشدون ويعلم المجادلون فيها المنكرون مالهم من محيص، وجاز أن يجعل عطفا على قوله تعالى:(ومن ءاياته الجوار) وتجعل هذه وحدها آيات لتضمنها وجوها من الدلالة أقيمت مقام المضمر، والمعنى ومن آياته الجوار ويعلم المجادلون فيها، واعترض بين المعطوف والمعطوف عليه ببيان وجه الدلالة ليدل على موجب وعيد المجادل وعلى كونها آية بل آيات ، ونقل عن ابن الحاجب أنه يجوز أن يكون الرفع بالعطف على موضع الجزاء المتقدم باعتبار كونه جملة لا باعتبار عطف مجرد الفعل ليجب الجزم فتكون الجملتان مشتركتين فى المسببية ، وفيه بحث يعلم مما سيأتى ان شاء الله تعالى، وقرئ (ويعلم) بالجزم ٭

وخرج على العطف على (يعف) وتسببه عن الشرط باعتبار تضمن الاخبار عن علم المجادلين بما يحل بهم فى

المستقبل الوعيد والتحذير كما قيل :

سوف ترى اذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

ومرجع المعنى على ذلك أنه تعالى إن يشأ يعصف الريح فيغرق بعضا وينج آخرين عفوا ويحذر جماعة أخرى.
وأعترض بأن التخصيص بالمجادلين فى هذا التحذير غير لائح، وأيضا علمهم بأن لا محيص من عذاب الله تعالى على تقدير عصف الريح بأهل السفن على سبيل العبرة ولا اختصاص لها بهم ولا بهذا المقدور خاصة.
وأجيب عن الأول بأن التخصيص بالمجادلين لأنهم أولى بالتحذير، وعن الاخير بأنه أريد أن البر والبحر لا ينجيان من بأسه عزوجل فهو تعميم، واختار فى الكشف كون التخريج على أن الآية فى الكافرين بمعنى إن يشأ يعصف الريح فيغرق بعضهم وينج آخرين منهم عفوا ويعلموا مالهم من محيص فلا يغتروا بالنجاة والعفو فى هذه المرة ، فالمجادلون هم الكثير الناجون أو بعضهم وهو على منوال قوله تعالى (أم امنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى) الآية ، ومن مجموع ما سمعت يلوح لك ضعف هذه القراءة ولهذا لم يقرأ بها فى السبعة، والظاهر على القراءات الثلاث أن فاعل (يعلم الذين) وجملة (ما لهم من محيص) سادة مسد المفعولين. وفى الدر المصون أن الجملة فى قراءة الرفع تحتمل الفعلية وتحتمل الاسمية أى وهو يعلم الذين، ولا يخفى أن الظاهر على الاحتمال الثانى كون «الذين» مفعولا أولا والجملة مفعولا ثانيا والفاعل ضميره تعالى المستتر، وأوجب بعضهم هذا على قراءة الجزم وعطف «يعلم» على «يعف» لئلا يخرج الكلام عن الانتظام ويظهر قصد التحذير لشيوع أن علم الله تعالى يكون كناية عن المجازاة وهو كما ترى ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ ﴾ أى شيء كان من أسباب الدنيا، والظاهر أن الخطاب للناس مطلقا، وقيل: للمشركين ، وما موصوله مبتدأ والعائد محذوف أى أوتيتموه والخبر ما بعد، ودخلت الفاء لتضمنها معنى الشرط، وقال أبو حيان: هى شرطية مفعول ثان لأوتيتم و(من شيء) بيان لها وقوله تعالى: ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى فهو متاعها تتمتعون به مدة حياتكم فيها جواب الشرط، والأول اوفق بقوله تعالى : ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ ﴾ من ثواب الآخرة ﴿ خَيْرٌ ﴾ ذاتا لخلوص نفعه ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ زمانا حيث لا يزول ولا يفنى لأن الظاهر أن (ما) فيه موصولة وانما لم يؤت بالفاء فى خبرها مع أن الموصول المبتدأ إذا وصل بالظرف يتضمن معنى الشرط أيضا لأن مسببية كون الشيء عند الله تعالى لخيريته أمر معلوم مقرر غنى عن الدلالة عليه بحرف موضوع له بخلاف ماعند غيره سبحانه والتعبير عنه بانه عند الله تعالى دون ما ادخر لذلك ، وقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ إما متعلق بابقى أو اللام لبيان من له هذه النعمة فهو خبر مبتدأ محذوف أى ذلك للذين امنوا.

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ ﴾ لا على غيره تعالى أصلا، وعن على كرم الله تعالى وجهه اجتمع لأبى بكر رضى الله تعالى عنه مال فتصدق به كله فى سبيل الله تعالى فلامه المسلمون وخطأه الكافرون فنزلت، والموصول فى قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ٣٧ ﴾ مع ما بعد اما عطف على الموصول الأول أو هو مدح مرفوع على الخبرية لمبتدا محذوف أو منصوب بمقدر كاعنى أو أمدح، والواو اعتراضية كما ذكره الرضى، وغفل أبو البقاء عن الواو فلم يذكر العطف وذكر بدله البدل، وكبائر الاثم مارتب عليه الوعيد أو مايوجب الحد أو كل مانهى الله تعالى عنه والفواحش مافحش وعظم قبحه منها ، وقيل : المراد بالكبائر مايتعلق

بالبدع واستخراج الشبهات وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوانية وبقوله تعالى: (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) ما يتعلق بالقوة الغضبية وهو كما ترى، والمراد بالاثم الجنس والاقيل الآثام، و(إذا) ظرف ليغفرون و«هم» مبتدأ لا تأكيد لضمير غضبوا وجوزه في البحر وجملة يغفرون خبره وتقديمه لافادة الاختصاص لأنه فاعل معنوي، واختصاصهم باعتبار أنهم احقاء بذلك دون غيرهم فان المغفرة حال الغضب عزيزة المثال، وفي الآية ايماء إلى أنهم يغفرون قبل الاستغفار، وقيل (هم) مرفوع بفعل يفسره (يغفرون) ولما حذف انفصل الضمير وليس بشيء، وجعل أبو البقاء (إذا) شرطية وجملة (هم يغفرون) جوابا لها، وتعقبه أبو حيان بأنه يلزم الفاء حينئذ ولا يجوز حذفها الا في الشعر، وتقدم لك آنفا ما ينفعك تذكره فتذكر، وقرأ حمزة والكسائي «كبير الاثم» بالافراد لارادة الجنس أو الفرد الكامل منه وهو الشرك، وروي تفسيره به عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، ولا يلزم التكرار لأن المراد الاستمرار والدوام ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ قيل: نزلت في الانصار دعاهم الله تعالى على لسان رسوله ﷺ للايمان به وطاعته سبحانه فاستجابوا له فأثنى عليهم جل وعلا بما أثنى، وعليه فهو من ذكر الخاص بعد العام لبيان شرفه لايمانهم دون تردد وتلعثم، والآية إن كانت مدنية فالامر ظاهر وإذا كانت مكية فالمراد بالانصار من آمن بالمدينة قبل الهجرة أو المراد بهم أصحاب العقبة ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أي ذو شورى ومراجعة في الآراء بينهم بناء على أن الشورى مصدر كالبشرى فلا يصح الاخبار لأن الامر متشاور فيه لا مشاورة الا إذا قصد المبالغة، وأورد أنه يقال من غير تأويل شأني الكرم والامر هنا بمعنى الشان، نعم إذا حمل على القضايا المتشاور فيها احتاج إلى التاويل أو قصد المبالغة، وقيل: أن اضافة المصدر للعموم فلا يصح الاخبار الا بالتاويل ورد بأن المراد أمرهم فيما يتشاور فيه لا جميع أمورهم وفيه نظر، وقال الراغب: المشورة استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم: شرت العسل وأشرته استخرجته والشورى الامر الذي يتشاور فيه انتهى، والمشهور كونه مصدرا، وجيء بالجملة اسمية مع أن المعطوف عليه جملة فعلية للدلالة على أن التشاور كان حالهم المستمرة قبل الاسلام وبعده، وفي الآية مدح للتشاور لاسيما على القول بان فيها الاخبار بالمصدر، وقد أخرج البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: من اراد امرا فشاور فيه وقضى هدى لأرشد الامور، وأخرج عبد بن حميد والبخاري في الادب وابن المنذر عن الحسن قال: ما تشاور قوم قط الا هدوا وأرشد امرهم ثم تلا (وأمرهم شورى بينهم)، وقد كانت الشورى بين النبي ﷺ وأصحابه فيما يتعلق بمصالح الحروب، وكذا بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم بعده عليه الصلاة والسلام، وكانت بينهم أيضا في الاحكام كقتال أهل الردة وميراث الجد وعدد حد الخمر وغير ذلك، والمراد بالاحكام مالم يكن لهم فيه نص شرعي والا فالشورى لا معنى لها وكيف يليق بالمسلم العدول عن حكم الله عز وجل إلى آراء الرجال والله سبحانه هو الحكيم الخبير، ويؤيد ما قلنا ما أخرجه الخطيب عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: قلت يارسول الله الامر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يسمع منك فيه شيء قال: اجمعوا له العابد من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأي واحد، وينبغي أن يكون المستشار عاقلا كما ينبغي أن يكون عابدا، فقد أخرج الخطيب أيضا عن أبي هريرة مرفوعا «استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا» والشورى على الوجه الذي ذكرناه من جملة أسباب صلاح الارض ففي الحديث إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم أسخياءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الارض

خير لكم من بطنها وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطن الارض خير لكم من ظهرها، وإذا لم تكن على ذلك الوجه كان افسادها للدين والدنيا أكثر من اصلاحها ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣٨ ﴾ أى فى سبيل الخير لأنه مسوق للمدح ولا مدح بمجرد الانفاق، ولعل فصله عن قرينه بذكر المشاورة لأن الاستجابة لله تعالى واقام الصلاة كانا من آثارها، وقيل: لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات ٥

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ٣٩ ﴾ أى ينتقمون ممن بغى عليهم على ما جعله الله تعالى لهم ولا يعتدون، ومعنى الاختصاص انهم الاخصاء بالانتصار وغيرهم يعدو ويتجاوز، ولا يراد انهم ينتصرون ولا يغفرون ليتناقض هو والسابق، فكأنه وصفهم سبحانه بأنهم الاخصاء بالغفران لا يغول الغضب احلامهم كما يغول فى غيرهم وانهم الاخصاء بالانتصار على ماجوز لهم إن كافؤا ولا يعتدون كغيرهم فهم محمودون فى الحالتين بين حسن وأحسن مخصوصون بذلك من بين الناس، وقال غير واحد: إن كلا من الوصفين فى محل وهو فيه محمود فالعفو عن العاجز المعترف بجرمه محمود ولفظ المغفرة مشعر به والانتصار من المخاصم المصر محمود، ولفظ الانتصار مشعر به ولو أوقعا على عكس ذلك كانا مذمومين وعلى هذا جاء قوله:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وقد يحمد كل ويذم باعتبارات أخر فلا تناقض أيضا سواء اتحد الموصوفان فى الجملتين أولا، وقال بعض المحققين: الاوجه أن لا يحمل الكلام على التخصيص بل على التقوى أى يفعلون المغفرة تارة والانتصار اخرى لادائما للتناقض وليس بذاك، وعن النخعى أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق، وفيه ايماء إلى أن الانتصار من المخاصم المصر والافلا اذ لال للنفس بالعفو عن العاجز المعترف، ثم إن جملة (هم ينتصرون) من المبتدا والخبر صلة الموصول و (إذا) ظرف (ينتصرون) وجوز كونها شرطية والجملة جواب الشرط وجملة الجواب والشرط هى الصلة. وتعقبه أبو حيان بما مر آنفا، وجوز أيضا كون (هم) فاعلا لمحذوف وهو كما سمعت فى (وإذا ماغضبوا) الخ، وقال الحوفى: يجوز جعل (هم) توكيداً لضمير (أصابهم) وفيه الفصل بين المؤكد والمؤكد بالفاعل ولعله لا يمتنع، ومع هذا فالوجه فى الاعراب ماأشرنا اليه أولا ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ بيان لما جعل للمنتصر وتسمية الفعلة الثانية وهى الجزاء سيئة قيل للمشاكلة، وقال جار الله: تسمية كلتا الفعلتين سيئة لأنها تسوء من تنزل به، وفيه رعاية لحقيقة اللفظ واشارة إلى أن الانتصار مع كونه محموداً إنما يحمد بشرط رعاية المماثلة وهى عسرة فنى مساقها حث على العفو من طريق الاحتياط، وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا ﴾ أى عن المسىء اليه ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ مابينه وبين من يعاديه بالعفو والاغضاء عما صدر منه ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ فيجزيه جل وعلا اعظم الجزاء، تصريح بما لوح اليه ذلك من الحث وتنبيه على أنه وإن كان سلوكا لطريق الاحتياط يتضمن مع ذلك اصلاح ذات البين المحمود حالا ومآلا ليكون زيادة تحريض عليه، وابهام الاجر وجعله حقا على العظيم الكريم جل شأنه الدال على عظمه زيادة فى الترغيب، وجئ بالفاء ليفرعه عن السابق أى إذا كان سلوك الانتصار غير مأمون العثار فمن عفا وأصلح فهو سالك الطريق

المأمون العثار المحمود فى الدارين ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ ٤٠ ﴾ المتجاوزين الحد فى الانتقام ، تتميم لذلك المعنى وتصريح بما ضمن من عسر رعاية طريق المماثلة وأنه قلما تخلو عن الاعتداء والتجاوز لاسيما فى حال الحرد والتهاب الحمية فيكون دخولا فى زمرة من لايحبه الله تعالى ، ولا حاجة على هذا المعنى إلى جعل (فمن عفا) الخ اعتراضا ، ثم لو كان كذلك بأن يكون هذا متعلقا بجزاء سيئة سيئة مثلها على أنه تعليل لما يفهم منه فالفاء غير مانعة عنه كما توهم ، وأدخل غير واحد المبتدئين بالسيئة فى الظالمين ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ بعد ماظلم بالبناء للمجهول ، وقرىء به فالمصدر مضاف لمفعوله اوهو مصدر المبنى للمفعول واللام للقسم ، وجوز أن تكون لام الابتداء جىء بها للتوكيد و (من) شرطية او موصولة وحمل انتصر على لفظها وحمل ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ٤١ ﴾ أى للمعاقب ولا للعاتب والعائب على معناها ، والجملة عطف على (من عفا) وجىء بها للتصريح بأن ماحض عليه إنما حض عليه ارشادا إلى الاصلح فى الاغلب لا أن المنتصر عليه سبيل بوجه حالا اومآ لا ، ولا يهام الحض خلاف ماتضمنته من نفى السبيل على العموم صدرت باللام ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ تعيين لمن عليه السبيل بعد نفى ذلك عن المنتصرين ، والمراد بالذين يظلمون الناس من يبتدؤنهم بالظلم اويزيدون فى الانتقام ويتجاوزون ماحدلهم ، وفسر ذلك بعضهم بالذين يفعلون بهم مالا يستحقونه وهو اعم *

﴿ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى يتكبرون فيها تجبراً وفساداً ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الموصوفون بالظلم والبغى بغير الحق ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٢ ﴾ بسبب ظلمهم وبغيهم ، والمراد بهؤلاء الظالمين الباغين الكفرة ، وقيل : من يعمهم وغيرهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ٤٣ ﴾ تحذير عن الظلم والبغى ومايؤدى إلى العذاب الأليم بوجه ، وفيه حض على ماحض عليه أولا اهتماما به وزيادة ترغيب فيه ، فالصبر هنا هو الاصلاح المؤخر فيما تقدم قدم ههنا ، وعبر عنه بالصبر لأنه من شأن أولى العزم وإشارة إلى أن الاصلاح بالعفو والاغضاء إنما يحمد إذا كان عن قدرة لا عن عجز ، و «ذلك» إشارة إلى المذكور من الصبر والمغفرة ، و (عزم الأمور) الأمور المعزومة المقطوعة أوالعازمة الصادقة ، وجوز فى (من) أن تكون موصولة وأن تكون شرطية . وفى اللام أن تكون ابتدائية وأن تكون قسمية واكتفى بجواب القسم عن جواب الشرط ، وإذا جعلت اللام للابتداء و (من) شرطية فجملة (إن ذلك) جواب الشرط وحذفت الفاء منها ، ومن يخص الحذف بالشعر لايجوز هذا الوجه ، وذكر جماعة أن فى الكلام حذفا أى إن ذلك منه لمن عزم الأمور ، وعلل ذلك بأن الجملة خبر فلا بد فيها من رابط و (ذلك) لايصلح له لأنه إشارة إلى الصبر والمغفرة ، وكونه مغنيا عنه لأن المراد صبره أو (ذلك) رابط والاشارة لمن بتقدير من ذوى عزم الأمور تكلف *

هذا واختار العلامة الطيبى أن تسمية الفعلة الثانية التى هى الجزاء سيئة من باب التهجين دون المشاكلة ، وزعم أن المجازى مسىء وبنى على ذلك ربط جملة (إنه لايحب الظالمين) بما قبل فقال : يمكن أن يقال لما نسب المجازى إلى المساءة فى قوله سبحانه : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) والمسىء فى هذا المقام مفسداً لما فى البين بدليل (فمن عفا وأصلح) علل مفهوم ذلك بقوله سبحانه : (إنه لايحب الظالمين) كأنه قيل : من أخرج نفسه

بالعفو والاصلاح من الانتساب إلى السيئة والافساد كان مقسطا إن الله يحب المقسطين فوضع موضعه (فأجره على الله) ومن اشتغل بالمجازاة وانتسب إلى السيئة وأفسد مافى البين وحرم نفسه ذلك الأجر الجزيل كان ظالما نفسه (إنه لا يحب الظالمين) فالآية واردة إرشاداً للمظلوم إلى مكارم الأخلاق وإيثار طريق المرسلين *

وقال: إن قوله تعالى: (ولمن انتصر بعد ظلمه) الخ خطاب للولاة والحكام وتعليم فعل ماينبغي فعله بدليل قوله سبحانه: «إنما السبيل على الذين يظلمون الناس» حيث أعاد السبيل المنكر بالتعريف وعلق به «يظلمون الناس» وفسره بقوله تعالى: «عذاب أليم» وكذا قوله سبحانه: «ولمن صبر وغفر» الخ تعليم لهم أيضا طريق الحكم يعني أن صاحب الحق اذا عدل من الأولى وانتصر من الظالم فلا سبيل لكم عليه لما قد رخص له ذلك واذا اختار الافضل فلا سبيل لكم على الظالم لأن عفو المظلوم من عزم الأمور فتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان انتهى، ولا يخفى مافيه *

وفى الكشف أن جعل ماذكر خطابا للولاة والحكام يوجب التعقيد فى الكلام فالمعول عليه ماقدمناه، وقد جاءت أخبار كثيرة فى فضل العافين عمن ظلمهم، أخرج البيهقي فى شعب الايمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «قال موسى ابن عمران عليه الصلاة والسلام يارب من أعز عبادك عندك؟ قال: من إذا قدر غفر» وأخرج ابن أبي حاتم. وابن مردويه. والبيهقي فى الشعب عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا وقف العباد للحساب نادى مناد ليقم من أجره على الله تعالى فليدخل الجنة ثم نادى الثانية ليقم من أجره على الله تعالى قالوا: ومن ذا الذى أجره على الله تعالى؟ قال: العافون عن الناس فقام كذا وكذا الفا فدخلوا الجنة بغير حساب» *

وأخرج أحمد. وأبو داود عن أبي هريرة أن رجلا شتم أبا بكر رضي الله تعالى عنه والنبي ﷺ جالس فجعل عليه الصلاة والسلام يعجب ويتبسم فلما أكثر رد عليه بعض قوله: فغضب النبي ﷺ وقام فلحقه أبو بكر رضي الله تعالى عنه فقال: يارسول الله كان يشتمني وأنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت قال: إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله: وقع الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان ثم قال عليه الصلاة والسلام: «ثلاث من الحق مامن عبد ظلم بمظلمة فيغضى عنها لله تعالى ألا أعز الله عز وجل بها نصره وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله تعالى بها كثرة وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة الا زاده الله تعالى بها قلة» واستشكل هذا الخبر بأنه يشعر بعتب أبي بكر رضي الله تعالى عنه وهو نوع من السبيل المنفي فى قوله تعالى: «ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل» وأجيب بأنا لا نسلم ذلك وليس فيه أكثر من تنبيهه رضي الله تعالى عنه على ترك الاولى وهو شيء والعتب شيء آخر، وكذا لا يعدلو ماكما لا يخفى *

ومن الناس من خص السبيل فى الآية بالاثم والعقاب فلا إشكال عليه أصلا، وقيل: هو باق على العموم الا أن الآية فى عوام المؤمنين ومن لم يبلغ مبلغ أبي بكر رضي الله تعالى عنه فان مثله يلام بالشتم وان كان بحق بحضرة رسول الله ﷺ قبل أن يأذن له به قالا أو حالا بل لاح عليه صلى الله تعالى عليه وسلم مايشعر باستحسان السكوت عنه وحسنات الأبرار سيآت المقربين *

وقد أمر صلى الله تعالى عليه وسلم بعض الاشخاص برد الشتم على الشاتم، أخرج النسائي. وابن ماجه.

وابن مردويه. عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: دخلت على زينب رضى الله تعالى عنها وعندى رسول صلى الله تعالى عليه وسلم فأقبلت على تسبنى فوزعها النبى عليه الصلاة والسلام فلم تنته فقال لى: سبيها فسببتها حتى جف ريقها فى فمها ووجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتهلل سرورا، ولعله كان هذا منه عليه الصلاة والسلام تعزيرا لزينب رضى الله تعالى عنها بلسان عائشة رضى الله تعالى عنها لما أن لها حقافى الردو رأى المصلحة فى ذلك وقد ذكر فقهاؤنا أن للقاضى أن يعزر من استحق التعزير بشتم غير القذف وكذا للزوج أن يعزر زوجته على شتمها غير محرم الى أمور أخر فتأمل *

وظاهر قوله تعالى: (وجزاء سيئة سيئة مثلها) يقتضى رعاية المماثلة مطلقا، وفى تفسير الامام أن الآية تقتضى وجوب رعاية المماثلة فى كل الامور الا فيما خصه الدليل لأنه لو حملت المماثلة فيها على المماثلة فى أمر معين فهو غير مذكور فيها فيلزم الاجمال وعلى ما قلنا يلزم تحمل التخصيص ومعلوم أن دفع الاجمال أولى من دفع التخصيص *

والفقهاء أدخلوا التخصيص فيها فى صور كثيرة تارة بناء على نص آخر أخص وأخرى بناء على القياس، ولا شك أن من ادعى التخصيص فعليه البيان والمكلف يكفيه أن يتمسك بها فى جميع المطالب *

وعن مجاهد. والسدى اذا قال له: أخزاه الله تعالى فليقل أخزاه الله تعالى واذا قذفه قذفا يوجب الحد فليس له ذلك بل الحد الذى أمر الله تعالى به، ونقل أبو حيان عن الجمهور انهم قالوا اذا بغى مؤمن على مؤمن فلا يجوز له أن ينتصر منه بنفسه بل يرفع ذلك الى الامام أو نائبه، وفى مجمع الفتاوى جاز المجازاة بمثله فى غير موجب حد للاذن به «ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل» والعفو افضل (فمن عفا وأصلح فاجره على الله) وقال ابن الهمام: الاولى أن الانسان اذا قيل له ما يوجب التعزير أن لا يجيبه قالوا: لو قال له: ياخبيث الاحسن أن يكف عنه ويرفعه الى القاضى ليؤدبه بحضوره ولو أجاب مع هذا فقال: بل أنت لا بأس *

وفى التنوير وشرحه ضرب غيره بغير حق وضربه المضروب أيضا يعزران كما لو تشاتما بين يدى القاضى ولم يتكافآ، وأنت تعلم ما يقتضيه ظاهر الآية ولا يعدل عنه الا لنص، وظاهر كلام العلامة الطيبى ان المظلوم اذا عفا لا يلزم الظالم التعزير بضرب أو حبس أو نحوه، وذكر فقهاؤنا أن التعزير يغلب فيه حق العبد فيجوز فيه الابراء والعفو واليمين والشهادة على الشهادة وشهادة رجل وامرأتين ويكون أيضا حقا لله تعالى فلا عفو فيه الا اذا علم الامام انزجار الفاعل الى آخر ما قالوا، ويترجح عندى ان الامام متى رأى بعد التأمل والتجرد عن حظوظ النفس ترك التعزير للعفو سببا للفساد والتجاسر على التعدى وتجاوز الحدود عزر بما تقتضيه المصلحة العامة وليبذل وسعه فيما فيه اصلاح الدين وانتظام أمور المسلمين واياه أن يتبع الهوى فيضل عن الصراط المستقيم *

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى ماله من ناصر يتولاه من بعد خذلان الله تعالى اياه فضمير «بعده» لله تعالى بتقدير مضاف فيه، وقيل للخذلان المفهوم من (يضلل) والجملة عطف على قوله تعالى: (أولئك لهم عذاب أليم) وكنى بمن عن الظالم الباغى تسجيلا بانه ضال مخذول أو أتى به مبهما ليشمله شمولا أوليا فقوله سبحانه: « ولمن صبر » الخ اعتراض لما أشرنا اليه ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أى حين يرونه، وصيغة الماضى للدلالة على التحقق ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ ﴾ أى رجعة الى الدنيا ﴿ مِنْ سَبِيلٍ ٤٤ ﴾ حتى نؤمن ونعمل صالحا، وجوز أن يكون المعنى هل الى رد للعذاب ومنع منه من سبيل، وتنكير (مرد) وكذا (سبيل) للمبالغة والجملة حال وقيل مفعول ثان لترى *

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى على النار المدلول عليها بالعذاب، والجملة كالسابقة ﴿ خَاشِعِينَ ﴾ متضائلين متقاصرين ﴿ مِنَ الذُّلِّ ﴾ أى بسبب الذل لعظم ما لحقهم فمن سببية متعلقة بخاشعين وهو وكذا مابعده حال ❊

وجوز أن يعلق الجار بقوله تعالى: ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ ويوقف على (خاشعين) ﴿ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ والاول أظهر، والطرف مصدر طرف اذا حرك عينه ومنه طرفة العين، والمراد بالخفي الضعيف، ومن ابتدائية أى يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف بمسارقة كما ترى المصبور ينظر الى السيف وهكذا نظر الناظر الى المكاره لايقدر أن يفتح اجفانه عليها ويملأ عينيه منها كما يفعل فى نظره الى المحاب، ويجوز أن تكون من بمعنى الباء ❊

وعن ابن عباس (خفى) ذليل فالطرف عليه جفن العين، وقيل: يحشرون عميا فلا ينظرون الا بقلوبهم وذلك نظر من طرف خفى، وهو تأويل متكلف، والجملتان السابقتان أعنى (ترى الظالمين. وتراهم يعرضون) معطوفان على (ومن يضلل) وأصل الكلام والظالمون لما رأوا العذاب يقولون وهم يعرضون عليها خاشعين، ثم قيل (وترى وتراهم) خطابا لكل من يتأتى منه الرؤية ويعتبر بحالهم زيادة للتهويل كأنه يعجبهم مما هم فيه ليعتبروا ويبتهجوا، ومنه يظهر أنه خطاب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأتباعه ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى أنهم ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ بالتعريض للعذاب الخالد أو على ما مر فى الزمر، وعدل عن انهم الى المنزل تسجيلا عليهم بأكمل الخسران اذ المراد أن الكاملين فى صفة الخسران المتصفين بحقيقته ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ متعلق بخسروا والقول فى الدنيا، وجوز أن يكون متعلقا بقال، والماضى لتحقق الوقوع أى ويقولون اذا رأوهم على تلك الصفة. وفى الكشف الظاهر أنه قول يوم القيامة كالخسران من باب التنازع بين الفعلين، وآثر صاحب الكشاف على ما يؤذن به صنيعه أن يتعلق بالخسران وحده لأن الأصل فى (قال الذين آمنوا إن الخاسرين) الخ هم الخاسرون كما أن الاصل فى (وترى الظالمين) والظالمون لما رأوا ثم قيل: (وقال الذين آمنوا) على نحو ماقيل (وترى) الخ وكما أن الرؤية رؤية الدنيا استحضاراً لعذابهم الكائن فى الآخرة تهويلا كذلك القول كأنهم جعلهم حضورا يعاين عذابهم ويسمع ما يقول المؤمنون فيهم ورد على الخطاب فى الرؤية والغيبة فى القول لأن معاينة العذاب لما كانت أدخل فى التهويل جعل العذاب قريبا مشاهدا وخصوا بالخطاب على سبيل استحضار الحال لمزيد الابتهاج ولم يكن فى الخسران ذلك المعنى لأنه أمر معقول والمحسوسات أقوى لاسيما اذا كن موجبات الخسران فجيء به على الاصل من الغيبة، وعدله من المضارع الى الماضى لأنه قول صادر عن مقتضى الحال قد حق ووقع تفوهوا به أولا وأسند الى المؤمنين دلالة على الابتهاج المذكور واغتباطهم بنجاتهم عما هم فيه والا فالقول والرؤية لكل من يتأتى منه القول والرؤية، وجعله حالا كما فعل الطيبي على معنى وتراهم وقد صدق فيهم قول المؤمنين فى الدنيا ان الخاسرين الخ من أسلوب قوله:

❊ اذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة ❊ وفيه انه انما يرتكب عند تعذر الحقيقة وقد أمكن الحمل على التنازع فلا تعذر ❊

ثم أنه على التقدير لا يظهر أنه قول فيها الا بدليل خارج، وهذا بخلاف ماذكره جار الله فى قوله تعالى: (وقد قدمت اليكم بالوعيد) من تقدير وقد صح عندكم انى قدمت لأن فى اللفظ اشعارا به بينا انتهى، ولعمرى لقد أبعد قدس سره المغزى فى هذه الآيات العظام وأتى بما تستحسنه النظار من ذى الافهام فليفهم، وقوله تعالى:

﴿الَاَ إنَّ الظَّالمِينَ فى عَذَابٍ مُقِيمٍ ٤٥﴾ إما من تمام كلام المؤمنين ويجرى فيه ماسمعت من الأصل ونكتة العدول أو استئناف اخبار منه تعالى تصديقا لذلك ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَولِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ برفع العذاب عنهم ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ حسبما يزعمون ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَالَهُ مِنْ سَبِيلٍ ٤٦ ﴾ الى الهدى أو النجاة، وقيل: المراد ماله من حجة ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ اذا دعاكم لما به النجاة على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ﴾ الجار والمجرور اما متعلق بمرد ويعامل اسم لا الشبيه بالمضاف معاملته فيترك تنوينه كما نص عليه ابن مالك فى التسهيل، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «لامانع لما أعطيت» وقوله تعالى: (لا تثريب عليكم اليوم) أى لايرده الله تعالى بعد ما حكم به *

ومن لم يرض بذلك قال: هو خبر لمبتدا محذوف أى ذلك من الله تعالى، والجملة استئناف فى جواب سؤال مقدر تقديره ممن ذلك؟ أو حال من الضمير المستتر فى الظرف الواقع خبر لا أو متعلق بالنفى او بمادل عليه كما قيل فى قوله تعالى: (ماأنت بنعمة ربك بمجنون) وقيل: هو متعلق بيأتى، وتعقب بأنه خلاف المتبادر من اللفظ والمعنى، وقيل: هو مع ذلك قليل الفائدة، وجوز كونه صفة ليوم، وتعقب بأنه ركيك معنى، والظاهر أن المراد بذلك اليوم يوم القيامة لايوم ورود الموت كما قيل ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى ملاذ تلتجئون اليه فتخلصون من العذاب على أن (ملجأ) اسم مكان، ويجوز أن يكون مصدرا ميميا ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ٤٧﴾ انكار على أنه مصدر أنكر على غير القياس ونفى ذلك مع قوله تعالى حكاية عنهم: (والله ربنا ما كنا مشركين) تنزيلا لما يقع من انكارهم منزلة العدم لعدم نفعه وقيام الحجة وشهادة الجوارح عليهم أو يقال أن الامرين باعتبار تعدد الاحوال والمواقف، وجوز أن يكون (نكير) اسم فاعل للمبالغة أى مالكم منكر لاحوالكم غير مميز لها ير حمكم وهو كما ترى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ تلوين للكلام وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة وتوجيه له إلى الرسول ﷺ أى فان لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم اليه فلا تهتم بهم فما أرسلناك رقيبا ومحاسبا عليهم ﴿ إِنْ عَلَيْكَ ﴾ أى ماعليك ﴿إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ لا الحفظ وقد فعلت *

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أى نعمة من الصحة والغنى والامن ونحوها ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أريد بالانسان الجنس الشامل للجميع وهو حينئذ بمعنى الاناسى أو الناس ولذا جمع ضميره فى قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ﴾ وليست للاستغراق والجمعية لاتتوقف عليه فكأنه قيل: وإن تصب الناس أو الاناسى ﴿ سَيِّئَةٌ ﴾ بلاء من مرض وفقر وخوف وغيرها ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ماصدر منهم من السيئات ﴿فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ ٤٨﴾ بليغ الكفر ينسى النعمة رأسا ويذكر البلية ويستعظمها ولايتأمل سببها بل يزعم أنها أصابته من غير استحقاق لها *

وأل فيه أيضا للجنس، وقيل: هى فيهما للعهد على أن المراد المجرمون، وقيل: هى فى الأول للجنس وفى الثانى للعهد، وقال الزمخشرى: أراد بالانسان الجمع لا الواحد لمكان ضمير الجمع ولم يرد الا المجرمين لأن اصابة السيئة بما قدمت أيديهم إنما يستقيم فيهم، ثم قال: ولم يقل فانه لكفور ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم كما قال سبحانه: (إن الانسان لظلوم كفار. إن الانسان لربه لكنود) ففهم منه العلامة الطيبى أنها فى الأول للعهد

وأن المراد الكفار المخاطبون فى قوله تعالى: استجيبوا لربكم (لترتب) فان أعرضوا (عليه)، ووضع المظهر موضع المضمر للاشعار بتصميمهم على الكفران والايذان بأنهم لا يرعوون عما هم فيه وانها فى الثانى للجنس ليكون المعنى ليس ببدع من هذا الانسان المعهود الاصرار لأن هذا الجنس موسوم بكفران النعم فيكون ذم المطلق دليلا على ذم المقيد، وفى الكشف أنه أراد أن الانسان أى الأول للجنس الصالح للكل وللبعض وإذا قام دليل على ارادة البعض تعين وقدقام لما سلف أن الاصابة فى غير المجرمين للعوض الموفى ولم يذهب إلى أن اللام للعهد وجعل قوله تعالى: (فان الانسان كفور) للجنس ليكون تعليلا للمقيد بطريق الأولى ومطابقا لما جاء فى مواضع عديدة من الكتاب العزيز، ولا بأس بأن يجعل اشارة إلى السالف فانه للجنس أيضا، ويكون فى وضع المظهر موضع المضمر الفائدة المذكورة مرارا بل هو أدل على القانون الممهد فى الاصول وكون كليهما للجنس أقول، واسناد الكفران مع أنه صفة الكفرة إلى الجنس لغلبتهم فهو مجاز عقلى حيث أسند إلي الجنس حال أغلب افراده لملابسته الاغلبية، ويجوز أن يعتبر أغلب الافراد عين الجنس لغلبتهم على غيرهم فيكون المجاز لغويا، وكذا يقال فى اسناد الفرح إذا كان بمعنى البطر فانه أيضا من صفات الكفرة بل ان كان أيضا بمعناه المعروف وهو انشراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر ما يكون ذلك فى اللذات البدنية الدنيوية فانه وإن لم يكن من خواص الكفار بل يكون فى المؤمنين أيضا اضطرارا أو شكرا الا أنه لا يعم جميع افراد الجنس وان قلت بعمومه لم تحتج الى ذلك كما اذا فسرته بالبطر على ارادة العهد فى الانسان، واصابة السيئة بالذنوب غير عامة للافراد أيضا فحال اسنادها يعلم مما ذكرنا، وتصدير الشرطية الأولى باذا مع اسناد الاذاقة بلفظ الماضى إلى نون العظمة للتنبية على أن إيصال النعمة محقق الوجود كثير الوقوع وأنه مراد بالذات من الجواد المطلق سبحانه وتعالى كما أن تصدير الثانية بإن واسناد الاصابة بلفظ المضارع إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم للايذان بندرة وقوعها وأنها بمعزل عن الانتظام فى سلك الارادة بالذات والقصد الأولى، وإقامة علة الجزاء مقام الجزاء مبالغة فى ذمهم.

﴿ لله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لا لغيره سبحانه اشتراكا أو استقلالا ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ من غير وجوب عليه سبحانه ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ استئناف بيانى أو بيان ليخلق أو بدل منه بدل البعض على مااختاره القاضى، ولما ذكر سبحانه إذاقة الانسان الرحمة واصابته بضدها أتبع جل وعلا ذلك أن لله سبحانه الملك وأنه تعالى يقسم النعمة والبلاء كما شاء بحكمته تعالى البالغة لا كما شاء الانسان بهواه، وفيه اشارة إلى أن إذاقة الرحمة ليست للفرح والبطر بل للشكر لموليها واصابة المحنة ليست للكفران والجزع بل للرجوع إلى مبليها، وتأكيد لانكار كفرانهم من وجهين. الاول أن الملك ملكه سبحانه من غير منازع ومشارك يتصرف فيه كيف يشاء فليس على من هو أحقر جزء من ملكه تعالى أن يعترض ويريد أن يجرى التدبير حسب هواه الفاسد. الثانى أن هذا الملك الواسع لذلك العزيز الحكيم جل جلاله الذى من شأنه أن يخلق مايشاء فأنى يجوز أن يكون تصرفه الاعلى وجه لا يتصور أكمل منه ولا أوفق لمقتضى الحكمة والصواب، وعند ذلك لا يبقى الا التسليم والشغل بتعظيم المنعم المبلى عن الكفران والاعجاب، وناسب هذا المساق أن يدل فى البيان من أول الامر على أنه تعالى فعل لمحض مشيئته سبحانه لا مدخل لمشيئة العبد فيه فلذا قدمت الاناث وأخرت الذكور كأنه قيل: يخلق مايشاء يهب لمن يشاء من الاناسى مالا يهواه ويهب لمن يشاء

منهم مايهواه فقد كانت العرب تعد الاناث بلاء (وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم) ولو قدم المؤخر لاختل النظم ، وليس التقديم لمجرد رعاية مناسبة القرب من البلاء ليعارض بأن الآية السابقة ذكرت الرحمة فيها مقدمة عليه فناسب ذلك تقديم الذكور على الاناث ، وفى تعريف الذكور مع مافيه من الاستدراك لقضية التأخير التنبيه على أنه المعروف الحاضر فى قلوبهم أول كل خاطر وأنه الذى عقدوا عليه مناهم ، ولماقضى الوطر من هذا الاسلوب قيل : (أو يزوجهم) أى الاولاد (ذكرانا وإناثا) أى يخلق مايهبهم زوجا لأن التزويج جعل الشئ زوجا فذكرانا وأناثا حال من الضمير ، والواو قيل للمعية لأن حقه التأخير عن القسمين سياقا ووجودا فلا تتأتى المقارنة الابذلك ، وقيل ذلك لأن المراد يهب لمن يشاء مالايهواه ويهب لمن يشاء مايهواه أو يهب الامرين معالا أنه سبحانه يجعل من كل من الجنسين الذكور والاناث على حياله زوجا ولولاذلك لتوهم ماذكر فتأمله ، ولتركبه منهما لم يكرر فيه حديث المشيئة ، وقدم المقدم على ماهو عليه فى الاصل ولم يعرف إذ لاوجه له ، ثم قيل : (ويجعل من يشاء عقيما) أى لا يولد له فقيد بالمشيئة لأنه قسم آخر ، وكأنه جيء بأو فى (أو يزوجهم) دون الواو كما فى سابقه من حيث أنه قسيم الانفراد المشترك بين الاولين ولم يؤت فى الاخير لاتضاحه بأنه قسيم الهبة المشتركة بين الاقسام المتقدمة فتأمل ، وقيل : قدم الاناث توصية برعايتهن لضعفهن لاسيما وكانوا قريبى العهد بالوأد ، وفى الحديث « من ابتلى بشيء من هذه البنات فأحسن اليهن كن له سترا من النار » وقيل : قدمت لأنها أكثر لتكثير النسل فهى من هذا الوجه أنسب بالخالق المراد بيانه ، وقيل : لتطييب قلوب آبائهن لما فى تقديمن من التشريف لأنهن سبب لتكثير مخلوقاته تعالى ، وقال الثعالبي : إنه اشارة إلى مافى تقدم ولادتهن من اليمن حتى أن أول مولود ذكر يكون مشؤما فيقولون له بكر بكرين ، وعن قتادة من يمن المرأة تبكيرها بأنثى ، وقيل : قدمت وأخر الذكور معرفا للمحافظة على الفواصل ، والمناسب للسياق ماعلمت سابقا ، وقال مجاهد فى (أو يزوجهم) التزويج أن تلد المرأة غلاما ثم تلد جارية ، وقال محمد بن الحنفية رضى الله تعالى عنهما : هو أن تلد توأما غلاما وجارية . وزعم بعضهم أن الآية نزلت فى الانبياء عليهم الصلاة والسلام حيث وهب سبحانه لشعيب ولوط عليهم السلام اناثا ولابراهيم عليه السلام ذكورا ولرسوله محمد ﷺ ذكورا واناثا وجعل عيسى ويحيى عليهما السلام عقيمين اه ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ٥ ﴾ مبالغ جل شأنه فى العلم والقدرة فيفعل مايفعل بحكمة واختيار ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ أى ماصح لفرد من افراد البشر •

﴿ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ ظاهره حصر التكليم فى ثلاثة اقسام . الاول الوحى وهو المراد بقوله تعالى : (الاوحيا) وفسره بعضهم بالالقاء فى القلب سواء كان فى اليقظة أوفى المنام والالقاء أعم من الالهام فان ايحاء أم موسى إلهام وإيحاء ابراهيم عليه السلام القاء فى المنام وليس إلهاما وايحاء الزبور إلقاء فى اليقظة كما روى عن مجاهد وليس بالهام ، والفرق أن الالهام لايستدعى صورة كلام نفسانى فقد وقد وأما اللفظى فلا ، وأما نحو إيحاء الزبور فيستدعيه ، وقد جاء اطلاق الوحى على الالقاء فى القلب فى قول عبيد بن الابرص :

وأوحى إلى الله أن قد تأمروا ... بابل أبى أوفى فقمت على رجلى

فانه أراد قذف فى قلبى . والثانى اسماع الكلام من غير أن يبصر السامع من يكلمه كما كان لموسى وكذا

الملائكة الذين كلمهم الله تعالى فى قضية خلق آدم عليه السلام ونحوهم وهو المراد بقوله سبحانه (أومن وراء حجاب) فانه تمثيل له سبحانه بحال الملك المتحجب الذى يكلم بعض خواصه من وراء حجاب يسمع صوته ولا يرى شخصه . والثالث ارسال الملك كالغالب من حال نبينا ﷺ وهو حال كثير من الانبياء عليهم السلام ، وزعم أنه من خصوصيات أولى العزم من المرسلين غير صحيح وهو المراد بقوله عز وجل : (أو يرسل رسولا) أى ملكا (فيوحى) ذلك الرسول إلى المرسل اليه الذى هو الرسول البشرى (باذنه) أى بأمره تعالى وتيسيره سبحانه (ما يشاء) أن يوحيه ، وهذا يدل على أن المراد من الاول الوحى من الله تعالى بلا واسطة لأن ارسال الرسول جعل فيه ايحاء ذلك الرسول ، وبنى المعتزلى على هذا الحصر أن الرؤية غير جائزة لأنها لو صحت لصح التكليم مشافهة فلم يصح الحصر ، وقال بعض : المراد حصر التكليم فى الوحى بالمعنى المشهور والتكليم من وراء حجاب وتكليم الرسل البشريين مع أممهم ، واستبعد بأن العرف لم يطرد فى تسمية ذلك إيحاء ، وقال القاضى إن قوله تعالى (الا وحيا) معناه الا كلاما خفيا يدرك بسرعة وليس فى ذاته مركبا من حروف مقطعة وهو مايعم المشافهة كما روى فى حديث المعراج وماوعد به فى حديث الرؤية والمهتف به كما اتفق لموسى عليه السلام فى الطور لكن عطف قوله تعالى : (أومن وراء حجاب) عليه يخصصه بالاول فالآية دليل على جواز الرؤية لا على امتناعها ، وإلى الاول ذهب الزمخشرى وانتصر له صاحب الكشف عفا الله تعالى عنه فقال : وأما نحن فنقول والله تعالى أعلم : إن قوله تعالى : (وما كان لبشر) على التعميم يقتضى الحصر بوجه لا يخص التكلم بالانبياء عليهم السلام ويدخل فيه خطاب مريم وما كان لأم موسى ومايقع للمحدثين من هذه الامة وغيرهم فحمل الوحى على ماذهب اليه الزمخشرى أولى . ثم أنه يلزم القاضى أن لا يكون ماوقع من وراء حجاب وحيا لا أنه يخصصه لأنه نظير قولك : ما كان لك أن تنعم الاعلى المساكين وزيد ، نعم يحتمل أن يكون زيد داخلا فيهم على نحو (ملائكته وجبريل) وهذا يضر القاضى لاقتضائه أن يكون هذا القسم أعنى ماوقع من وراء حجاب أعلا المراتب فلا يكون الثانى هو المشافهة ، وتقدير الاوحيا من غير حجاب أومن وراء حجاب خلاف الظاهر وفيه فك للنظم لقوله سبحانه : (أو يرسل) وهو عطف على قوله تعالى : (الا وحيا) مع كونه خلاف الظاهر *

وعلى هذا يفسد ما بنى عليه من حديث التنزل من القسم الاعلى إلى مادونه ، ومع ذلك لا يدل على عدم وقوع الرؤية فضلا عن جوازه بل دل على أنها لو وقعت لم يكن معها المكالمة وذلك هو الصحيح لأن الرؤية تستدعى الفناء والبقاء به عز وجل وهو يقتضى رفع حجاب المخاطب المستدعى كونا وجوديا ثم الكامل لتوفيته حق المقامات الكبرى يكون المحتظى منه بالشهود فى مقام البقاء المذكور ومع ذلك لا يمنعه عن حظه من سماع الخطاب لأنه حظ القلب المحجوب عن مقام الشهود، والمقصود أن الذى يصح ذوقا ونقلا وعقلا كون الخطاب من وراء حجاب البتة وهو صحيح لكن لا ينفع منكر الرؤية ولا مثبتها، وأما سؤال الترقى فى الاقسام فالجواب عنه أن الترقى حاصل بين الأول والثانى الذى له سمى التكليم كليما، وأما الثالث فلما كان تكليما مجازيا أخر عن القسمين ولم ينظر إلى أنه أشرف من القسم الأول فان ذلك الامر غير راجع إلى التكليم بل لأ[illegible] مخصوص بالانبياء عليهم السلام انتهى *

وتعقب ما اعترض به على القاضى بأنه لا يرد لأن الوحى بذلك المعنى بالتخصيص المذكور والتقييد المأخوذ من التقابل صار مغايرا لما بعده وليس من شىء من القبيلين حتى يذهب الى الترقى أو التدلى لأنه لا يعطف

بأو بل بالواو كما لا يخفى، ولزوم أن لا يكون الواقع من وراء حجاب وحيا غير مسلم لأنه إن أراد أن لا يكون وحيا مطلقا فغير صحيح لأن قوله تعالى بعده :فيوحى بأذنه قرينة على أن المراد بالوحى السابق وحى مخصوص كالذى بعده وإن أراد أنه لا يكون من الوحى المخصوص السابق فلا يضره لأنه عين ما عناه، نعم الحصر على ما ذهب اليه القاضى غير ظاهر الا بعد ملاحظة أنه مخصوص بما كان بالكلام فتدبر، والظاهر أن عائشة رضى الله تعالى عنها حملت الآية على نحو ما حملها المعتزلة، أخرج البخارى ومسلم . والترمذى عنها أنها قالت: من زعم أن محمدا رأى ربه فقد كذب ثم قرأت (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير . وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب) وأنت تعلم أن أكثر العلماء على أن النبى ﷺ رأى ربه سبحانه ليلة الاسراء لكثرة الروايات المصرحة بالرؤية نعم ليس فيها التصريح بأنها بالعين لكن الظاهر من الرؤية كونها بها، والمروى عن الاشعرى وجمع من المتكلمين أنه جل شأنه كلمه عليه الصلاة والسلام تلك الليلة بغير واسطة ويعزى ذلك الى جعفر بن محمد الباقر . وابن عباس . وابن مسعود رضى الله تعالى عنهم وهو الظاهر للاحاديث الصحاح فى مراداة الصلاة واستقرار الخمسين على الخمس وغير ذلك، وعائشة رضى الله تعالى عنها لم تنف الرؤية الا اعتمادا على الاستنباط من الآيات ولو كان معها خبر لذكرته، واحتجاجها بما ذكر من الآيات غير تام، أما عدم تمامية احتجاجها بآية لا تدركه الابصار فمشهور، وأما عدم تمامية الاحتجاج بالآية الثانية فلما سمعت عن صاحب الكشف قدس سره، وقال الخفاجى بعد تقرير الاحتجاج بأنه تعالى حصر تكليمه سبحانه للبشر فى الثلاثة : فاذا لم يره جل وعلا من يكلمه سبحانه فى وقت الكلام لم يره عز وجل فى غيره بالطريق الاولى واذا لم يره تعالى هو أصلا لم يره سبحانه غيره اذ لا قائل بالفصل، وقد أجيب عنه فى الاصول بأنه يحتمل أن يكون المراد حصر التكليم فى الدنيا فى هذه الثلاثة أو نقول يجوز أن تقع الرؤية حال التكليم وحيا اذ الوحى كلام بسرعة وهو لا ينافى الرؤية انتهى ، ولا يخفى عليك أن الجواب الأول لا ينفع فيما نحن بصدده الا بالتزام أن ما وقع لنبينا عليه الصلاة والسلام تلك الليلة لا يعد تكليما فى الدنيا على ماذكره الشرنبلالى فى اكرام أولى الالباب لأنه كان فى الملكوت الاعلى وأنه يستفاد من كلام صاحب الكشف منع ظاهر للشرطية فى وجه الاستدلال الذى قرره، وبعضهم أجاب بأن العام مخصص بغير ما دليل وفى البحر قيل وقالت قريش: ألا تكلم الله تعالى وتنظر اليه إن كنت نبيا صادقا كما كلم جل وعلا موسى ونظر اليه تعالى فقال لهم الرسول ﷺ: «لم ينظر موسى عليه السلام الى الله عز وجل فنزلت (وما كان لبشر) الآية» وهذا ظاهر فى أن الآية لم تتضمن التكليم الشفاهى مع الرؤية وكذا فيه ايضا كان من الكفار خوض فى تكليم الله تعالى موسى عليه السلام فذهبت قريش واليهود فى ذلك الى التجسيم فنزلت فان عدم تضمنها ذلك أدفع لتوهم التجسيم، وبالجملة الذى يترجح عندى ماقاله صاحب الكشف قدس سره أن الآية لا تنفع منكر الرؤية ولا مثبتها وماذكر من سبب النزول ليس بمتيقن الثبوت، ويفهم من كلام بعضهم أن الوحى كما يكون بالالقاء فى الروع يكون بالخط فقد قال النخعى كان فى الانبياء عليهم السلام من يخط له فى الارض، ومعناه اللغوى يشمل ذلك، فقد قال الامام أبو عبد الله التيمى الاصبهانى: الوحى أصله التفهيم وكل مافهم به شىء من الالهام والاشارة والكتب فهو وحى، وقال الراغب : أصل الوحى الاشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل أمر وحى وذلك يكون بالكلام على الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وباشارة ببعض الجوارح وبالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله تعالى: (فاوحى اليهم أن سبحوا بكرة) فقد

قيل رمز وقيل اعتبار وقيل كتب وجعل التسخير من الوحى أيضا وحمل عليه قوله تعالى: (وأوحى ربك الى النحل) وسيأتى ان شاء الله تعالى ما للصوفية قدست اسرارهم من الكلام فى هذه الآية، و«وحيا» على ماقال الزمخشرى مصدر واقع موقع الحال وكذا أن يرسل لأنه بتأويل ارسالا، و(من راء حجاب) ظرف واقع موقع الحال أيضا كقوله تعالى: (وعلى جنوبهم) والتقدير وماصح أن يكلم احدا فى حال من الاحوال إلا موحيا أو مسمعا من وراء حجاب أو مرسلا. وتعقبه أبو حيان فقال: وقوع المصدر حالا لا ينقاس فلا يجوز جاء زيد بكاء تريد باكيا، وقاس منه المبرد ما كان نوعا للفعل نحو جاء زيد مشيا أو سرعة ومنع سيبويه من وقوع أن مع الفعل موقع الحال فلا يجوز جاء زيد أن يضحك فى معنى ضحكا الواقع موقع ضاحكا *

وأجيب عن الاول بان القرآن يقاس عليه ولا يلزم ان يقاس على غيره مع انه قد يقال: يكتفى بقياس المبرد، وعن الثانى بانه علل المنع بكون الحاصل بالسبك معرفة وهى لا تقع حالا، وفى ذلك نظر لأنه غير مطرد ففى شرح التسهيل انه قد يكون نكرة أيضا الا تراهم فسروا (أن يفترى) بمفترى، وقد عرض ابن جنى ذلك على ابى على فاستحسنه، وعلى تسليم الاطراد فالمعرفة قد تكون حالا لكونها فى معنى النكرة كوحده، والاقتصار على المنع أولى لمكان التعسف فى هذا، واختار غير واحد ان وحيا بما عطف عليه منتصب بالمصدر لأنه نوع من الكلام أو بتقدير الا كلام وحى و(من وراء حجاب) صفة كلام أو سماع محذوف وصفة المصدر تسد مسده والارسال نوع من الكلام أيضا بحسب المآل والاستثناء عليه مفرغ من اعم المصادر، وقال الزجاج: قال سيبويه سألت الخليل عن قوله تعالى: (أو يرسل رسولا) بالنصب فقال: هو محمول على أن سوى هذه التى فى قوله تعالى: أن يكلمه الله لما يلزم منه أن يقال: ما كان لبشر أن يرسل الله رسولا وذلك غير جائز، والمعنى ما كان لبشر (أن يكلمه الله) الا بان يوحى أو أن يرسل، وعليه أن يقدر فى قوله تعالى: (أو من وراء حجاب) نحو أو أن يسمع من وراء حجاب وأى داع إلى ذلك مع ما سمعت ؟ واختلف فى الاستثناء هل هو متصل أو منقطع وأبو البقاء على الانقطاع. وتعقبه بعضهم بان المفرغ لا يتصف بذلك والبحث شهير. وقرأ ابن أبى عبلة (أو من وراء حجب) بالجمع. وقرأ نافع. وأهل المدينة (أو يرسل رسولا فيوحى) برفع الفعلين ووجهوا ذلك بأنه على اضمار مبتدأ اى هو يرسل أو هو معطوف على «وحيا» أو على ما يتعلق به (من وراء) بناء على أن تقديره أو يسمع من وراء حجاب، وقال العلامة الثانى: إن التوجيه الثانى وما بعده ظاهر وهو عطف الجملة الفعلية الحالية على الحال المفردة، وأما اضمار المبتدأ فان حمل على هذا فتقدير المبتدأ لغو، وان أريد انها مستأنفة فلا يظهر ما يعطف عليه سوى « ماكان لبشر» الخ وليس بحسن الانتظام. وتعقب بانه يجوز أن يكون تقدير المبتدأ مع اعتبار الحالية بناء على أن الجملة الاسمية التى الخبر فيها جملة فعلية تفيد ما لا تفيده الفعلية الصرفة مما يناسب حال ارسال الرسول، أو يقال: لا نسلم أن العطف على «ماكان لبشر» ليس بحسن الانتظام، وفيه دغدغة لا تخفى، وفى الآية على ماقال ابن عطية دليل على أن من حلف أن لا يكلم فلانا فأرسله حنث لاستثنائه تعالى الارسال من الكلام، ونقله الجلال السيوطى فى احكام القرآن عن مالك وفيه بحث والله تعالى الهادى *

﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ ﴾ متعال عن صفات المخلوقين ﴿ حَكِيمٌ ٥١ ﴾ يجرى سبحانه أفعاله على سنن الحكمة فيكلم

تارة بواسطة وأخرى بدونها اما الهاما وإما خطابا أو إما عيانا وإما خطابا من وراء حجاب على ماية تضيه الاختلاف السابق فى تفسير الآية ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أى ومثل هذا الايحاء البديع على أن الاشارة لما بعد ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ وهو ما أوحى اليه عليه الصلاة والسلام أو القرآن الذى هو للقلوب بمنزلة الروح للابدان حيث يحييها حياة أبدية ، وقيل : أى ومثل الايحاء المشهور لغيرك أوحينا اليك ، وقيل: أى ومثل ذلك الايحاء المفصل أوحينا اليك إذ كان عليه الصلاة والسلام اجتمعت له الطرق الثلاث سواء فسر الوحى بالالقاء أم فسر بالكلام الشفاهى ، وقد ذكر أنه عليه الصلاة والسلام قد ألقى اليه فى المنام كما ألقى إلى إبراهيم عليه السلام والقى اليه عليه الصلاة والسلام فى اليقظة على نحو القاء الزبور إلى داود عليه السلام *

فنى الكبريت الأحمر للشعرانى نقلا عن الباب الثانى من الفتوحات المكية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى القرآن مجملا قبل جبريل عليه السلام من غير تفصيل الآيات والسور . وعن ابن عباس تفسير الروح بالنبوة *

وقال الربيع : هو جبريل عليه السلام ، وعليه فأوحينا مضمن معنى ارسلنا ، والمعنى أرسلناه بالوحى اليك لأنه لا يقال : أوحى الملك بل أرسله *

ونقل الطبرسى عن أبى جعفر . وأبى عبد الله رضى الله تعالى عنهما أن المراد بهذا الروح ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يصعد إلى السماء ، وهذا القول فى غاية الغرابة ولعله لا يصح عن هذين الامامين ، وتنوين (روحا) للتعظيم أى روحا عظيما ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَـٰبُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ الظاهر أن ما الأولى نافية والثانية استفهامية فى محل رفع على الابتداء و (الكتاب) خبر ، والجملة فى موضع نصب بتدرى وجملة (ما كنت) الخ حالية من ضمير (أوحينا) أو هى مستانفة والمضى بالنسبة إلى زمان الوحى *

واستشكلت الآية بأن ظاهرها يستدعى عدم الاتصاف بالايمان قبل الوحى ولا يصح ذلك لأن الأنبياء عليهم السلام جميعا قبل البعثة مؤمنون لعصمتهم عن الكفر باجماع من يعتد به ، وأجيب بعدة أجوبة ، الأول أن الايمان هنا ليس المراد به التصديق المجرد بل مجموع التصديق والاقرار والاعمال فانه كما يطلق على ذلك يطلق على هذا شرعا ، ومنه قوله تعالى : (وما كان الله ليضيع ايمانكم) والاعمال لا سبيل إلى درايتها من غير سمع فهو مركب والمركب ينتفى بانتفاء بعض أجزائه فلا يلزم من انتفاء الايمان المركب بانتفاء الأعمال انتفاء الايمان بالمعنى الآخر أعنى التصديق وهو الذى أجمع العلماء على اتصاف الانبياء عليهم السلام به قبل البعثة ، ولذا عبر بتدرى دون أن يقال: لم تكن مؤمنا وهو جواب حسن ولا يلزمه نفى الايمان عمن لا يعمل الطاعات ليكون القول به اعتزالا كما لا يخفى *

الثانى أن الايمان إنما يعنى به التصديق بالله تعالى وبرسوله عليه الصلاة والسلام دون التصديق بالله عز وجل ودون ما يدخل فيه الأعمال والنبى ﷺ مخاطب بالايمان برسالة نفسه كما أن أمته صلى الله تعالى عليه وسلم مخاطبون بذلك ، ولا شك أنه قبل الوحى لم يكن عليه الصلاة والسلام يعلم أنه رسول الله وما علم ذلك إلا بالوحى فاذا كان الايمان هو التصديق بالله تعالى ورسوله ﷺ ولم يكن هذا المجموع ثابتا قبل الوحى بل كان الثابت هو التصديق بالله تعالى خاصة المجمع على اتصاف الأنبياء عليهم السلام به قبل البعثة استقام نفى الايمان قبل الوحى وإلى هذا ذهب ابن المنير . الثالث أن المراد شرائع الايمان ومعالمه مما لا طريق اليه إلا السمع واليه ذهب محيى السنة البغوى وقال : إن النبى ﷺ كان قبل الوحى على دين إبراهيم عليه السلام ولم تتبين له عليه الصلاة

والسلام شرائع دينه، ولايخفى أنه إذا لم يعتبر كون الكلام على حذف مضاف يلزمه إطلاق الايمان على الأعمال وحدها وهو خلاف المعروف . الرابع أن الكلام على تقدير مضاف فقيل التقدير دعوة الايمان أي ما كنت تدري كيف تدعو الخلق إلى الايمان واليه يشير كلام أبي العالية ه

وقال الحسين بن الفضل : أي أهل الايمان أي لا تدري من الذي يؤمن، وأنت تدري أنه لا يرتضي هذا إلا من لا يدري . الخامس المراد نفي دراية المجموع أي ما كنت تدري قبل الوحي مجموع الكتاب والايمان فلا ينافي كونه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدري الايمان وحده ويأباه اعادة (لا) السادس أن المراد ما كنت تدري ذلك اذ كنت في المهد واليه ذهب علي بن عيسى وهو خلاف الظاهر، والظاهر أن المراد استمرار النفي إلى زمن الوحي، وظاهر كلام الكشف يميل إلى اعتبار نحو ذلك القيد قال : لعل الأشبه أن الايمان على ظاهره والآية واردة في معرض الامتنان والايحاء يشمل الالقاء في الروع و إرسال الرسول فالايمان عرفه بالأول والكتاب بالثاني على أن الآية تدل على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم عرفهما بعد أن لم يكن عارفا وهو كذلك أما أنه عليه الصلاة والسلام عرفهما بعد الوحي فلا فجاز أن يعرفهما به وجاز أن يعرف واحدا منهما معينا به . وقد دل الدليل على أن المعرف به هو الكتاب والايمان بعد العقل وقبل الوحي ، والتمسك به على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن متعبداً بشرع من قبله ضعيف لأن عدم الدراية لا يلزمه عدم التعبد بل يلزمه سقوط الاثم إن لم يكن تقصيرا انتهى ه

وأنت تعلم أن المتبادر أنه عليه الصلاة والسلام عرفهما بعد الوحي، وأما قوله قدس سره في تضعيف التمسك بذلك على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن متعبدا بشرع من قبله أن عدم الدراية لا يلزمه عدم التعبد فقد قيل عليه :إنه ساقط لأنه عليه الصلاة والسلام اذا لم يدر شرعا فكيف يتعبد به، وقد يجاب بأن مراد المدقق أن الدراية المنفية الدراية بمعنى العلم الجازم الثابت المطابق للواقع وعدمها لا يلزمه عدم التعبد اذ يكفي في التعبد بشرع من قبله عليه الصلاة والسلام الظن الراجح ثبوته فلعله كان حاصلا له صلى الله تعالى عليه وسلم ه

ومثل هذا الظن يكفي المتعبدين اليوم بشرع نبينا عليه الصلاة والسلام فان أكثر الفروع ظنية، ومن يتتبع الاخبار يعلم أن العرب لم يزالوا على بقايا من دين ابراهيم عليه السلام من الحج والختان وايقاع الطلاق والغسل من الجنابة وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر وغير ذلك وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان أحرص الناس على اتباع دين ابراهيم عليه السلام . وفي الصحيح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان أي قبل البعثة يتحنث بغار حراء، وفسر التحنث بالتحنف أي اتباع الحنيفية وهي دين ابراهيم عليه الصلاة والسلام، والفاء تبدل ثاء في كثير من كلامهم وفي رواية ابن هشام في السير يتحنف بالفاء بدل الثاء، نعم فسر أيضا بالتعبد كما في صحيح البخاري وباتقاء الحنث أي الاثم كالتحرج والتأثم وكل ذلك مما ذكره الحافظ القسطلاني في شرح الصحيح ه

ثم إن الظاهر أن من قال :انه صلى الله تعالى عليه وسلم كان متعبدا بشرع من قبله ليس مراده أنه عليه الصلاة والسلام كان متعبدا بجميع شرع من قبله بل بما ترجح عنده صلى الله تعالى عليه وسلم ثبوته . والذي ينبغي أن يرجح كون ذلك من شرع ابراهيم عليه السلام لأنه من ذريته عليهما الصلاة والسلام وقد كانت العرب بدينه ه

وقال بعضهم: إن عبادته صلى الله تعالى عليه وسلم التفكر والاعتبار، ولعله أيضا مما ترجح عنده عليه الصلاة والسلام كونه من شريعته عليه السلام وربما يقال: بما علمه صلى الله تعالى عليه وسلم لا على ذلك الوجه من

شرع من قبله أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يزل موحى اليه وأنه عليه الصلاة والسلام متعبد بما يوحى اليه الا أن الوحى السابق على البعثة كان القاء ونفثا فى الروع وما عمل بما كان من شرائع أبيه ابراهيم عليهما الصلاة والسلام الا بواسطة ذلك الالقاء. واذا كان بعض اخوانه من الانبياء عليهم السلام قد أوتى الحكم صبيا ابن سنتين أو ثلاث فهو عليه الصلاة والسلام أولى بأن يوحى اليه ذلك النوع من الايحاء صبيا أيضا * ومن علم مقامه صلى الله تعالى عليه وسلم وصدق بأنه الحبيب الذى كان نبيا وآدم بين الماء والطين لم يستبعد ذلك فتأمل *

﴿ وَلَـٰكِنْ جَعَلْنَاهُ ﴾ أى الروح الذى أوحيناه اليك، وقال ابن عطية. الضمير للكتاب ، وقيل : للايمان ورجح بالقرب، وقيل: للكتاب والايمان ووحد لأن مقصدهما واحد فهو نظير (والله ورسوله أحق أن يرضوه) *

﴿ نُوراً ﴾ عظيما ﴿ نَّهْدِى بِهِ مَنْ نَّشَاءُ ﴾ هدايته ﴿ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهو الذى يصرف اختياره نحو الاهتداء به والجملة أما مستأنفة أو صفة (نورا) وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى ﴾ تقرير لهدايته، وبيان لكيفيتها، ومفعول (لتهدى) محذوف ثقة بغاية الظهور أى وإنك لتهدى بذلك النور من تشاء هدايته ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٢ ﴾ هو الاسلام وسائر الشرائع والاحكام، وقرأ ابن السميقع (لتهدى) بضم التاء وكسر الدال من أهدى، وقرأ حوشب (لتهدى) مبنيا للمفعول أى ليهديك الله وقرئ لتدعو ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ بدل من الأول واضافته الى الاسم الجليل ثم وصفه بقوله تعالى: ﴿ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيد وجوب سلوكه فان كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى خلقا وملكا وتصرفا مما يوجب ذلك أتم ايجاب *

﴿ أَلَآ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ٥٣ ﴾ أى امور من فيهما قاطبة لا الى غيره تعالى وذلك بارتفاع الوسائط يوم القيامة ففيه من الوعد للمهتدين الى الصراط المستقيم والوعيد للضالين عنه ما لا يخفى، وصيغة المضارع على ما قررنا على ظاهرها من الاستقبال، وقال فى البحر: المراد بها الاستمرار كما فى زيد يعطى أى من شأنه ذلك ، والاول أظهر والله تعالى أعلم *

﴿ ومما قاله أرباب الاشارات فى بعض الآيات ﴾ قال سبحانه: «ولتنذر أم القرى ومن حولها» قيل يشير ذلك الى انذار نفسه الشريفة لأنها أم قرى نفوس آدم وأولاده لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم أول العالمين خلقا ومنه عليه الصلاة والسلام نشأت الارواح والنفوس ومن هذا كان آدم ومن دونه تحت لوائه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد أشار الى ذلك سلطان العاشقين عمر بن الفارض بقوله على لسان الحقيقة المحمدية:

وانى وإن كنت ابن آدم صورة ... فلى منه معنى شاهد بأبوتى

وقوله سبحانه :(ومن حولها) يشير إلى نفوس أهل العالم وقد أنذر ﷺ كلا حسب استعداده ، وقيل : فى قوله تعالى: (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) انه يشير إلى التنزيه والتشبيه، وقرر ذلك الشيخ الاكبر قدس سره بما يطول (له مقاليد السموات والأرض) أى مفاتيح سموات القلوب وفيها خزائن لطفه تعالى ورحمته عز وجل وأرض النفوس وفيها خزائن قهره سبحانه وعزته جل جلاله فكل قلب مخزن لنوع من ألطافه كالمعرفة والمحبة والشوق والتوحيد والهيبة والانس والرضا إلى غير ذلك، وقد يجتمع فى القلب خزائن وكل نفس مخزن لنوع من آثار قهره كالنكرة والجحود والانكار والشرك والنفاق والحرص والكبر والبخل والشره وغير ذلك، وقد

يجتمع فى النفس خزائن، وفائدة الاخبار بأن له سبحانه مقاليد ذلك قطع أفكار العباد عمن سواه سبحانه فى جلب مايريدونه ودفع مايكرهونه (الله يجتبي اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب) يشير إلى مقامى المجذوب والسالك فالمجذوب من الخواص اجتباه ربه سبحانه فى الازل وسلكه فى مسلك من يحبهم واصطنعه سبحانه لنفسه جل شأنه وجذبه تعالى عن الدارين بجذبة توازى عمل الثقلين فهو فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، والسالك من العوام سلكه فى سلك من يحبونه بالتوفيق للهداية والقيام على قدمى الجهد والانابة إلى سبيل الرشاد من طريق العناد (والذين يحاجون فى الله من بعد مااستجيب له) يشير إلى الذين يجادلون فى معرفة الله تعالى بشبه العقل الذى استجاب له تعالى حين دعاه فوصل الى الحضرة فهو فى كشف وعيان وأولئك من وراء مايزعمون انه برهان (ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) يشير الى كفار النفوس فانهم شرعوا عند استيلائهم للارواح والقلوب مالم يرض به الله تعالى من مخالفات الشريعة وموافقات الطبيعة « الله لطيف بعباده » يشير الى عموم لطفه تعالى وهو أنواع لاتحصى ومراتب لا تستقصى.

وروى السلمى عن سيد الطائفة قدس سره اللطيف من نور قلبك بالهدى وربى جسمك بالغذاء ويخرجك من الدنيا بالايمان ويحرسك من نار لظى ويمكنك حتى تنظر وترى هذا لطف اللطيف بالعبد الضعيف (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) استعملوا تكاليف الشرع لقمع الطبع وكسر الهوى وتزكية النفس وتصفية القلب وجلاء الروح « فى روضات الجنات » فى الدنيا جنات الوصلة والمعارف وطيب الانس فى الخلوة والآخرة فى روضات الجنة « لهم ما يشاؤن عند ربهم » حسب مراتبهم فى القربات والوصلات والمكاشفات ونيل الدرجات وعلى قدر هممهم « قل لا أسئلكم عليه أجراً الا المودة فى القربى » وهم أقاربه صلى الله تعالى عليه وسلم الذين خلقوا من عنصره الشريف وتحلوا بحلاه المنيف كأئمة أهل البيت ومودتهم يعود نفعها الى من يودهم لأنها سبب للفيض وهم رضى الله تعالى عنهم أبوابه وفى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « أنا مدينة العلم وعلى بابها » رمز الى ذلك فافهم الاشارة « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده » لمزيد كرمه جل شأنه فمتى وفق عبدا للتوبة قبلها جودا وكرما وعن بعضهم أنه قال لبعض المشايخ : إن تبت فهل يقبلنى الله تعالى؟ فقال: ان يقبلك الله تعالى تتب اليه سبحانه فقبول الله تعالى سابق على التوبة « ويزيدهم من فضله » اشارة الى الرؤية فان الجنان ونعيمها مخلوقة تقع فى مقابلة مخلوق وهو عمل العمال والرؤية مما تتعلق بالقديم فلا تقع الا فضلا ربانيا، وفى بعض الاخبار أن هذه الزيادة أن يشفعهم فى اخوان اخوانهم « استجيبوا لربكم » الاستجابة للعوام بالوفاء بعهده تعالى والقيام بحقه سبحانه والرجوع عن مخالفته جل شأنه الى موافقته عز وجل، وللخواص بالاستسلام للاحكام الازلية والاعراض عن الدنيا وزينتها وشهواتها، ولأخص الخواص من أهل المحبة بصدق الطلب بالاعراض عن الدارين والتوجه لحضرة الجلال ببذل الوجود فى نيل الوصول والوصال « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما » قيل فيه اشارة الى أحوال المشايخ من حيث المريدين فمنهم من يهب الله تعالى له ومنهم من لا تصرف له فى غيره بالتخريج والتسليك وهو أشبه شىء بالانثى من حيث عدم التصرف ومنهم من يهب سبحانه له من له قدرة التصرف بالتخريج والتسليك وهو أشبه شىء بالذكر ومنهم من يهب له تعالى هذا وهذا ومنهم من يجعله جل وعلا عقيما لامريد له أصلا « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء انه علي حكيم » قال سيدى الشيخ

عبدالوهاب الشعراني فى تفسيره الآية المذكورة: اعلم أن المانع من سماع كلام الحق انما هو البشرية فاذا ارتفع العبد عنها كلمه الله تعالى من حيث كلم سبحانه الارواح المجردة عن المواد، والبشر ماسمى بشرا إلا لمباشرته الامور التى تعوقه عن اللحوق بدرجة الروح فلما لم يلحق كلمه الله تعالى فى الاشياء وتجلى سبحانه له فيها بخلاف من لحق كالانبياء عليهم السلام فلا يتجلى الحق سبحانه لغيرهم الا فى حجاب الصور ولولا هدايته تعالى للعبد ما عرف أنه سبحانه ربه، واعلم أن الحقيقة تأبى أن يكلم الله تعالى غير نفسه أو يسمع غير نفسه فلا بد اذا خاطب عبدا على قصد اسماعه أن يكون جميع قواه لأنه محال أن يطيق الحادث سماع كلام القديم ولم يكن الحق سبحانه قواه عند النجوى ولذلك خر موسى عليه السلام صعقا اذ لم يكن له استعداد يقبل به التجلى اللائق بمقامه وثبت نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ولما لم يكن للجبل درجة المحبة التى يكون بها الحق سمع عبده وبصره وجميع قواه لم يقدر على سماع الخطاب فدك، واعلم أن حديث الحق سبحانه للخلق لايزال أبدا غير أن من الناس من يفهم أنه حديث كعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ومن ورثه من الاولياء ومنهم من لايعرف ذلك ويقول: ظهرلى كذا وكذا ولايعرف أن ذلك من حديث الحق سبحانه معه وكان شيخنا يقول: كان عمر من أهل السماع المطلق الذى يحدثهم الله تعالى فى كل شيء ولكن له ألقاب وهو انه ان أجابوه به تعالى فهو حديث وان أجابوه بهم فهى محادثة وان سمعوا حديثه سبحانه فليس بحديث فى حقهم وانما هو خطاب أو كلام، وقد ورد فى المتهجدين انهم اهل المسامرة فقد علمت أن الوحى ما يلقيه الله تعالى فى قلوب خواص عباده على جهة الحديث فيحصل لهم من ذلك علم بامر ما فان لم يكن كذلك فليس بوحى ولا خطاب فان بعض الناس يجدون فى قلوبهم علما بامر ما مثل العلوم الضرورية عند الناس فهو علم صحيح لكن ليس صادرا عن خطاب وكلامنا انما هو فى الخطاب الالهى المسمى وحيا فان الله تعالى جعل هذا الصنف من الوحى كلاما يستفيد به العلم من جاءه *

واعلم أنه لاينزل على قلوب الأولياء من وحى الالهام إلا دقائق ممتدة من الأرواح الملكية لانفس الملائكة لأن الملك لا ينزل بوحى على غير نبي أصلا ولا يأمر بامر إلهى قطعا لأن الشريعة قد استقرت فلم يبق إلا وحى المبشرات وهو الوحى الأعم ويكون من الحق إلى العبد من غير واسطة ويكون أيضا بواسطة والنبوة من شأنها الواسطة فلابد من واسطة الملك فيها لكن الملك لايكون حال القائه ظاهرا بخلاف الأنبياء عليهم السلام فانهم يرون الملك حال الكلام والولى لا يشهد الملك إلا فى غير حال الالقاء فان سمع كلامه لم يره وإن رآه لايكلمه فالعارفون لاينالون مافاتهم من النبوة مع بقاء المبشرات عليهم الا أن الناس يتفاضلون فمنهم من لايبرح فى بشارة الواسطة ومنهم من يرتفع عنها كالأفراد فان لهم المبشرات بارتفاع الوسائط وما لهم النبوات ولهذا ينكر عليهم الاحكام لأنهم ضاهوا الأنبياء من حيث كونهم يعملون بما يرونه من تعريفات الحق لهم كأنه شريعة مستقلة فى الظاهر وليس ذلك بشريعة إنما هو بيان لها فالمنقطع إنما هو وحى التشريع لا غير أما التعريف لأمور مجملة فى السنة فهو باق لهذه الأمة ليكونوا على بصيرة فيما يدعون الناس اليه لأنه خبر إلهى وأخبار من الله تعالى للعبد على يد ملك مغيب على هذا الملهم، ولايكون الالهام إلا فى الخير و(ألهمها) فجورها على معنى إلهامها اياه لتجتنبه كما أن إلهامها تقواها لتعمل بها، وأكمل الالهام أن يلهم اتباع الشرع والنظر فى الكتب الالهية ويقف عند حدودها وأوامرها حتى يزول صدى طبيعته وتنتقش فيها صور العالم، وأما قوله تعالى: (أو من وراء

حجاب) فهو خطاب الهى يلقيه على السمع لا على القلب فيدركه من ألقى اليه فيفهم منه ما قصده من يسمعه ذلك وقد يحصل له ذلك فى صورة التجلى فتخاطبه تلك الصورة وهى عين الحجاب فيفهم من ذلك الخطاب علم مايدل عليه ويعلم أن ذلك حجاب وأن المتكلم من وراء ذلك الحجاب وكل من أدرك صورة التجلى الالهى يعلم أن ذلك هو الله تعالى فما يزيد صاحب هذا الحال على غيره الا بمعرفته أن المخاطب لمن وراء الحجاب ه

وأما قوله تعالى : (أو يرسل رسولا) فهو ماينزل به الملك أوما يجىء به الرسول البشرى الينا اذا نقلا كلام الله تعالى خاصة كالتالين فان نقلا علما وجداه فى أنفسهما وأفصحا عنه فذلك ليس بكلام الهى، ومن الأولياء من يعطى الترجمة عن الله سبحانه فى حال الالقاء والوحى الخاص بكل انسان فيكون المترجم موجدا لصور الحروف اللفظية أو المرقومة ويكون روح تلك الصور كلام الله عز وجل لاغير، وقد يقول الولى : حدثنى قلبى عن ربى يعنى به من الوجه الخاص فاعلم ذلك وتأمل ماقررته لك فانه نفيس والله تعالى يتولى هداك ، وله قدس سره كلام كثير فى هذا المقام تركناه خوف الاطالة، ولعل فيماذكرناه كفاية لذوى الافهام (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا) وهو مابه الحياة الطيبة الأبدية « ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان » قبل الايحاء ه

قيل : أشير بذا الايحاء الى الايحاء فى هذه النشأة وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم فى كل حال من أحواله فيها نوع من الوحى والدراية المنفية اذ كان عليه الصلاة والسلام فى كينونته قبل اخراجه منها بتجلى كينونته عز وجل والا فهو صلى الله تعالى عليه وسلم نبى ولا آدم ولا ماء ولا طين ولا يعقل نبى بدون ايحاء (وانك لتهدى الى صراط مستقيم) وهو التوحيد السليم من زوايا الأغيار ويشير الى ذلك قوله تعالى :(ألا الى الله تصير الأمور) تمت السورة بتوفيق الله عز وجل والصلاة والسلام على أول نور أشرق من شمس الأزل وبها والحمد لله تعالى ه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الشُّورَى

مكيّة في قول الحسن وعِكْرِمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1] إلى آخرها. وهي ثلاث وخمسون آية.

[١] ﴿حمٓ ۝١﴾.

[٢] ﴿عٓسٓقٓ ۝٢﴾.

[٣] ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾.

[٤] ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ. عٓسٓقٓ﴾ قال عبد المؤمن: سألت الحسين بن الفضل: لم قطع ﴿حمٓ﴾ من ﴿عٓسٓقٓ﴾ ولم تقطع ﴿كهيعص﴾ و ﴿الٓمٓرٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾؟ فقال: لأن ﴿حم. عسق﴾ بين سُوَرٍ أوّلها ﴿حم﴾ فجرتْ مجرى نظائرها قبلها وبعدها؛ فكأن ﴿حم﴾ مبتدأ و ﴿عسق﴾ خبره. ولأنها عدّت آيتين، وعدّت أخواتها اللواتي كتبت جملة آية واحدة. وقيل: إن الحروف المُعجمة كلها في المعنى واحد، من حيث إنها أس البيان وقاعدة الكلام؛ ذكره الجُرْجَانِيّ. وكتبت ﴿حم. عسق﴾ منفصلاً و ﴿كهيعص﴾ متصلاً لأنه قيل: حمّ؛ أي حمّ ما هو كائن، ففصّلوا بين ما يقدّر فيه فعل وبين ما لا يقدّر. ثم لو فُصل هذا ووُصِل ذا لجاز؛ حكاه القُشيريّ. وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس ﴿حم. سق﴾ قال ابن عباس:

(١) آية ٢٣.

وكان عليّ رضي الله عنه يعرف الفتن بها. وقال أرطاة بن المنذر: قال رجل لابن عباس وعنده حذيفة بن اليمان: أخبرني عن تفسير قوله تعالى: ﴿حم. عسق﴾؟ فأعرض عنه حتى أعاد عليه ثلاثاً فأعرض عنه. فقال حذيفة بن اليمان: أنا أنبئك بها، قد عرفت لِمَ تركها؛ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله أو عبد الله؛ ينزل على نهر من أنهار المشرق، يبني عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقاً، فإذا أراد الله زوال مُلكهم وانقطاع دولتهم، بعث على إحداهما ناراً ليلاً فتصبح سوداءَ مظلمة، فتحترق كلها كأنها لم تكن مكانها، فتصبح صاحبتها متعجبة، كيف قُلبت! فما هو إلا بياض يومها حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد، ثم يخسف الله بها وبهم جميعاً؛ فذلك قوله: ﴿حم. عسق﴾. أي عزمة[1] من عزمات الله وفتنة وقضاء حُمّ: حمّ. ﴿ع﴾: عدلاً منه، ﴿س﴾: سيكون، ﴿ق﴾: واقع في هاتين المدينتين.

ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البَجَليّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُبنى مدينة بين دجْلة ودُجيل وقُطْرَبُّل[2] والصَّراة يجتمع فيها جبابرة الأرض تجبى إليها الخزائن يخسف بها ـ وفي رواية بأهلها ـ فَلَهِيَ أسرع ذهاباً في الأرض من الوَتِد الجيّد في الأرض الرَّخوة». وقرأ ابن عباس ﴿حمَ. سَقَ﴾ بغير عين. وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود؛ حكاه الطبريّ. وروى نافع عن ابن عباس: ﴿الحاء﴾ حلمه[3]، و ﴿الميم﴾ مجده، و ﴿العين﴾ علمه، و ﴿السين﴾ سَنَاه، و ﴿القاف﴾ قدرته؛ أقسم الله بها. وعن محمد بن كعب: أقسم الله بحلمه ومَجْده وعلوّه وسَنَاه وقدرته ألا يُعذِّب من عاذ بلا إلٰه إلا الله مخلصاً من قلبه. وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جبير: ﴿الحاء﴾ من الرحمن، و ﴿الميم﴾ من المجيد، و ﴿العين﴾ من العليم، و ﴿السين﴾ من القدّوس، و ﴿القاف﴾ من القاهر. وقال مجاهد: فواتح السور. وقال عبد الله بن بُريدة: إنه اسم الجبل المحيط بالدنيا. وذكر القشيريّ واللفظ للثعلبيّ: أن النبيّ ﷺ لمّا نزلت هذه الآية عُرفت الكآبة في وجهه؛

(١) أي حق من حقوقه.
(٢) وروي بفتح أوله وطائه.
(٣) في بعض النسخ: «حكمه» بالكاف.

فقيل له: يا رسول الله، ما أحزنك؟ قال: «أخبِرت ببلايا تنزل بأمتي من خَسْف وقذف ونارٍ تحشرهم وريح تقذفهم في البحر وآياتٍ متتابعات متّصلات بنزول عيسى وخروج الدجال». والله أعلم. وقيل: هذا في شأن النبيّ ﷺ؛ فـ ﴿ـالحاء﴾ حوضه المورود، و ﴿الميم﴾ ملكه الممدود، و ﴿العين﴾ عزّه الموجود، و ﴿السين﴾ سناه المشهود، و ﴿القاف﴾ قيامه في المقام المحمود، وقربه في الكرامة[١] من الملِك المعبود. وقال ابن عباس: ليس من نبيّ صاحب كتاب إلا وقد أوحي إليه: ﴿حمٓ. عٓسٓقٓ﴾؛ فلذلك قال: ﴿يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾. المهدويّ: وقد جاء في الخبر أن «﴿حم. عسق﴾ معناه أوْحيت إلى الأنبياء المتقدّمين». وقرأ ابن مُحَيْصِن وابن كَثير ومجاهد ﴿يوحَى﴾ (بفتح الحاء) على ما لم يسم فاعله؛ وروي عن ابن عمر. فيكون الجار والمجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل. ويجوز أن يكون اسم ما لم يسمّ فاعله مضمراً؛ أي يوحى إليك القرآن الذي تضمّنته هذه السورة، ويكون اسم الله مرفوعاً بإضمار فعل، التقدير: يوحيه الله إليك؛ كقراءة ابن عامر وأبي بكر ﴿يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ﴾ أي يسبّحه رجال. وأنشد سيبويه:

لِيُبْكَ يـزِيـدُ ضـارعٌ بخصـومـة وأشعثُ ممن طوّحته الطوائح[٢]

فقال: لِيُبْكَ يزيدُ، ثم بيّن من ينبغي أن يبكيه، فالمعنى يبكيه ضارع. ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف؛ كأنه قال: الله يوحيه. أو على تقدير إضمار مبتدأ أي الموحي الله. أو يكون مبتدأ والخبر ﴿العزيزُ الحكِيمُ﴾. وقرأ الباقون ﴿يوحِي إِليك﴾ بكسر الحاء، ورفع الاسم على أنه الفاعل. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ تقدّم في غير موضع[٣].

---

(١) في نسخة من الأصل: «وقربه يوم القيامة من الملك...».

(٢) رواية البيت كما في كتاب سيبويه وخزانة الأدب:

ليبـك يـزيـد ضـارع لخصـومـة ومختبـط ممـا تطيـح الطـوائـح

وهذا البيت نسبه سيبويه للحارث بن نهيك. ونسبه صاحب خزانة الأدب لنهشل بن حريّ في مرثية يزيد. (راجع الشاهد الخامس والأربعين).

(٣) راجع ٢/ ٦٩ طبعة ثانية. و ٣/ ٢٧٨.

[٥] ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ قراءة العامة بالتاء. وقرأ نافع وابن وَثّاب والكسائيّ بالياء. ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ قرأ نافع وغيره بالياء والتاء والتشديد في الطاء، وهي قراءة العامة. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر والمفضّل وأبو عبيد ﴿ينفطرن﴾ من الانفطار؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ وقد مضى في سورة «مريم» بيان هذا[1]. وقال ابن عباس: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي تكاد كل واحدة منها تنفطر فوق التي تليها؛ من قول المشركين: ﴿اتَّخذ اللَّهُ وَلَداً﴾[2]. وقال الضّحاك والسُّدِّي: ﴿يتفطرن﴾ أي يتشققن من عظمة الله وجلاله فوقهن. وقيل: ﴿فوقهن﴾، فوق الأرضين من خشية الله لو كنّ مما يعقل.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي ينزّهونه عما لا يجوز في وصفه وما لا يليق بجلاله. وقيل: يتعجّبون من جرأة المشركين؛ فيُذكر التسبيح في موضع التعجّب. وعن علي رضي الله عنه: أن تسبيحهم تعجّب مما يرون من تعرّضهم لسخط الله. وقال ابن عباس: تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله. ومعنى ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ بأمر ربهم؛ قاله السُّدّي. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ قال الضحاك: لمن في الأرض من المؤمنين؛ وقاله السدي: بيانه في ﴿سورة المؤمن﴾: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِين آمنوا﴾[3]. وعلى هذا تكون الملائكة هنا حملة العرش. وقيل: جميع ملائكة السماء؛ وهو الظاهر من قول الكَلْبيّ. وقال وهب بن منبّه: هو منسوخ بقوله: ﴿ويَسْتَغْفِرون لِلَّذِين آمنوا﴾. قال المهدوِيّ: والصحيح أنه ليس بمنسوخ؛ لأنه خبر، وهو خاص للمؤمنين. وقال أبو الحسن الماوَرْدِيّ عن الكلبيّ: إن الملائكة لما رأت المَلَكَين اللّذَين اختُبِرا وبُعِثا إلى الأرض ليحكما بينهم، فافتتنا بالزّهرة

(١) راجع ١١/١٥٦.
(٢) آية ١١٦ سورة البقرة.
(٣) آية ٧.

وهربا إلى إدريس ـ وهو جَدّ أبي نوح عليهما السلام ـ وسألاه أن يدعُوَ لهما، سبّحت الملائكة بحمد ربهم واستغفرت لبني آدم. قال أبو الحسن بن الحصار: وقد ظن بعض مَن جهل أن هذه الآية نزلت بسبب هاروت وماروت، وأنها منسوخة بالآية التي في المؤمن، وما علموا أن حملة العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين خاصة، ولله ملائكة أخر يستغفرون لمن في الأرض. الماورديّ: وفي استغفارهم لهم قولان: **أحدهما** ـ من الذنوب والخطايا؛ وهو ظاهر قول مقاتل. **الثاني** ـ أنه طلب الرزق لهم والسَّعة عليهم؛ قاله الكلبيّ.

قلت: وهو أظهر، لأن الأرض تعمّ الكافر وغيره، وعلى قول مقاتل لا يدخل فيه الكافر. وقد رُوي في هذا الباب خبر رواه عاصم الأحْول عن أبي عثمان عن سَلْمان قال: إن العبد إذا كان يذكر الله في السَّرَّاء فنزلت به الضَّراء قالت الملائكة: صوت معروف من آدميّ ضعيف، كان يذكر الله تعالى في السراء فنزلت به الضراء؛ فيستغفرون له. فإذا كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء قالت الملائكة: صوت منكر من آدميّ كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء؛ فلا يستغفرون. وهذا يدلّ على أن الآية في الذاكرِ لله تعالى في السراء والضراء، فهي خاصّة ببعض مَن في الأرض من المؤمنين. والله أعلم. ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران في قوله تعالى: ﴿إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السَّمَواتِ والأَرْضَ أنْ تَزُولا[١] ـ إلى أن قال ـ إنّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَإنّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنّاسِ عَلَى ظُلْمِهِم﴾[٢]. والمراد الحلم عنهم وألا يعاجلهم بالانتقام؛ فيكون عاماً؛ قاله الزَّمَخْشَرِيّ. وقال مُطَرِّف: وجدنا أنصح عبادِ الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغشّ عباد الله لعباد الله الشياطين. وقد تقدّم[٣]. ﴿ألاَ إنّ اللّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قال بعض العلماء: هَيّب وعَظّم جلّ وعزّ في الابتداء، وألطف وبشّر في الانتهاء.

[٦] ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾.

(١) آية ٤١ سورة فاطر. (٢) آية ٦ سورة الرعد.
(٣) راجع ١٥/ ٢٩٥.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني أصناماً يعبدونها. ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ وهذه منسوخة بآية السيف. وفي الخبر: «أطّت السماء وحُقَّ لها أن تَئط» أي صوّتت من ثقل سكانها لكثرتهم، فهم مع كثرتهم لا يفترون عن عبادة الله؛ وهؤلاء الكفار يشركون به.

[٧] ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ أي وكما أوحينا إليك وإلى من قبلك هذه المعاني فكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيًّا بيّناه بلغة العرب. وقيل: أي أنزلنا عليك قرآناً عربياً بلسان قومك؛ كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه. والمعنى واحد. ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ يعني مكة. وقيل لمكة أم القُرَى لأن الأرض دُحيت من تحتها. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من سائر الخلق. ﴿وتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي بيوم الجمع، وهو يوم القيامة. ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه. ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ ابتداء وخبر. وأجاز الكسائيّ النصب على تقدير: لتنذر فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير.

[٨] ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ولَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال الضحاك: أهل دين واحد؛ أهل ضلالة أو أهل هُدًى. ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ قال أنس بن مالك: في الإسلام. ﴿والظَّالِمُونَ﴾ رفع على الابتداء، والخبر ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ عطف على اللفظ. ويجوز ﴿ولا نصيرٌ﴾ بالرفع على الموضع و ﴿مِن﴾ زائدة.

[٩] ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ أي بل اتخذوا. ﴿مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني أصناماً. ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أي وليّك يا محمد ووليّ من اتبعك، لا وَليّ سواه. ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ يريد عند البعث. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وغيره من الأولياء لا يقدر على شيء.

[١٠] ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين؛ أي وما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين، فقولوا لهم حكمه إلى الله لا إليكم، وقد حكم أن الدِّين هو الإسلام لا غيره، وأمور الشرائع إنما تُتَلَقَّى من بيان الله. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده؛ وفيه إضمار: أي قل لهم يا محمد ذلكم الله الذي يحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربّي. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع.

[١١] ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ بالرفع على النعت لاسم الله، أو على تقدير هو فاطر. ويجوز النصب على النداء، والجرّ على البدل من الهاء في ﴿عليه﴾. والفاطر: المبدع والخالق. وقد تقدّم[1]. ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ قيل معناه إناثاً. وإنما

(١) راجع ٦/٣٩٧، ٩/٢٧٠ و ٣٤٦، ١٤/٢٤ وما بعدها و ٣١٩.

قال: ﴿مِنْ أَنفُسِكُم﴾ لأنه خلق حوّاء من ضلع آدم. وقال مجاهد: نَسْلاً بعد نسل. ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً﴾ يعني الثمانية التي ذكرها في ﴿الأنعام﴾[1] ذكور الإبل والبقر والضأن والمعز وإناثها. ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي يخلقكم وينشئكم ﴿فيه﴾ أي في الرحم. وقيل: في البطن. وقال الفرّاء وابن كَيْسان: ﴿فيه﴾ بمعنى به. وكذلك قال الزجاج: معنى ﴿يذرؤكم فيه﴾ يكثركم به؛ أي يكثركم يجعلكم أزواجاً، أي حلائل؛ لأنهن سبب النسل. وقيل: إن الهاء في ﴿فيه﴾ للجعل، ودلّ عليه ﴿جَعَل﴾؛ فكأنه قال: يخلقكم ويكثركم في الجعل. ابن قُتيبة: ﴿يذرؤكم فِيهِ﴾ أي في الزوج؛ أي يخلقكم في بطون الإناث. وقال: ويكون ﴿فيه﴾ في الرحم، وفيه بُعْدٌ؛ لأن الرحم مؤنثة ولم يتقدّم لها ذكر. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ قيل: إن الكاف زائدة للتوكيد؛ أي ليس مثله شيء. قال:

وصـــاليـــاتٍ كَكَمَـــا يُـــؤَثْفَيْـــن[2]

فأدخل على الكاف كافاً تأكيداً للتشبيه. وقيل: المثل زائدة للتوكيد؛ وهو قول ثعلب: ليس كهو شيء؛ نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾[3]. وفي حرفِ ابن مسعود ﴿فإن آمنوا بما آمنتم به فقد اهتدوا﴾ قال أَوْس بن حَجَر:

وقَتْلَـى كمثـل جـذوع النخيـ ـل يغشـاهـم مطـر منهمـر

أي كجذوع. والذي يُعتقد في هذا الباب أن الله جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى أسمائه وعليّ صفاته، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ولا يشبّه به، وإنما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق، فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي؛ إذ صفات القديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق؛ إذ صفاتهم لا تنفك عن الأغراض والأعراض، وهو تعالى منزه عن ذلك؛ بل لم يزل بأسمائه وبصفاته على ما بيناه في (الكتاب الأسنى في شرح

---

(١) راجع ٧/ ١١٣ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) الصاليات: الأثافي، وهي الأحجار التي ينصب عليها القدر. ومعنى يؤثفين: ينصبن للقدر. (راجع خزانة الأدب في الشاهد الخامس والثلاثين بعد المائة وكتاب سيبويه).

(٣) آية ١٣٧ سورة البقرة.

أسماء الله الحسنى)، وكفى في هذا قوله الحق : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾. وقد قال بعض العلماء المحققين : التوحيد إثبات ذات غير مشبّهة للذوات ولا معطّلة من الصفات . وزاد الواسطيّ رحمه الله بياناً فقال: ليس كذاته ذات ، ولا كاسمه اسم ، ولا كفعله فعل ، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ ؛ وجلّت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة ؛ كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة . وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة . رضي الله عنهم! .

[١٢] ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ تقدّم في ﴿ الزُّمَر ﴾[1] بيانه. النحاس: والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن؛ يقال للمفتاح: إقليد، وجمعه على غير قياس؛ كمحاسن والواحد حسن. ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تقدّم أيضاً في غير موضع[2].

[١٣] ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ .

[١٤] ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾ .

---

(١) راجع ١٥/ ٢٧٤.

(٢) راجع ١/ ٢٦١ طبعة ثانية أو ثالثة. و ٩/ ٣١٤.

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ فيه مسألتان:

الأولىـ قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ أي الذي له مقاليد السموات والأرض شرع لكم من الدين ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى؛ ثم بيّن ذلك بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ وهو توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء، وبسائرِ ما يكون الرجل بإقامته مسلماً. ولم يرِد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها، فإنها مختلفة متفاوتة؛ قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ وقد تقدّم القول[1] فيه. ومعنى ﴿شرع﴾ أي نهج وأوضح وبيّن المسالك. وقد شَرَعَ لهم يَشْرَع شَرْعاً أي سنّ. والشارع: الطريق الأعظم. وقد شَرَع المنزِلُ إذا كان على طريق نافذ. وشرعت الإبلَ إذا أمكنتها من الشريعة. وشرعت الأديم إذا سلخته. وقال يعقوب: إذا شققت ما بين الرجلين، قال: وسمعته من أم الحُمَارِس البَكْرِية. وشرعت في هذا الأمر شروعاً أي خضت. ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ ﴿أَنْ﴾ في محل رفع، على تقدير والذي وصّى به نوحاً أن أقيموا الدّين، ويوقف على هذا الوجه على ﴿عيسى﴾. وقيل: هو نصب، أي شرع لكم إقامة الدين. وقيل: هو جرّ بدلاً من الهاء في ﴿به﴾؛ كأنه قال: به أقيموا الدين. ولا يوقف على ﴿عيسى﴾ على هذين الوجهين. ويجوز أن تكون ﴿أن﴾ مفسرة؛ مثل أن ٱمشوا، فلا يكون لها محل من الإعراب.

الثانيةـ قال القاضي أبو بكر بن العربيّ: ثبت في الحديث الصحيح أن النبيّ ﷺ قال في حديث الشفاعة الكبير المشهور: «ولكن ائتوا نوحاً فإنه أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحاً فيقولون له أنت أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. . .» وهذا صحيح لا إشكال فيه، كما أن آدم أوّل نبيّ[2] بغير إشكال؛ لأن آدم لم يكن معه إلا نُبوّة، ولم تُفرض له الفرائض ولا شُرعت له المحارم، وإنما كان تنبيهاً على بعض

---

(١) راجع ٦/٢١١ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) في نسخ الأصل: «كما أن آدم أوّل رسول نبي بغير إشكال، إلا أن آدم» والتصويب عن ابن العربي.

الأمور واقتصاراً على ضرورات المعاش، وأخذاً بوظائف الحياة والبقاء؛ واستقرّ المَدَى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات، ووظّف عليه الواجبات وأوضح له الآداب في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكّد بالرسل ويتناصر[1] بالأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ واحداً بعد واحد وشريعة إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل ملتنا على لسان أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ؛ فكان المعنى أوصيناك يا محمد ونوحاً ديناً واحداً؛ يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرّب إلى الله بصالح الأعمال، والزَّلَف إليه بما يرد القلب والجارحة إليه، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنى والإذاية للخلق كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوان كيفما دار، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات؛ فهذا كله مشروع دِيناً واحداً وملة متحدّة، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم؛ وذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي اجعلوه قائماً؛ يريد دائماً مستمراً محفوظاً مستقراً من غير خلاف فيه ولا اضطراب؛ فمن الخلق مَن وفى بذلك ومنهم من نكَث؛ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه. واختلفت الشرائع وراء هذا في معان حسبما أراده الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم». والله أعلم. قال مجاهد: لم يبعث الله نبيّا قطُّ إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع لهم؛ وقاله الوالِبيّ عن ابن عباس، وهو قول الكلبيّ. وقال قتادة: يعني تحليل الحلال وتحريم الحرام. وقال الحكم: تحريم الأمهات والأخوات والبنات. وما ذكره القاضي يجمع هذه الأقوال ويزيد عليها. وخص نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى بالذكر لأنهم أرباب الشرائع.

وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ أي عَظُم عليهم. ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إلَيْه﴾ من التوحيد ورفض الأوثان. قال قتادة: كَبُر على المشركين فاشتدّ عليهم شهادة أن لا إله إلا الله وضاق بها إبليس وجنوده ، فأبى الله عز وجل إلا أن ينصرها ويُعليها ويظهرها على من

---

(١) في ابن العربي: «ويتناشر».

ناوأها . ثم قال : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي يختار . والاجتباء الاختيار؛ أي يختار للتوحيد مـن يشاء . ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ أي يستخلص لدينه من رجع إليـه . ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا ﴾ قال ابن عباس : يعني قريشاً . ﴿ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ محمد ﷺ ؛ وكانوا يتمنّون أن يبعث إليهم نبيّ؛ دليله قولـه تعالى في سورة فاطر : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾[(١)] يريـد نبيًا . وقال في سورة البقرة : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ على ما تقدّم بيانه هناك[(٢)] . وقيل : أمم الأنبياء المتقدّميـن ؛ فإنهم فيما بينهم اختلفوا لما طال بهم المَدَى ، فآمن قوم وكفر قوم . وقال ابن عباس أيضاً : يعني أهل الكتاب ؛ دليله في سورة المُنْفَكِّين ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ . فالمشركون قالوا: لم خُصّ بالنبوّة! واليهود حسدوه لما بُعث ؛ وكذا النصارى . ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ أي بغياً من بعضهم على بعض طلباً للرياسة، فليس تفرقهم لقصور في البيان والحجج ، ولكـن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا . ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في تأخير العقاب عن هؤلاء. ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قيل : القيامة ؛ لقوله تعالى : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾[(٣)]. وقيل: إلى الأجل الذي قضى فيه بعذابهم . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين من آمن وبين من كفر بنزول العذاب . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ ﴾ يريد اليهود والنصارى . ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد المختلفين في الحق . ﴿ لَفِي شَكٍّ ﴾ من الذي أوصى به الأنبياء . والكتاب هنا التوراة والإنجيل . وقيل : ﴿ إن الذين أورثوا الكتاب ﴾ قريش . ﴿ من بعدهم ﴾ من بعد اليهود والنصارى . ﴿ لفي شك ﴾ من القرآن أو من محمد . وقال مجاهد : معنى ﴿ من بعدهم ﴾ من قبلهم ؛ يعني من قبل مشركي مكة ، وهم اليهود والنصارى.

---

(١) آية ٤٢ راجع ١٤/٣٥٧.
(٢) آية ٨٩ راجع ٢/٢٧ طبعة ثانية.
(٣) آية ٤٦ سورة القمر.

[١٥] ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فلذلك فادع واستقم﴾. لما جاز أن يكون الشك لليهود والنصارى أو لقريش قيل له: ﴿فَلِذَلِكَ فَٱدْعُ﴾ أي فتبيّنت شكّهم فادع إلى الله؛ أي إلى ذلك الدِّين الذي شرعه الله للأنبياء ووصاهم به. فاللام بمعنى إلى؛ كقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ أي إليها. و ﴿ذلك﴾ بمعنى هذا. وقد تقدّم أول ﴿البقرة﴾[١]. والمعنى فلهذا القرآن فأدع. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فأدع. وقيل: إن اللام على بابها؛ والمعنى: فمن أجل ذلك الذي تقدم ذكره فأدع واستقم. قال ابن عباس: أي إلى القرآن فادع الخلق. ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ خطاب له عليه السلام. قال قتادة: أي أستقم على أمر الله. وقال سفيان: أي استقم على القرآن. وقال الضحاك: أستقم على تبليغ الرسالة. ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي لا تنظر إلى خلاف من خالفك. ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي أن أعدل؛ كقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢]. وقيل: هي لام كي، أي لكي أعدل. قال ابن عباس وأبو العالية: لأسوّي بينكم في الدّين فأومن بكل كتاب وبكل رسول. وقال غيرهما: لأعدل في جميع الأحوال. وقيل: هذا العدل هو العدل في الأحكام. وقيل في التبليغ. ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: الخطاب لليهود؛ أي لنا ديننا ولكم دينكم. قال: ثم نسخت بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[٣] الآية. قال مجاهد: ومعنى ﴿لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا خصومة بيننا وبينكم. وقيل: ليس بمنسوخ؛

(١) راجع ١/١٥٧ طبعة ثانية أو ثالثة.
(٢) آية ٦٦ سورة غافر.
(٣) آية ٢٩ سورة التوبة.

لأن البراهين قد ظهرت، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد. وبعد العناد لا حجة ولا جدال . قال النحاس: ويجوز أن يكون معنى ﴿لا حُجَّةَ بيننا وبينكم﴾ على ذلك القول : لم يؤمر أن يحتجّ عليكم ويقاتلكم ؛ ثم نسخ هذا . كما أن قائلاً لو قال من قبل أن تحوّل القبلة: لا تصلّ إلى الكعبة، ثم حوّل الناس بعد؛ لجاز أن يقال نسخ ذلك . ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يريد يوم القيامة. ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي فهو يحكم بيننا إذا صرنا إليه، ويجازي كُلاًّ بما كان عليه. وقيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة ، وقد سألا رسول الله ﷺ أن يرجع عن دعوته ودينه إلى دين قريش ، على أن يعطيه الوليد نصف ماله ويزوّجه شيبةُ بابنته.

[١٦] ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ ﴾ رجع إلى المشركين . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ ﴾ قال مجاهد : من بعد ما أسلم الناس . قال: وهؤلاء قد توهّموا أن الجاهلية تعود . وقال قتادة : الذين يحاجون في الله اليهود والنصارى ، ومحاجّتهم قولهم نبيّنا قبل نبيّكم وكتابنا قبل كتابكم ؛ وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب وأنهم أولاد الأنبياء. وكان المشركون يقولون: ﴿أيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾[1] فقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّون فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي لا ثبات لها كالشيء الذي يزل عن موضعه. والهاء في ﴿له﴾ يجوز أن يكون لِلّه عز وجل؛ أي من بعد ما وحّدوا الله وشهدوا له بالوحدانية. ويجوز أن يكون للنبيّ ﷺ؛ أي من بعد ما استجيب لمحمد ﷺ في دعوته من أهل بدر ونصر الله المؤمنين. يقال: دَحَضت حجته دُحوضاً بطلت. وأدحضها الله. والإدحاض: الإزلاق. ومكان دَحْض ودَحَض أيضاً

(١) آية ٧٣ سورة مريم.

(بالتحريك) أي زَلِق. ودَحَضت رجلُه تَدْحَض دَحْضاً زَلِقت. ودَحَضت الشمس عن كبد السماء زالت. ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ يريد في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يريد في الآخرة عذاب دائم.

[١٧] ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن وسائر الكتب المنزلة. ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق. ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي العدل؛ قاله ابن عباس وأكثر المفسرين. والعدل يسمى ميزانا؛ لأن الميزان آلة الإنصاف والعدل. وقيل: الميزان ما بين في الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به. وقال قتادة: الميزان العدل فيما أمر به ونهى عنه. وهذه الأقوال متقاربة المعنى. وقيل: هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب. وقيل: إنه الميزان نفسه الذي يوزن به، أنزله من السماء وعلم العباد الوزن به؛ لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(١). قال مجاهد: هو الذي يوزن به. ومعنى أنزل الميزان هو إلهامه للخلق أن يعملوه ويعملوا [به]. وقيل: الميزان محمد ﷺ، يقضي بينكم بكتاب الله. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فلم يخبره بها. يحضّه على العمل بالكتاب والعدل والسويّة، والعمل بالشرائع قبل أن يفاجىء اليوم الذي يكون فيه المحاسبة ووزن الأعمال، فيوفى لمن أوفى ويطفّف لمن طفف. فـ ﴿لعلّ الساعة قريب﴾ أي منك وأنت لا تدري. وقال: ﴿قريب﴾ ولم يقل قريبة؛ لأن تأنيثها غير حقيقي لأنها كالوقت؛ قاله الزجاج. والمعنى: لعل البعث أو لعل مجيء الساعة قريب. وقال الكسائي: ﴿قريب﴾ نعت يُنعت به المذكر والمؤنث والجمع بمعنًى ولفظٍ واحد؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢). قال الشاعر:

وكنا قريباً والديار بعيدة فلما وصلنا نُصْب أعينهم غبنا

---

(١) آية ٢٥ سورة الحديد. (٢) آية ٥٦ سورة الأعراف. راجع ٧/٢٢٧.

[١٨] ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ يعني على طريق الاستهزاء، ظنًّا منهم أنها غير آتية، أو إيهاما للضَّعفَة أنها لا تكون. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون وَجِلون لاستقصارهم أنفسهم مع الجهد في الطاعة؛ كما قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجعون﴾[1]. ﴿وَيَعلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي التي لا شك فيها. ﴿أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي يشكّون ويخاصمون في قيام الساعة. ﴿لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ أي عن الحق وطريق الاعتبار؛ إذ لو تذكّروا لعلموا أن الذي أنشأهم من تراب ثم من نطفة إلى أن بلغوا ما بلغوا، قادر على أن يبعثهم.

[١٩] ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ قال ابن عباس: حَفِيّ بهم. وقال عكرمة: بارٌّ بهم. وقال السُّدّيّ: رفيق بهم. وقال مقاتل: لطيف بالبَرّ والفاجر؛ حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم. وقال القُرَظيّ: لطيف بهم في العرض والمحاسبة. قال:

غداً عند مَوْلَى الخلق للخلق موقفٌ يسائلهم فيه الجليل ويلطف

وقال جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين: يلطف بهم في الرزق من وجهين: أحدهما - أنه جعل رزقك من الطيبات. والثاني - أنه لم يدفعه إليك مَرّةً واحدة فتبذّره. وقال الحسين بن الفضل: لطيف بهم في القرآن وتفصيله وتفسيره. وقال الجُنيد: لطيف

(١) آية ٦٠ سورة المؤمنون.

بأوليائه حتى عرفوه، ولو لطف بأعدائه لما جحدوه. وقال محمد بن عليّ الكتّانيّ: اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق توكّل عليه ورجع إليه، فحينئذ يقبله ويُقبل عليه. وجاء في حديث النبيّ ﷺ: «إن الله تعالى يطلع على القبور الدوارس فيقول جلّ وعزّ اِمّحت آثارهم واْضمحلّت صُوَرهم وبقي عليهم العذاب وأنا اللطيف وأنا أرحم الراحمين خفّفوا عنهم العذاب فيخفَّف عنهم العذاب». قال أبو عليّ الثقفِيّ رضي الله عنه:

أمـرّ بـأفنـاء القبـور كـأننـي ... أخو فطنة والثوب فيه نحيف
ومـن شـقّ فـاه الله قـدّر رزقـه ... وربّـي بمـن يلجـأ إليـه لطيـف

وقيل: اللطيف الذي ينشر من عباده المناقب ويستر عليهم المثالب؛ وعلى هذا قال النبيّ ﷺ: «يا من أظهر الجميل وستر القبيح». وقيل: هو الذي يقبل القليل ويبذل الجزيل. وقيل: هو الذي يجبر الكسير وييسّر العسير. وقيل: هو الذي لا يخاف إلا عدله ولا يرجى إلا فضله. وقيل: هو الذي يبذُل لعبده النعمة فوق الهمة ويكلفه الطاعة فوق الطاقة؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[1]، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً﴾[2]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[3]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾[4]. وقيل: هو الذي يعين على الخدمة ويكثر المِدْحة. وقيل: هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيّب من رجاه. وقيل: هو الذي لا يرد سائله ولا يوئِس آمله. وقيل: هو الذي يعفو عمن يهفو. وقيل: هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه. وقيل: هو الذي أوْقد في أسرار العارفين من المشاهدة سراجاً، وجعل الصراط المستقيم لهم منهاجاً، وأجزل لهم من سحائب برّه ماء ثَجَّاجاً. وقد مضى في ﴿الأنعام﴾ قول أبي العالية والجُنَيد أيضاً[5]. وقد ذكرنا جميع هذا في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) عند اسمه اللطيف، والحمد لله. ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ ويَحْرِم من يشاء. وفي تفضيل قوم بالمال حكمةٌ؛ ليحتاج

---

(١) آية ٣٤ سورة إبراهيم. (٢) آية ٢٠ سورة لقمان. (٣) آية ٧٨ سورة الحج.
(٤) آية ٢٨ سورة النساء. (٥) راجع ٧/٥٧ طبعة أولى أو ثانية.

البعض إلى البعض؛ كما قال: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾[١]، فكان هذا لطفاً بالعباد. وأيضاً ليمتحن الغنيّ بالفقير والفقير بالغنيّ؛ كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ على ما تقدّم بيانه[٢]. ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

[٢٠] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ الحرث العمل والكسب. ومنه قول عبد الله بن عمر: وأَحْرُث لدنياك كأنك تعيش أبداً وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً. ومنه سُمِّيَ الرجل حارثاً. والمعنى أي من طلب بما رزقناه حرثاً لآخرته، فأدّى حقوق الله وأنفق في إعزاز الدِّين؛ فإنما نعطيه ثواب ذلك للواحد عشراً إلى سبعمائة فأكثر. ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ أي طلب بالمال الذي آتاه الله رياسة الدنيا والتوصّل إلى المحظورات، فإنا لا نحرمه الرزق أصلا، ولكن لا حظّ له في الآخرة من ماله؛ قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدحُوراً. وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾[٣]. وقيل: ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ نوفقه للعبادة ونسهلها عليه. وقيل: حرث الآخرة الطاعة؛ أي من أطاع فله الثواب. وقيل: ﴿نزد له في حرثه﴾ أي نعطيه الدنيا مع الآخرة. وقيل: الآية في الغَزْو؛ أي من أراد بغَزْوِه الآخرة أوتي الثواب، ومن أراد بغزوه الغنيمة أوتي منها. قال القُشيريّ: والظاهر أن الآية في الكافر؛ يوسع له في الدنيا؛ أي لا ينبغي له أن يغترّ بذلك لأن الدنيا لا تبقى. وقال قتادة: إن الله يعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا. وقال أيضاً: يقول الله تعالى: «من عمل لآخرته زدناه في عمله وأعطيناه من الدنيا ما كتبنا له ومن آثر دنياه على آخرته لم نجعل له نصيباً في الآخرة

---

(١) آية ٣٢ سورة الزخرف.

(٢) آية ٢٠ سورة الفرقان. راجع ١٣/١٨.

(٣) آية ١٨ وما بعدها سورة الإسراء.

إلا النار ولم يصب من الدنيا إلا رزقاً قد قسمناه له لا بُدّ أن كان يؤتاه مع إيثار أو غير إيثار». وروى جُوَيْبِر عن الضحاك عن ٱبن عباس قال: وقوله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرةِ﴾ من كان من الأبرار يريد بعمله الصالح ثواب الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِه أي في حسناته. ﴿ومن كان يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا﴾ أي من كان من الفُجّار يريد بعمله الحَسَن الدنيا ﴿نُؤْتِهِ مِنها﴾ ثم نسخ ذلك في سبحان: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾(١). والصواب أن هذا ليس بنسخ؛ لأن هذا خبر والأشياء كلها بإرادة الله عزّ وجل. ألا ترى أنه قد صحّ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لا يقل أحدكم اللّهُمّ ٱغفر لي إن شئت اللّهُمّ ٱرحمني إن شئت». وقد قال قتادة ما تقدم ذكره، وهو يبيّن لك أن لا نسخ. وقد ذكرنا في ﴿هود﴾ أنّ هذا من باب المطلق والمقيّد، وأن النسخ لا يدخل في الأخبار(٢) والله المستعان.

مسألة ـ هذه الآية تبطل مذهب أبي حنيفة في قوله: إنه من توضأ تَبَرُّداً أنه يجزيه عن فريضة الوضوء الموظّف عليه؛ فإن فريضة الوضوء من حرث الآخرة والتبرُّد من حرث الدنيا، فلا يدخل أحدهما على الآخر، ولا تجزي نيته عنه بظاهر هذه الآية؛ قاله ٱبن العربي.

[٢١] ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي ألهم! والميم صلة والهمزة للتقريع. وهذا متصل بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ والمِيزانَ﴾ كانوا لا يؤمنون به، فهل لهم آلهة شرعوا لهم الشرك الذي لم يأذن به الله! وإذا استحال هذا فاللّه لم يشرع الشرك، فمن أين يدينون به. ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ يوم

---

(١) آية ١٨.

(٢) راجع ٩/ ١٤.

القيامة حيث قال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾. ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا، فعاجل الظالم بالعقوبة وأثاب الطائع. ﴿وإِنَّ الظَّالمينَ﴾ أي المشركين. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا القتلُ والأسر والقهر، وفي الآخرة عذاب النار. وقرأ ابن هُرْمُز ﴿وأنّ﴾ بفتح الهمزة على العطف على ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ﴾ والفصلُ بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب ﴿لولا﴾ جائز. ويجوز أن يكون موضع ﴿أنّ﴾ رفعا على تقدير: وجب أنّ الظالمين لهم عذاب أليم؛ فيكون منقطعاً مما قبله كقراءة الكسر؛ فاْعلمه.

[٢٢] ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي من جزاء ما كسبوا. والظالمون هاهنا الكافرون؛ بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر. ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي نازل بهم. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ الرَّوْضة: الموضع النَّزِه الكثير الخضرة. وقد مضى في ﴿الروم﴾[١]. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي من النعيم والثواب الجزيل. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي لا يوصف ولا تهتدي العقول إلى كُنْه صفته؛ لأن الحق إذا قال كبير فمن ذا الذي يقدر قدره.

[٢٣] ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

(١) راجع ١٤/١١.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قرىء ﴿يُبَشِّر﴾ من بَشّره، ﴿ ويُبْشِر ﴾ من أبشره، ﴿ ويَبْشُر ﴾ من بَشَره، وفيه حذف؛ أي يبشر الله به عباده المؤمنين ليتعجلوا السرور ويزدادوا منه وجداً في الطاعة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ أي قل يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة جُعْلاً. ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قال الزجاج: ﴿إلا المودة﴾ استثناء ليس من الأول؛ أي إلا أن تَوَدُّوني لقرابتي فتحفظوني. والخطاب لقريش خاصّةً؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبيّ وغيرهم. قال الشعبيّ: أكْثَر الناس علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها؛ فكتب أن رسول الله ﷺ كان أوسطَ الناس في قريش، فليس بَطْنٌ من بطونهم إلا وقد وَلَده؛ فقال الله له: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم؛ أي تراعوا ما بيني وبينكم فتصدّقوني. فـ ﴿ـالقُرْبَى﴾ هاهنا قرابة الرَّحِم؛ كأنه قال: اتبعوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوّة. قال عكرمة: وكانت قريش تَصِل أرحامها فلما بُعث النبيّ ﷺ قطعته؛ فقال: «صِلُوني كما كنتم تفعلون». فالمعنى على هذا: قل لا أسألكم عليه أجراً لكن أذكّركم قرابتي؛ على أنه استثناء ليس من الأوّل؛ ذكره النحاس. وفي «البخاريّ» عن طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إلا الموَدّةَ فِي القُرْبَى﴾ فقال سعيد بن جُبير: قُرْبَى آل محمد؛ فقال ابن عباس: عجِلت! إن النبيّ ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة؛ فقال: إلا أن تَصِلوا ما بينكم من القرابة. فهذا قول. وقيل: القربى قرابة الرسول ﷺ؛ أي لا أسألكم أجراً إلا أن تَوَدّوا قرابتي وأهل بيتي، كما أمر بإعظامهم ذوي القربى. وهذا قول علي بن حسين وعمرو بن شعيب والسُّدّي. وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس: لما أنزل الله عز وجل: ﴿قل لا أسألكم عليهِ أجراً إلا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى﴾ قالوا: يا رسول الله، من

هؤلاء الذين نَوَدُّهم؟ قال: «عليّ وفاطمة وأبناؤهما». ويدل عليه أيضاً ما روي عن عليّ رضي الله عنه قال: شكوت إلى النبيّ ﷺ حسد الناس لي. فقال: «أما ترضى أن تكون رابعَ أربعة أوّل من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا وذرّيتنا خلف أزواجنا». وعن النبيّ ﷺ: «حُرّمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عِتْرتي ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة». وقال الحسن وقتادة: المعنى إلا أن يتودّدوا إلى الله عز وجل ويتقرّبوا إليه بطاعته. فـ ﴿ـالقُرْبَى﴾ على هذا بمعنى القربة. يقال: قُرْبَة وقُرْبى بمعنًى، كالزُّلْفة والزُّلْفَى. وروى قَزَعة بن سُويد عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ: «قل لا أسألكم على ما آتيتكم به أجراً إلا أن توادّوا وتقرّبوا إليه بالطاعة». وروى منصور وعوف عن الحسن ﴿قل لا أسألكم عليهِ أجراً إلا الموَدّة فِي القُرْبَى﴾ قال: يتودّدون إلى الله عز وجل ويتقرّبون منه بطاعته. وقال قوم: الآية منسوخة وإنما نزلت بمكة؛ وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية، وأمرهم الله بمودّة نبيّه ﷺ وصِلة رحِمه؛ فلما هاجر آوَتْه الأنصار ونصروه، وأراد الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قالوا ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١)؛ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾(٢) فنسخت بهذه الآية وبقوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾(٣)، وقولِه: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾(٤)، وقولِه: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾(٥)؛ قاله الضحاك والحسين بن الفضل. ورواه جُويبر عن الضحاك عن ابن عباس. قال الثَّعْلبيّ: وليس بالقويّ، وكفى قُبحاً بقول من يقول: إن التقرّب إلى الله بطاعته ومودّة نبيّه ﷺ وأهل بيته منسوخ؛ وقد

---

(١) آية ١٠٩ و ١٢٧ و ١٤٥ و ١٦٤ و ١٨٠ سورة الشعراء.

(٢) آية ٤٧ سورة سبأ.

(٣) آية ٨٦ سورة صٓ.

(٤) آية ٧٢ سورة المؤمنون.

(٥) آية ٤٠ سورة الطور وآية ٤٦ سورة القلم.

قال النبيّ ﷺ: «من مات على حُبّ آل محمد مات شهيداً. ومن مات على حب آل محمد جعل الله زوّار قبره الملائكة والرحمة. ومن مات على بُغْض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه أيس اليوم من رحمة الله. ومن مات على بُغْض آل محمد لم يَرَح[1] رائحة الجنة. ومن مات على بغض آل بيتي فلا نصيب له في شفاعتي».

قلت: وذكر هذا الخبر الزَّمَخشَرِيّ في تفسيره بأطول من هذا فقال: وقال رسول الله ﷺ: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً ألاَ ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان. ألاَ ومن مات على حب آل محمد بشّره ملك الموت بالجنة ثم مُنْكَر ونكير. ألاَ ومن مات على حب آل محمد فُتح له في قبره بابان إلى الجنة. ألا ومن مات في حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة. ألا ومن مات على حُبّ آل محمد مات على السنة والجماعة. ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه أيس من رحمة الله. ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً. ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يَشُمّ رائحة الجنة». قال النحاس: ومذهب عِكْرمة ليست بمنسوخة؛ قال: كانوا يَصِلون أرحامهم فلما بعث النبيّ ﷺ قطعوه فقال: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تَوَدُّوني وتحفظوني لقرابتي ولا تكذبوني».

قلت: وهذا هو معنى قول ابن عباس في البُخارِيّ والشَّعْبِيّ عنه بعينه؛ وعليه لا نسخ. قال النحاس: وقول الحسن حسن، ويدل على صحته الحديثُ المسند عن رسول الله ﷺ كما حدّثنا أحمد بن محمد الأزدي قال أخبرنا الربيع بن سليمان المرادي قال أخبرنا أسد بن موسى قال حدّثنا قَزَعة ـ وهو ابن يزيد[2] البصري ـ قال حدّثنا عبد الله بن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لا أسألكم على ما أنبئكم به من البيّنات والهُدَى أجراً إلا أن توادّوا الله عز وجل وأن تتقرّبوا إليه بطاعته». فهذا المبيِّن عن الله عز وجل قد قال هذا، وكذا قالت الأنبياء صلى الله عليهم قبله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إلا على الله﴾.

---

(١) أي لم يشم ريحها؛ يقال: راح يَرِيح، وراح يرَاح، وأراح يُريح. والثلاثة قد روي بها الحديث.

(٢) تقدم أنه قزعة بن سويد؛ وهو ممن يروي عن ابن أبي نجيح. (راجع تهذيب التهذيب).

الثانية ـ واختلفوا في سبب نزولها؛ فقال ابن عباس: لما قدم النبيّ ﷺ المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما في يديه؛ فقالت الأنصار: إن هذا الرجل هداكم الله به وهو ابن أخيكم، وتنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما في يديه فنجمع له؛ ففعلوا، ثم أتوه به فنزلت. وقال الحسن: نزلت حين تفاخرت الأنصار والمهاجرون، فقالت الأنصار نحن فعلنا، وفَخَرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله ﷺ. روى مِقْسم عن ابن عباس قال سمع رسول الله ﷺ شيئاً فخطب فقال للأنصار: «ألم تكونوا أذلاء فأعزكم الله بي. ألم تكونوا ضُلّالاً فهداكم الله بي. ألم تكونوا خائفين فأمّنكم الله بي ألا تردّون عليّ»؟ فقالوا: بِمَ نجيبك؟ قال: «تقولون ألم يطردك قومُك فآويناك. ألم يكذبك قومك فصدّقناك...» فعدّد عليهم. قال: فجَثَوْا على ركبهم فقالوا: أنفسنا وأموالنا لك؛ فنزلت: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المَوَدّةَ في القُرْبَى﴾. وقال قتادة: قال المشركون لعلّ محمداً فيما يتعاطاه يطلب أجراً؛ فنزلت هذه الآية؛ ليحثّهم على مودّته ومودّة أقربائه. قال الثعلبيّ: وهذا أشبه بالآية؛ لأن السورة مكية.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي يكتسب. وأصل القرف الكسب؛ يقال: فلان يَقْرِف لعياله؛ أي يكسب. والاقتراف الاكتساب؛ وهو مأخوذ من قولهم: رجل قرفة، إذا كان محتالاً. وقد مضى في ﴿الأنعام﴾[1] القول فيه. وقال ابن عباس: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ قال المودّة لآل محمد ﷺ. ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾ أي نضاعف له الحسنة بعشرٍ فصاعداً. ﴿إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ قال قتادة: ﴿غفور﴾ للذنوب، ﴿شكور﴾ للحسنات. وقال السُّدّي: ﴿غفور﴾ لذنوب آل محمد عليه السلام، ﴿شكور﴾ لحسناتهم.

[٢٤] ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

(١) راجع ٧/ ٧٠.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ الميم صلة، والتقدير أيقولون افترى. واتصل الكلام بما قبلُ؛ لأن الله تعالى لما قال: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ﴾[١]، وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[٢] قال إتماماً للبيان: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ يعني كفار قريش قالوا: إنّ محمداً اختلق الكذب على الله. ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ﴾ شرط وجوابه. ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ قال قتادة: يطبع على قلبك فينسيك القرآن؛ فأخبرهم الله أنه لو افترى عليه لفعل بمحمد ما أخبرهم به في هذه الآية. وقال مجاهد ومقاتل: ﴿إن يشأ الله﴾ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقةٌ من قولهم. وقيل: المعنى إن يشأ يزل تمييزك. وقيل: المعنى لو حدّثت نفسك أن تفتري على الله كذباً لطبع على قلبك؛ قاله ابن عيسى. وقيل: فإن يشأ الله يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم وعاجلهم بالعقاب. فالخطاب له والمراد الكفار؛ ذكره القشيري. ثم ابتدأ فقال: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ قال ابن الأنباري: ﴿يختم على قلبك﴾ تام. وقال الكسائي: فيه تقديم وتأخير؛ مجازه: والله يمحو الباطل؛ فحذف منه الواو في المصحف، وهو في موضع رفع. كما حُذفت من قوله ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[٣]، ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ﴾[٤] ولأنه عطف على قوله: ﴿يختم على قلبك﴾. وقال الزجاج: قوله: ﴿أم يقولون ٱفترى على ٱلله كذباً﴾ تمام؛ وقوله: ﴿ويمح الله الباطل﴾ احتجاج على من أنكر ما أتى به النبيّ ﷺ؛ أي لو كان ما أتى به باطلاً لمحاه كما جرت به عادته في المفترين. ﴿وَيُحِقّ الْحَقَّ﴾ أي الإسلام فيثبته ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي بما أنزله من القرآن. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عام، أي بما في قلوب العباد. وقيل خاص. والمعنى أنك لو حدّثت نفسك أن تفتري على الله كذباً لعلِمه وطبع على قلبك.

[٢٥] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

(١) آية ١٥ من هذه السورة.

(٢) آية ١٧ من هذه السورة.

(٣) آية ١٨ سورة العلق. (٤) آية ١١ سورة الإسراء.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ الْمَوَدّة فِي الْقُرْبَى﴾ قال قوم في نفوسهم: ما يريد إلا أن يحثّنا على أقاربه من بعده؛ فأخبر جبريل النبيّ ﷺ، وأنهم قد اتهموه فأنزل ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً﴾ الآية؛ فقال القوم: يا رسول الله؛ فإنا نشهد أنك صادق ونتوب. فنزلت: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾. قال ابن عباس: أي عن أوليائه وأهل طاعته. والآية عامة. وقد مضى الكلام في معنى التّوبة وأحكامها[1]، ومضى هذا اللفظ في ﴿براءة﴾[2]. ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أي عن الشرك قبل الإسلام . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي من الخير والشر. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بالتاء على الخطاب، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه. الباقون بالياء على الخبر، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنه بين خبرين: الأوّل وهو ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ والثاني: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

[٢٦] ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿الذين﴾ في موضع نصب؛ أي ويستجيب الله الذين آمنوا، أي يقبل عبادة من أخلص له بقلبه وأطاع ببدنه. وقيل: يعطيهم مسألتهم إذا دَعَوْه. وقيل: ويجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض؛ يقال: أجاب واستجاب بمعنًى، وقد مضى في ﴿البقرة﴾[3]. وقال ابن عباس: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ يشفّعهم في إخوانهم. ﴿وَيَزِيْدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: يشفّعهم في إخوان إخوانهم. وقال المُبَرّد: معنى ﴿ويستجيب الذين آمنوا﴾ وليستدع الذين آمنوا الإجابة؛ هكذا حقيقة معنى استفعل. فـ ﴿الذين﴾ في موضع رفع. ﴿وَالْكَافِرُون لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

---

(١) راجع ٥/ ٩٠ وما بعدها.
(٢) آية ١٠٤ راجع ٨/ ٢٥٠.
(٣) راجع ٢/٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية.

[٢٧] ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ في نزولها؛ قيل: إنها نزلت في قوم من أهل الصُفّة تمنّوْا سَعة الرزق. وقال خَبّاب بن الارَتّ: فينا نزلت؛ نظرنا إلى أموال بني النَّضير وقُريظة وبني قَيْنُقَاع فتمنّيناها فنزلت. ﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ معناه وسّع. وبَسَط الشيء نشره. وبالصاد أيضاً. ﴿لَبَغَوْا فِي الأَرْض﴾ طغَوْا وعصَوْا. وقال ابن عباس: بغيُهم طلبهم منزلة بعد منزلة ودابة بعد دابة ومركباً بعد مركب وملبساً بعد ملبس. وقيل أراد لو أعطاهم الكثير لطلبوا ما هو أكثر منه، لقوله: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً» وهذا هو البَغْيُ، وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: لو جعلناهم سواء في المال لما انقاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع. وقيل: أراد بالرزق المطر الذي هو سبب الزرق؛ أي لو أدام المطر لتشاغلوا به عن الدعاء، فيقبِض تارة ليتضرّعوا ويبسُط أخرى ليشكروا. وقيل: كانوا إذا أخصبوا أغار بعضهم على بعض؛ فلا يبعد حمل البغي على هذا. الزَّمَخْشَرِيّ: ﴿لبغَوْا﴾ من البغي وهو الظلم؛ أي لبغى هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأن الغِنَى مَبْطَرة مأشرة، وكفى بقارون عبرة. ومنه قوله عليه السلام: «أخْوَف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها». ولبعض العرب:

وقد جعل الوَسْمِيُّ يُنبت بيننا وبين بني دُودَان نَبْعاً وشَوْحَطَا[١]

يعني أنهم أحيُوا فحدّثوا أنفسهم بالبغي والتغابن. أو من البَغْي وهو البَذَخ والكبر؛ أي لتكبّروا في الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلوّ فيها والفساد. ﴿وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقدرٍ ما يشاء﴾ أي ينزل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكفايتهم. وقال مقاتل: ﴿ينزّل بقدر ما يشاء﴾ يجعل من يشاء غنيًّا ومن يشاء فقيراً.

---

(١) الوسمي: مطر أوّل الربيع. والنبع والشوحط: شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسيّ. وفي نسخ الأصل وبعض كتب التفسير: «. . . بني رومان». ودودان: أبو قبيلة من أسد.

الثانية ـ قال علماؤنا: أفعال الربّ سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يجب على الله الاستصلاح؛ فقد يعلم من حال عبدٍ أنه لو بسط عليه قاده ذلك إلى الفساد فيزْوِي عنه الدنيا؛ مصلحةً له. فليس ضيق الرزق هواناً ولا سَعة الرزق فضيلة؛ وقد أعطى أقواماً مع علمه أنهم يستعملونه في الفساد، ولو فعل بهم خلاف ما فعل لكانوا أقرب إلى الصلاح. والأمر على الجملة مفوّض إلى مشيئته، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح في كل فعل من أفعال الله تعالى. وروى أنس عن النبيّ ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: «من أهان لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة وإني لأسرع شيء إلى نصرة أوليائي وإني لأغضب لهم كما يغضب اللّيْث الحَرِد. وما تردّدت في شيء أنا فاعله تردّدي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته ولا بدّ له منه. وما تقرّب إليّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه. وما يزال عبدي المؤمن يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ومؤيّداً فإن سألني أعطيته وإن دعاني أجبته. وإن من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإني عليم أن لو أعطيته إياه لدخله العُجْب فأفسده. وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر. وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى. وإني لأدبّر عبادي لعلمي بقلوبهم فإني عليم خبير». ثم قال أنس: اللهم إني من عبادك المؤمنين الذي لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرني برحمتك.

[٢٨] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

قرأ ابن كَثير وابن مُحَيْصِن وحُميد ومجاهد وأبو عمرو ويعقوب وابن وَثّاب والأعمش وحمزة والكسائي ﴿ ينزِل ﴾ مخففاً. الباقون بالتشديد. وقرأ ابن وَثّاب أيضاً والأعمش وغيرهما ﴿ قَنِطوا ﴾ بكسر النون؛ وقد تقدّم جميع هذا[١]. والغيث المطر؛ وسمي الغَيْث غيثاً لأنه يغيث

(١) راجع ١٠/٣٦، ٦٧، و ١٤/٣٤.

الخلق. وقد غاث الغيث الأرض أي أصابها. وغاث الله البلاد يَغيثها غَيْثاً. وغِيثت الأرضُ تُغاث غَيْثاً فهي أرض مَغيثة ومَغْيُوثة. وعن الأصمعيّ قال: مررت ببعض قبائل العرب وقد مُطروا فسألت عجوزاً منهم: أتاكم المطر؟ فقالت: غِثنا ما شئنا غَيْثاً؛ أي مُطرنا. وقال ذو الرُّمّة: قاتل الله أَمَة بني فلان ما أفصحها! قلت لها كيف كان المطر عندكم؟ فقالت: غِثْنا ما شئنا. ذكر الأوّل الثعلبي والثاني الجوهري. وربما سمي السحاب والنبات غَيثاً. والقنوط الإياس؛ قاله قتادة وغيره. قال قتادة: ذُكِر أنّ رجلاً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قَحَط المطرُ وقَلّ الغيث وقَنَط الناس؟ فقال: مطرتم إن شاء الله؛ ثم قرأ ﴿وهو الذي ينزّل الغيث من بعد مَا قَنَطوا﴾. والغيث ما كان نافعاً في وقته، والمطر قد يكون نافعاً وضارًّا في وقته وغير وقته؛ قاله الماوَرْدِيّ: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ قيل المطر؛ وهو قول السُّدِّي. وقيل ظهور الشمس بعد المطر؛ ذكره المهدَوِي. وقال مقاتل: نزلت في حبس المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا، ثم أنزل الله المطر. وقيل: نزلت في الأعرابي سأل رسول الله ﷺ عن المطر يوم الجمعة في خبر الاستسقاء؛ ذكره القشيري، والله أعلم. ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿الولي﴾ الذي ينصر أولياءه. ﴿الحميد﴾ المحمود بكل لسان.

[٢٩] ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي علاماته الدّالة على قدرته. ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ قال مجاهد: يدخل في هذا الملائكة والناس، وقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1]. وقال الفرّاء: أراد ما بَثّ في الأرض دون السماء؛ كقوله: ﴿يخرج منْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرج من الملح دون العَذْب. وقال أبو عليّ: تقديره وما بث في أحدهما؛ فحذف المضاف. وقوله: ﴿يخرج منهما﴾ أي من أحدهما. ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ أي يوم القيامة. ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾.

(١) آية ٨ سورة النحل.

[٣٠] ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾.

[٣١] ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فبمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿بما كسبت﴾ بغير فاء. الباقون ﴿فبما﴾ بالفاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم للزيادة في الحرف والأجر. قال المهدَوِيّ: إن قدرت أن ﴿ما﴾ الموصولة جاز حذف الفاء وإثباتها، والإثبات أحسن. وإن قدرتها التي للشرط لم يجز الحذف عند سيبويه، وأجازه الأخفش واحتج بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[1]. والمصيبة هنا الحدود على المعاصي؛ قاله الحسن. وقال الضحاك: ما تعلّم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَة فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْديكُمْ﴾ ثم قال: وأيّ مصيبة أعظم من نسيان القرآن؛ ذكره ابن المبارك عن عبد العزيز بن أبي رَوّاد. قال أبو عبيد: إنما هذا على الترك، فأما الذي هو دائب في تلاوته حريص على حفظه إلا أن النسيان يغلبه فليس من ذلك في شيء. ومما يحقق ذلك أن النبيّ ﷺ كان ينسى الشيء من القرآن حتى يذكره؛ من ذلك حديث عائشة عن النبيّ ﷺ: سمع قراءة رجل في المسجد فقال: «ما له رحمه الله لقد أذكرني آيات كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا». وقيل: ﴿ما﴾ بمعنى الذي، والمعنى الذي أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم. وقال عليّ رضي الله عنه: هذه الآية أرجى آية في كتاب الله عز وجل: وإذا كان يكفّر عني بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه! وقد روي هذا المعنى مرفوعاً عنه رضي الله عنه، قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدّثنا بها النبي ﷺ ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ الآية. «يا عليّ ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم. والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا عنه

---

(١) آية ١٢١ سورة الأنعام.

في الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه». وقال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال النبيّ ﷺ: «ما من اختلاج عِرْق ولا خَدْش عُود ولا نكبة حجر إلاّ بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر». وقال الحسن: دخلنا على عمران بن حُصين فقال رجل: لا بد أن أسألك عما أرى بك من الوجع؛ فقال عمران: يا أخي لا تفعل! فوالله إني لأحِبّ الوجع ومن أحبه كان أحبّ الناس إلى الله، قال الله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ فهذا مما كسبت يدي، وعَفْوُ ربي عما بقي أكثر. وقال مُرّة الهَمْداني: رأيت على ظهر كف شُريح قُرحة فقلت: يا أبا أمية، ما هذا؟ قال: هذا بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير. وقال ابن عَون: إن محمد بن سِيرين لما ركبه الدَّين اغتم لذلك فقال: إني لأعرف هذا الغم، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة. وقال أحمد بن أبي الحَوَارِي[1] قيل لأبي سليمان الدّاراني: ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أساء إليهم؟ فقال: لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم، قال الله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾. وقال عِكْرمة: ما من نكبة أصابت عبداً فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها أو لينال درجة لم يكن يوصّله إليها إلا بها. وروي أن رجلاً قال لموسى: يا موسى سل الله لي في حاجة يقضيها لي هو أعلم بها؛ ففعل موسى؛ فلما نزل إذا هو بالرجل قد مزّق السّبُع لحمه وقتله؛ فقال موسى: ما بال هذا يا رب؟ فقال الله تبارك وتعالى له: «يا موسى إنه سألني درجة علمت أنه لم يبلغها بعمله فأصبته بما ترى لأجعلها وسيلة له في نيل تلك الدرجة». فكان أبو سليمان الداراني إذا ذكر هذا الحديث يقول: سبحان من كان قادراً على أن ينيله تلك الدرجة بلا بلوى! ولكنه يفعل ما يشاء.

قلت: ونظير هذه الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ وقد مضى القول فيه[2]. قال علماؤنا: وهذا في حق المؤمنين، فأما الكافر فعقوبته مؤخرة إلى الآخرة. وقيل: هذا خطاب للكفار، وكان إذا أصابهم شرّ قالوا: هذا بشؤم محمد؛ فردّ عليهم وقال بل ذلك

---

(١) ضبط كسكارى (بالفتح) أو أحد الحوارين «شرح القاموس». (٢) راجع ٥/٣٩٦.

بشؤم كفركم. والأوّل أكثر وأظهر وأشهر. وقال ثابت البُنَانِيّ: إنه كان يقال ساعات الأذى يذهبن ساعات الخطايا. ثم فيها قولان: **أحدهما** ـ أنها خاصة في البالغين أن تكون عقوبة لهم، وفي الأطفال أن تكون مثوبة لهم. **الثاني** ـ أنها عقوبة عامة للبالغين في أنفسهم والأطفال في غيرهم من والد ووالدة. ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي عن كثير من المعاصي ألا يكون عليها حدود؛ وهو مقتضى قول الحسن. وقيل: أي يعفو عن كثير من العصاة ألا يعجل عليهم بالعقوبة. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أي بفائتين الله؛ أي لن تعجزوه ولن تفوتوه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ تقدّم في غير موضع[1].

[٣٢] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾.

[٣٣] ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ﴾ أي ومن علاماته الدالة على قدرته السفنُ الجارية في البحر كأنها من عظمها أعلام. والأعلام: الجبال، وواحد الجواري جارية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾[2]. سُمّيت جارية لأنها تجري في الماء. والجارية: هي المرأة الشابة؛ سُمّيت بذلك لأنها يجري فيها ماء الشباب. وقال مجاهد: الأعلام القصور، واحدها علم؛ ذكره الثعلبي. وذكر الماوَرْدي عنه أنها الجبال. وقال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم. قالت الخنساء ترثي أخاها صَخْراً:

وإنّ صخراً لتأتمّ الهُداة به ... كأنه علَمٌ في رأسه نار

﴿إِنْ يَشَأْ يُسكِنِ الرِّيَاحَ﴾ كذا قرأه أهل المدينة ﴿الرياح﴾ بالجمع. ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِه﴾ أي فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر لا تجري. رَكَد الماء ركوداً سكن. وكذلك الريح والسفينة، والشمس إذا قام قائم الظهيرة. وكلّ ثابت في مكان فهو راكد. وركَدَ

---

(١) راجع ٢/٦٩ طبعة ثانية. (٢) آية ١١ سورة الحاقة.

الميزان أستوى. ورَكَد القوم هدَؤوا. والمراكد: المواضع التي يَرْكُد فيها الإنسان وغيره. وقرأ قتادة ﴿فَيُظْلِلْنَ﴾ بكسر اللام الأولى على أن يكون لغة، مثلُ ضَللت[1] أضِل. وفتح اللام هي اللغة المشهورة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي دلالات وعلامات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي صبار على البَلْوَى شكور على النعماء. قال قُطْرُب: نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطِي شكر وإذا آبْتُلِيَ صبر. قال عَوْن بن عبد الله: فكم من مُنْعَم عليه غير شاكر، وكم من مبتلى غير صابر.

[٣٤] ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

[٣٥] ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيوبق السفن؛ أي يغرقهن بذنوب أهلها. وقيل: يوبق أهل السفن. ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ من أهلها فلا يغرقهم معها؛ حكاه الماورديّ. وقيل: ﴿ويعفو عن كثير﴾ أي ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك. قال القُشيرِيّ: والقراءة الفاشية ﴿ويعفُ﴾ بالجزم، وفيها إشكال؛ لأن المعنى: إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكد ويهلكها بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف ﴿يعف﴾ على هذا، لأنه يصير المعنى: إن يشأ يعف، وليس المعنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة، فهو إذاً عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى. وقد قرأ قوم ﴿ويعفو﴾ بالرفع، وهي جيدة في المعنى. ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ يعني الكفار؛ أي إذا توسّطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أو بقيت السفن رواكد علموا أنه لا ملجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلِصون له العبادة. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع[2]، ومضى القول في ركوب البحر في ﴿البقرة﴾[3] وغيرها بما يغني عن إعادته. وقرأ نافع وابن عامر

---

(١) في «الأصول»: «ظللت أظل» بالظاء المعجمة. والتصويب عن الكشاف.

(٢) راجع ٨/ ٣٢٥ و ١٣/ ٢٢٣.

(٣) راجع ٢/ ١٩٥ طبعة ثانية.

﴿ويعلمُ﴾ بالرفع، الباقون بالنصب. فالرفع على الاستئناف بعد الشرط والجزاء؛ كقوله في سورة ﴿التوبة﴾ ﴿ويُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[1] ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ رفعاً. ونظيره في الكلام إن تأتني آتك وينطلقُ عبد الله. أو على أنه خبر ابتداء محذوف. والنصب على الصرف؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[2] صرف من حال الجزم إلى النصب استخفافاً كراهيةً لتوالي الجزم؛ كقول النابغة:

فإن يَهْلِك أبو قابوسَ يهلِكْ ... ربيعُ الناس والشهرُ الحرامُ[3]
ويُمْسِكْ بعده بذِناب عَيْشٍ ... أَجَبِّ الظَّهْرِ ليس له سَنَام[4]

وهذا معنى قول الفرّاء، قال: ولو جزم ﴿ويعلم﴾ جاز. وقال الزجاج: نصب على إضمار ﴿أن﴾ لأن قبلها جزماً؛ تقول: ما تصنعْ أصنعْ مثله وأكرمَك. وإن شئت قلت: وأكرمْك بالجزم. وفي بعض المصاحف ﴿وليعلم﴾. وهذا يدل على أن النصب بمعنى: وليعلم أو لأن يعلم. وقال أبو علي والمبرّد: النصب بإضمار ﴿أن﴾ على أن يجعل الأوّل في تقدير المصدر؛ أي ويكون منه عَفْوٌ وأن يعلم، فلما حمله على الاسم أضمر أن، كما تقول: إن تأتني وتعطيني أكرمك، فتنصب تعطيني؛ أي إن يكن منك إتيان وأن تعطيني. ومعنى ﴿مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي من فرار ومهرب؛ قاله قُطْرُب. السُّدِّي: من ملجأ. وهو مأخوذ من قولهم: حاص به البعير حيصة إذا رمى به. ومنه قولهم: فلان يحيص عن الحق أي يميل عنه.

[٣٦] ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

---

(١) آية ١٤. (٢) آية ١٤٢ سورة آل عمران. (٣) أبو قابوس: كنية النعمان بن المنذر؛ يريد أنه كان كالربيع في الخصب لمجتديه، وكالشهر الحرام لجاره؛ أي لا يوصل إلى من أجاره. والمعنى: إن يمت النعمان يذهب خير الدنيا لأنها كانت تعمر به وبجوده وعدله ونفعه للناس، ومن كان في ذمته وسلطانه فهو آمن على نفسه محقون الدم كما يأمن الناس في الشهر الحرام على أموالهم ودمائهم. (٤) ذناب كل شيء: عقبه ومؤخره. وأجب الظهر مقطوع السنام. يقول: إن مات بقينا في طرف عيش قد مضى صدره ومعظمه وخيره، وقد بقي منه ذنبه.

قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يريد من الغنى والسَّعة في الدنيا. ﴿فَمَتَاعُ﴾ أي فإنما هو متاعٌ في أيام قليلة تنقضي وتذهب؛ فلا ينبغي أن يتفاخر به. والخطاب للمشركين. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ يريد من الثواب على الطاعة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ صدّقوا ووحّدوا ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ نزلت في أبي بكر الصدّيق حين أنفق جميع ماله في طاعة الله فلامه الناس. وجاء في الحديث أنه: أنفق ثمانين ألفاً.

[٣٧] ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ الذين في موضع جرّ معطوف على قوله: ﴿خير وأبقى للذين آمنوا﴾ أي وهو للذين يجتنبون ﴿كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾ وقد مضى القول في الكبائر في ﴿النساء﴾[1]. وقرأ حمزة والكسائيّ ﴿كبير الإثم﴾ والواحد قد يراد به الجمع عند الإضافة؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[2]، وكما جاء في الحديث: «منعت العراق درهمها وقفيزها». الباقون بالجمع هنا وفي ﴿النجم﴾[3]. ﴿وَالفَوَاحِشَ﴾ قال السُّدِّي: يعني الزنى. وقاله ابن عباس، وقال: كبير الإثْم الشرك. وقال قوم: كبائر الإثم ما تقع على الصغائر مغفورة عند اجتنابها. والفواحش داخلة في الكبائر، ولكنها تكون أفحش وأشنع كالقتل بالنسبة إلى الجرح، والزنى بالنسبة إلى المراودة. وقيل: الفواحش والكبائر بمعنًى واحد؛ فكرر لتعدد اللفظ؛ أي يجتنبون المعاصي لأنها كبائر وفواحش. وقال مقاتل: الفواحش موجبات الحدود.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي يتجاوزون ويحلمُون عمن ظلمهم. قيل: نزلت في عمر حين شُتم بمكة. وقيل في أبي بكر حين لامه الناس على

---

(١) آية ٣١ راجع ٥/١٥٨ وما بعدها.
(٢) آية ٣٤ سورة إبراهيم و ١٨ سورة النحل.
(٣) آية ٣٢.

إنفاق ماله كله وحين شُتم فَحلُم. وعن عليّ رضي الله عنه قال: اجتمع لأبي بكر مال مرة، فتصدّق به كله في سبيل الخير؛ فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون فنزلت: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ـ إلى قوله ـ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾. وقال ابن عباس: شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يردّ عليه شيئاً؛ فنزلت الآية. وهذه من محاسن الأخلاق، يُشفقون على ظالمهم ويصفحون لمن جهِل عليهم؛ يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه؛ لقوله تعالى في آل عمران ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[1]. وهو أن يتناولك الرجل فتكظِم غيظك عنه. وأنشد بعضهم:

إنـي عفـوت لظـالمي ظلمـي ... ووهبـت ذاك لـه علـى علمـي

مـا زال يظلمنـي وأرحمـه ... حتـى بكيـت لـه مـن الظلـم

[٣٨] ﴿وَالَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هم الأنصار بالمدينة؛ استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أدّوْها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي يتشاورون في الأمور. والشُّورَى مصدر شاورته؛ مثل البشرى والذكرى ونحوه. فكانت الأنصار قبل قدوم النبيّ ﷺ إليهم إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه ثم عملوا عليه؛ فمدحهم الله تعالى به؛ قاله النقاش. وقال الحسن: أي إنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متفقون لا يختلفون؛ فمدِحوا باتفاق كلمتهم. قال الحسن: ما تشاور قوم قطُّ إلا هُدُوا لأرشد أمورهم. وقال

(١) آية ١٣٤ راجع ٢٠٦/٤.

الضحاك: هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله ﷺ، وورد النقباء إليهم حتى اجتمع رأيهم في دار أبي أيوب على الإيمان به والنصرة له. وقيل تشاورهم فيما يعرض لهم؛ فلا يستأثر بعضهم بخبر دون بعض. وقال ابن العربي: الشُّورَى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم قط إلا هُدُوا. وقد قال الحكيم:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي لبيب أو مشورة حازم[1]
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخَوافي قوّة[2] للقوادم

فمدح الله المشاورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك. وقد كان النبيّ ﷺ يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب؛ وذلك في الآراء كثير. ولم يكن يشاورهم في الأحكام؛ لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام. فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يتشاورون في الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة. وأوّل ما تشاور فيه الصحابة الخلافةُ؛ فإن النبيّ ﷺ لم ينص عليها حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما سبق بيانه[3]. وقال عمر رضي الله عنه: نرضى لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا. وتشاوروا في أهل الردة فاستقر رأي أبي بكر على القتال. وتشاوروا في الجَدّ وميراثه، وفي حدّ الخمر وعدده. وتشاوروا بعد رسول الله ﷺ في الحروب؛ حتى شاور عمر الهُرْمُزان حين وفَدَ عليه مسلماً في المغازي، فقال له الهرمزان: مثلها ومثل من فيها من الناس من عدوّ المسلمين مثل طائر له ريش وله جناحان ورجلان فإن كسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأس وإن كسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس وإن شُدِخ الرأس ذهب الرجلان والجناحان. والرأسُ كسْرى والجناح الواحد قيصر والآخر فارس؛ فَمُرْ المسلمين فلينفروا إلى كِسْرى... وذكر الحديث. وقال بعض العقلاء: ما أخطأت قطُّ! إذا حَزَبَني أمر شاورت قومي ففعلت الذي يرون؛ فإن أصبت فهم المصيبون، وإن أخطأت فهم المخطئون

(١) البيتان لبشار بن برد. والخوافي: ريشات إذا ضمّ الطائر جناحيه خفيت. والقوادم: عشر ريشات في مقدم الجناح وهي كبار الريش.
(٢) في «الأصول»: «نافع». (٣) راجع ٤/ ٢٢٤.

الثالثة - قد مضى في ﴿آل عمران﴾ ما تضمنته الشُّورى من الأحكام عند قوله تعالى: ﴿وشَاوِرْهُمْ فِي الأمر﴾[(١)]. والمَشُورة بركة. والمَشْوَرة: الشُّورَى، وكذلك المشورة (بضم الشين)؛ تقول منه: شاورته في الأمر واستشرته بمعنًى. وروى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أمراؤكم خيارَكم وأغنياؤكم سمحاءَكم وأمْرُكم شُورَى بينكم فظَهْر الأرض خير لكم من بطنها وإذا كان أمراؤكم شرارَكم وأغنياؤكم بخلاءَكم وأمورُكم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها». قال حديث غريب. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي ومما أعطيناهم يتصدقون. وقد تقدّم في ﴿البقرة﴾[(٢)].

[٣٩] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

[٤١] ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

[٤٢] ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

[٤٣] ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ أي أصابهم بغي المشركين. قال ابن عباس: وذلك أن المشركين بَغَوْا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه وآذوهم وأخرجوهم من مكة، فأذن الله لهم بالخروج ومكّن لهم في الأرض ونصرهم على من بغى عليهم؛ وذلك قوله في سورة ﴿الحج﴾ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ

---

(١) آية ١٥٩ راجع ٤/٢٤٨ وما بعدها.

(٢) راجع ١/١٧٨ وما بعدها.

لَقدِيرٌ. الَّذِينَ أخرِجُوا. . .﴾[1] الآيات كلها. وقيل: هو عام في بَغْي كل باغ من كافر وغيره؛ أي إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه. وهذه إشارة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود. قال ابن العربي: ذكر الله الانتصار في البغي في معرض المدح، وذكر العفو عن الجرم في موضع آخر في معرض المدح؛ فاحتمل أن يكون أحدهما رافعاً للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعاً إلى حالتين؛ إحداهما أن يكون الباغي معلناً بالفجور، وَقِحاً في الجمهور، مؤذياً للصغير والكبير؛ فيكون الانتقام منه أفضل. وفي مثله قال إبراهيم النَّخَعِيّ: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فتجترىء عليهم الفساق. **الثانية** ـ أن تكون الفلتة، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة ويسأل المغفرة؛ فالعفو هاهنا أفضل، وفي مثله نزلت ﴿وأنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[2]. وقوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾[3]. وقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ألاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[4].

قلت: هذا حسن، وهكذا ذكر الكِيَا الطبري في أحكامه قال: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِين إذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرون﴾ يدل ظاهره على أن الانتصار في هذا الموضع أفضل؛ ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله سبحانه وتعالى وإقام الصلاة؛ وهو محمول على ما ذكر إبراهيم النَّخَعِيّ أنهم كانوا يكرهون للمؤمنين أن يذلوا أنفسهم فتجترىء عليهم الفساق؛ فهذا فيمن تعدّى وأصر على ذلك. والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الجاني نادماً مقلعاً. وقد قال عقيب هذه الآية ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْد ظُلْمِهِ فَأولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾. ويقتضي ذلك إباحة الانتصار لا الأمر به؛ وقد عقبه بقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إنّ ذَلِك لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾. وهو محمول على الغفران عن غير المُصِرّ، فأما المصرّ على البغي والظلم فالأفضل الانتصار منه بدلالة الآية التي قبلها. وقيل: أي إذا أصابهم البغي تناصروا عليه حتى يزيلوه عنهم ويدفعوه؛ قاله ابن بحر. وهو راجع إلى العموم على ما ذكرنا.

---

(١) آية ٣٩ راجع ١٢/ ٦٧. (٢) آية ٢٣٧ سورة البقرة.
(٣) آية ٤٥ سورة المائدة.
(٤) آية ٢٢ سورة النور.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ قال العلماء: جعل الله المؤمنين صنفين؛ صنفٌ يعفون عن الظالم فبدأ بذكرهم في قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾. وصنف ينتصرون من ظالمهم. ثم بين حدّ الانتصار بقوله: ﴿وَجزاءُ سيّئةٍ سيئةٌ مِثلُها﴾ فينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي. قال مقاتل وهشام بن حُجَير: هذا في المجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره من سبّ أو شتم. وقاله الشافعي وأبو حنيفة وسفيان. قال سفيان: وكان ابن شُبْرُمَة يقول: ليس بمكة مثل هشام. وتأوّل الشافعي في هذه الآية أن للإنسان أن يأخذ من مال من خانه مثل ما خانه من غير علمه؛ واستشهد في ذلك بقول النبي ﷺ لهند زوج أبي سفيان: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك» فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه. وقد مضى الكلام في هذا مستوفًى في ﴿البقرة﴾[1]. وقال ابن أبي نَجيح: إنه محمول على المقابلة في الجراح. وإذا قال: أخزاه الله أو لعنه الله أن يقول مثله. ولا يقابل القذف بقذف ولا الكذب بكذب. وقال السُّدِّي: إنما مدح الله من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتداء بالزيادة على مقدار ما فعل به؛ يعني كما كانت العرب تفعله. وسمى الجزاء سيئةً لأنه في مقابلتها؛ فالأوّل ساء هذا في مال أو بدن، وهذا الاقتصاص يسوءه بمثل ذلك أيضاً؛ وقد مضى هذا كله في ﴿البقرة﴾ مستوفى[1].

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ قال ابن عباس: من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي إن الله يأجره على ذلك. قال مقاتل: فكان العفو من الأعمال الصالحة. وقد مضى في ﴿آل عمران﴾[2] في هذا ما فيه كفاية، والحمد لله. وذكر أبو نعيم الحافظ عن علي بن الحسين رضي الله عنهم قال: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أيّكم أهل الفضل؟ فيقوم ناس من الناس؛ فيقال: انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة؛ فيقولون إلى أين؟ فيقولون إلى الجنة؛ قالوا قبل الحساب؟ قالوا نعم قالوا مَن أنتم؟ قالوا أهل الفضل؛ قالوا وما كان فضلكم؟ قالوا كنا إذا جُهل علينا حَلِمنا

(١) راجع ٢/٣٥٥.
(٢) راجع ٤/٢٠٧.

وإذا ظُلمنا صَبَرْنا وإذا سِيء إلينا عفونا؛ قالوا ٱدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. وذكر الحديث. ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي مَن بدأ بالظلم؛ قاله سعيد بن جُبير. وقيل: لا يحبّ مَن يتعدى في الاقتصاص ويجاوز الحد؛ قاله ابن عيسى.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَمَن ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أي المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيل إلى لَوْمه ، بل يُحمد على ذلك مع الكافر . ولا لوم إن ٱنتصر الظالم من المسلم ؛ فالانتصار من الكافر حتم ، ومن المسلم مباح ، والعفو مندوب.

الخامسة ـ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن ٱنْتَصَر بَعْد ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ دليلٌ على أن له أن يستوفي ذلك بنفسه. وهذا ينقسم ثلاثة أقسام: **أحدها ـ** أن يكون قصاصا في بدن يستحقه آدمي، فلا حرج عليه إن ٱستوفاه من غير عدوان وثبت حقه عند الحكام، لكن يزجره الإمام في تفوته بالقصاص لما فيه من الجرأة على سفك الدم. وإن كان حقه غير ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج، وهو في الظاهر مطالب وبفعله مؤاخذ ومعاقب. **القسم الثاني ـ** أن يكون حدّ الله تعالى لا حَقَّ لآدميّ فيه كحدّ الزنى وقطع السرقة؛ فإن لم يثبت ذلك عند حاكم أخذ به وعوقب عليه، وإن ثبت عند حاكم نُظر، فإن كان قطعاً في سرقة سقط به الحدّ لزوال العضو المستحق قطعه، ولم يجب عليه في ذلك حق لأن التعزير أدب، وإن كان جلداً لم يسقط به الحدّ لتعدّيه مع بقاء محله فكان مأخوذاً بحكمه. **القسم الثالث ـ** أن يكون حقاً في مال؛ فيجوز لصاحبه أن يغالب على حقه حتى يصل إليه إن كان ممن هو عالم به، وإن كان غير عالم نُظر، فإن أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له إلا الاستسرار بأخذه. وإن كان لا يصل إليه بالمطالبة لجحود من هو عليه من عدم بيّنة تشهد له ففي جواز استسراره بأخذه مذهبان: **أحدهما ـ** جوازه؛ وهو قول مالك والشافعي. **الثاني ـ** المنع؛ وهو قول أبـي حنيفة.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاس﴾ أي بعدوانهم عليهم؛ في قول أكثر العلماء. وقال ٱبن جُريج: أي يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم.

﴿وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي في النفوس والأموال؛ في قول الأكثرين. وقال مقاتل: بَغْيُهم عَمَلُهم بالمعاصي. وقال أبو مالك: هو ما يرجوه كفار قريش أن يكون بمكة غير الإسلام ديناً. وعلى هذا الحدّ قال ٱبن زيد: إن هذا كله منسوخ بالجهاد، وإن هذا للمشركين خاصة. وقول قتادة: إنه عام؛ وكذا يدل ظاهر الكلام. وقد بيناه والحمد لله.

السابعة ـ قال ٱبن العربي: هذه الآية في مقابلة الآية المتقدّمة في ﴿براءة﴾ وهي قوله ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾[1]؛ فكما نفى الله السبيل عمن أحسن فكذلك نفاها[2] على من ظلم؛ واستوفى بيان القسمين.

الثامنة ـ وٱختلف علماؤنا في السلطان يضع على أهل بلد مالاً معلوماً يأخذهم به ويؤدّونه على قدر أموالهم؛ هل لمن قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل، وهو إذا تخلص أخذ سائر أهل البلد بتمام ما جعل عليهم. فقيل لا؛ وهو قول سحنون من علمائنا. وقيل: نعم، له ذلك إن قدر على الخلاص؛ وإليه ذهب أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي ثم المالكي. قال: ويدل عليه قول مالك في الساعي يأخذ من غنم أحد الخلطاء شاة وليس في جميعها نصاب إنها مظلمة على من أخذت له لا يرجع على أصحابه بشيء. قال: ولست آخذ بما روِي عن سحنون؛ لأن الظلم لا أسوة فيه، ولا يلزم أحد أن يولج نفسه في ظلم مخافة أن يضاعف الظلم على غيره، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الذِين يَظْلِمُونَ النّاسَ﴾.

التاسعة ـ وٱختلف العلماء في التحليل؛ فكان ابن المُسَيِّب لا يحلل أحداً من عرض ولا مال. وكان سليمان بن يَسار ومحمد بن سِيرين يحللان من العِرض والمال. ورأى مالك التحليل من المال دون العرض. روى ٱبن القاسم وٱبن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب «لا أحلل أحداً» فقال: ذلك يختلف؛ فقلت له يا أبا عبد الله، الرجلُ يسلف الرجلَ فيهلك ولا وفاء له؟ قال: أرى أن يحلله وهو أفضل عندي؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾. فقيل له: الرجل يظلم الرجل؟

---

(١) آية ٩١. (٢) في ابن العربي: «أثبتها».

فقال: لا أرى ذلك، هو عندي مخالف للأوّل؛ يقول الله تعالى: ﴿إنما السبِيلُ على الذِين يَظْلِمُون الناس﴾ ويقول تعالى: ﴿ما على المحسِنِين مِن سَبِيلٍ﴾ فلا أرى أن يجعله من ظلمه في حِلّ. قال ٱبن العربي: فصار في المسألة ثلاثة أقوال: **أحدها** لا يحلّله بحالٍ؛ قاله سعيد بن المسيب. **الثاني** ـ يحلّله؛ قاله محمد بن سيرين. **الثالث** ـ إن كان مالا حلله وإن كان ظلماً لم يحلله؛ وهو قول مالك. وجه الأوّل ألاّ يحلل ما حرّم الله؛ فيكون كالتبديل لحكم الله. ووجه الثاني أنه حقه فله أن يسقط دمَه وعِرْضه. ووجه الثالث الذي اختاره مالك هو أن الرجل إذا غلب على أداء حقك فمن الرفق به أن يتحلله، وإن كان ظالماً فمن الحق ألا تتركه لئلا تغتر الظلمة ويسترسلوا[1] في أفعالهم القبيحة. وفي «صحيح مسلم» حديثُ أبي اليَسَر الطويل وفيه أنه قال لغريمه: أُخرج إليّ، فقد علمتُ أين أنت؛ فخرج؛ فقال: ما حملك على ٱختبأت مني؟ قال: أنا والله أحدّثك ثم لا أكذبك، خشيتُ والله أن أحدّثك فأكذبك، وأن أعِدك فأخلِفك، وكنتَ صاحب رسول الله ﷺ، وكنتُ والله مُعْسِراً. قال قلت: آللَّهِ؟ قال اللَّهِ[2]؛ قال: فأتى بصحيفة فمحاها فقال: إن وجدتَ قضاءً فاقض، وإلا فأنت في حِلّ... وذكر الحديث. قال ٱبن العربي: وهذا في الحيّ الذي يرجى له الأداء لسلامة الذمة ورجاء التَّمَحُّل[3]، فكيف بالميت الذي لا محاللة له ولا ذِمّة معه.

العاشرة ـ قال بعض العلماء: إن مَن ظُلم وأخِذ له مال فإنما له ثواب ما ٱحتبِس عنه إلى موته، ثم يرجع الثواب إلى ورثته، ثم كذلك إلى آخرهم؛ لأن المال يصير بعده للوارث. قال أبو جعفر الداودي المالكي: هذا صحيح في النظر؛ وعلى هذا القول إن مات الظالم قبل مَن ظلمه ولم يترك شيئاً أو ترك ما لم يعلم وارثه فيه بظلم لم تنتقل تباعة المظلوم إلى ورثة الظالم؛ لأنه لم يبق للظالم ما يستوجبه ورثة المظلوم.

---

(١) في بعض الأصول: «ويستسرون» وفي البعض الآخر: «ويستشرون».

(٢) قال النووي «الأوّل بهمزة ممدودة على الاستفهام، والثاني بلا مدّ، والهاء فيهما مكسورة. قال القاضي: ورويناه بفتحهما معا، وأكثر أهل العربية لا يجيزون إلا الكسر».

(٣) في ٱبن العربي: «التحلل» وقد كتب على هامش نسخة من الأصل بخط الناسخ «يقال تمحل أي احتال فهو متمحل قاله الجوهري».

الحادية عشرة - قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أي صبر على الأذى و ﴿غفر﴾ أي ترك الانتصار لوجه الله تعالى؛ وهذا فيمن ظلمه مسلم. ويحكى أن رجلاً سبّ رجلا في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظِم ويَعْرَق فيمسح العَرَق، ثم قام فتلا هذه الآية؛ فقال الحسن: عقلها والله! وفهمها إذ ضيّعها الجاهلون. وبالجملة العفو مندوب إليه، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوباً إليه كما تقدّم؛ وذلك إذا احتيج إلى كفّ زيادة البغي وقطع مادّة الأذى، وعن النبيّ ﷺ ما يدل عليه، وهو أن زينب أسمعت عائشة رضي الله عنهما بحضرته فكان ينهاها فلا تنتهي؛ فقال لعائشة: «دونِك فانتصري» خرجه مسلم في صحيحه بمعناه. وقيل: ﴿صَبَرَ﴾ عن المعاصي وستر على المساوىء. ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ أي من عزائم الله التي أمر بها. وقيل من عزائم الصواب التي وفق لها. وذكر الكلبي والفراء أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع ثلاث آيات قبلها، وقد شتمه بعض الأنصار فردّ عليه ثم أمسك. وهي المدنيات من هذه السورة. وقيل: هذه الآيات في المشركين، وكان هذا في ابتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثم نسختها آية القتال؛ وهو قول ابن زيد، وقد تقدّم. وفي تفسير ابن عباس ﴿وَلَمَن انتصر بعد ظلمِه﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعليًا وجميع المهاجرين رضوان الله عليهم. ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعلي رضوان الله عليهم أجمعين. ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الذِين يَظْلِمُون النَّاسَ﴾ يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبا جهل والأسود، وكل من قاتل من المشركين يوم بدر. ﴿وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ﴾ يريد بالظلم والكفر. ﴿أولَئكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يريد وجيع. ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَر﴾ يريد أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح ومُصعب بن عُمير وجميع أهل بدر رضوان الله عليهم أجمعين. ﴿إِنّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمورِ﴾ حيث قبلوا الفداء وصبروا على الأذى.

[٤٤] ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ أي يخذله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ هذا فيمن أعرض عن النبيّ ﷺ فيما دعاه إليه من الإيمان بالله والمودّة في القربى، ولم يصدّقه في البعث وأن متاع الدنيا قليل. أي من أضله الله عن هذه الأشياء فلا يهديه هادٍ.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ﴾ أي الكافرين. ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ يعني جهنم. وقيل رأوا العذاب عند الموت. ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يطلبون أن يُرَدّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله فلا يجابون إلى ذلك.

[٤٥] ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي على النار لأنها عذابهم؛ فكنّى عن العذاب المذكور بحرف التأنيث؛ لأن ذلك العذاب هو النار، وإن شئت جهنم، ولو راعى اللفظ لقال عليه. ثم قيل: هم المشركون جميعاً يعرضون على جهنم عند انطلاقهم إليها؛ قاله الأكثرون. وقيل: آل فرعون خصوصاً، تُحبس أرواحهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح؛ فهو عرضهم عليها؛ قاله ابن مسعود. وقيل: إنهم عامة المشركين، تعرض عليهم ذنوبهم في قبورهم، ويعرضون على العذاب في قبورهم؛ وهذا معنى قول أبي الحجاج. ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ ذهب بعض القراء إلى الوقف على ﴿خاشعين﴾ وقوله: ﴿مِن الذُّلّ﴾ متعلق بـ ﴿ينظرون﴾. وقيل: متعلق بـ ﴿خاشعين﴾. والخشوع الانكسار والتواضع. ومعنى ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعاً تاما؛ لأنهم ناكسو الرؤوس. والعرب تصف الذليل بغَضّ الطرف، كما يستعملون في ضدّه حديد النظر إذا لم يُتّهم بريبة فيكون عليه منها غضاضة. وقال مجاهد: ﴿مِنْ طَرْفٍ خَفِيّ﴾ أي ذليل، قال: وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يُحشرون عميا، وعين القلب طرفٌ خفِيّ. وقال قتادة والسدّي والقُرَظِيّ وسعيد بن جُبير: يسارقون النظر من شدّة الخوف. وقيل: المعنى ينظرون من

عين ضعيفة النظر. وقال يونس: ﴿مِن﴾ بمعنى الباء؛ أي ينظرون بطرف خفي، أي ضعيف من الذل والخوف، ونحوه عن الأخفش. وقال ابن عباس: بطرف ذابل ذليل. وقيل: أي يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لمَا يرون من أصناف العذاب. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حل بالكفار إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم لأنهم في العذاب المخلد، وخسروا أهليهم لأن الأهل إن كانوا في النار فلا انتفاع بهم، وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينه وبينهم. وقيل: خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم أهل في الجنة من الحور العين. وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى: ﴿أولئك هم الوارثون﴾». وقد تقدّم[1]. وفي مسند الدارِمِيّ عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يدخله الله الجنة إلا زوّجه اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار وما منهنّ واحدة إلا ولها قُبُلٌ شهِيّ وله ذكر لا ينثني». قال هشام بن خالد: «مِن ميراثه من أهل النار» يعني رجالاً أدخلوا النار فورث أهل الجنة نساءهم كما ورثت امرأة فرعون. ﴿أَلاَ إِنّ الظَّالِمينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ أي دائم لا ينقطع. ثم يجوز أن يكون هذا من قول المؤمنين، ويجوز أن يكون ابتداء من الله تعالى.

[٤٦] ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي أعواناً ونصراء ﴿يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي من عذابه ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي طريق يصل به إلى الحق في الدنيا والجنة في الآخرة؛ لأنه قد سدّت عليه طريق النجاة.

---

(١) راجع ١٢/١٠٨.

[٤٧] ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿استجِيبوا لِربكم﴾ أي أجيبوه إلى ما دعاكم إليه من الإيمان به والطاعة. استجاب وأجاب بمعنى؛ وقد تقدّم. ﴿مِنْ قَبْلِ أنْ يَأتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ يريد يوم القيامة؛ أي لا يردّه أحد بعد ما حكم الله به وجعله أجلاً ووقتاً. ﴿مَا لَكُمْ مِن ملجَإٍ﴾ أي من ملجأ ينجيكم من العذاب. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي من ناصر ينصركم؛ قاله مجاهد. وقيل: النكير بمعنى المنكر؛ كالأليم بمعنى المؤلم؛ أي لا تجدون يومئذ منكراً لما ينزل بكم من العذاب؛ حكاه ابن أبي حاتم، وقاله الكلبي. الزجاج: معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التي يوقفون عليها. وقيل: ﴿من نكير﴾ أي إنكار ما ينزل بكم من العذاب، والنكير والإنكار تغيير المنكر.

[٤٨] ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي عن الإيمان ﴿فَمَا أرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ أي حافظاً لأعمالهم حتى تحاسبهم عليها. وقيل: موكلا بهم لا تفارقهم دون أن يؤمنوا؛ أي ليس لك إكراههم على الإيمان. ﴿إنْ عَلَيْكَ إلاَّ الْبَلاَغُ﴾ وقيل: نسخ هذا بآية القتال. ﴿وَإنَّا إذَا أذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الكافر. ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ رخاء وصحة. ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ بطِر بها. ﴿وَإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بلاء وشدّة. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أيْديهمْ فَإنّ الْإنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي لما تقدّم من النعمة فيعدّد المصائب وينسى النعم.

[٤٩] ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾.

[٥٠] ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ابتداء وخبر. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من الخلق. ﴿يَهَبُ لِمنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ قال أبو عبيدة وأبو مالك ومجاهد والحسن والضحاك: يهب لمن يشاء إناثاً لا ذكور معهنّ، ويهب لمن يشاء ذكوراً لا إناث معهم؛ وأدخل الألف واللام على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف فميزهم بسمة التعريف. وقال واثلة بن الأسقع: إنَّ مِنْ يُمْن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور﴾ فبدأ بالإناث. ﴿أوْ يُزَوّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإناثاً﴾ قال مجاهد: هو أن تلد المرأة غلاماً ثم تلد جارية، ثم تلد غلاماً ثم تلد جارية. وقال محمد بن الحنفية: هو أن تلد تَوْأماً، غلاماً وجارية، أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً. قال القُتَبيّ: التزويج ها هنا هو الجمع بين البنين والبنات؛ تقول العرب: زوّجت إبلي إذا جمعت بين الكبار والصغار. ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقيماً﴾ أي لا يولد له؛ يقال: رجل عقيم، وامرأة عقيم. وعَقِمَت المرأة تَعْقَم عَقْماً؛ مثل حَمِد يَحْمَد. وعَقُمت تَعْقُم، مثل عظُم يعظم. وأصله القطع، ومنه المُلْك العقيم، أي تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفاً على الملك. وريح عقيم؛ أي لا تلقح سحاباً ولا شجراً. ويوم القيامة يوم عقيم؛ لأنه لا يوم بعده. ويقال: نساء عُقُم وعُقْم؛ قال الشاعر[1]:

عُقِم النساء فما يَلِدْنَ شبيهَه ... إن النساء بمثله عُقْمُ

---

(١) في لسان العرب: «قال أبو دهبل يمدح عبد الله بن الأزرق المخزومي. وقيل هو للحزين الليثي».

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في الأنبياء خصوصاً وإن عمّ حكمها. وَهَب للُوطٍ الإناث ليس معهنّ ذكر، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإناث، وجعل عيسى ويحيى عقيمين؛ ونحوه عن ابن عباس وإسحاق بن بشر. قال إسحاق: نزلت في الأنبياء، ثم عَمّت. ﴿يَهَبُ لمنْ يَشَاءُ إنَاثاً﴾ يعني لوطاً عليه السلام، لم يولد له ذكر وإنما ولد له ابنتان. ﴿وَيَهَبُ لمنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ يعني إبراهيم عليه السلام لم يولد له أنثى بل ولد له ثمانية ذكور. ﴿أوْ يُزَوّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإنَاثاً﴾ يعني رسول الله ﷺ، ولد له أربعة بنين وأربع بنات. ﴿وَيَجْعَلُ منْ يَشَاءُ عَقِيماً﴾ يعني يحيى بن زكريا عليهما السلام؛ لم يذكر عيسى. ابن العربي: قال علماؤنا ﴿يهب لمن يشاء إناثاً﴾ يعني لوطاً كان له بنات ولم يكن له ابن. ﴿ويهب لمن يشاء الذكور﴾ يعني إبراهيم، كان له بنون ولم يكن له بنت. وقوله: ﴿أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً﴾ يعني آدم، كانت حوّاء تلد له في كل بطن توأمين ذكراً وأنثى، ويزوّج الذكر من هذا البطن من الأنثى من البطن الآخر، حتى أحكم الله التحريم في شرع نوح ﷺ. وكذلك محمد ﷺ كان له ذكور وإناث من الأولاد: القاسم والطيب والطاهر وعبد الله[١] وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة؛ وكلهم من خديجة رضي الله عنها، وإبراهيم وهو من مارية القبطية. وكذلك قسم الله الخلق من لدن آدم إلى زماننا هذا، إلى أن تقوم الساعة، على هذا التقدير المحدود بحكمته البالغة ومشيئته النافذة؛ ليبقى النسل، ويتمادى الخلق، وينفذ الوعد، ويَحِقّ الأمر، وتعمر الدنيا، وتأخذ الجنة وجهنم كل واحدة ما يملؤها ويبقى. ففي الحديث: «إن النار لن تمتلىء حتى يضع الجبار فيها قدمه[٢]، فتقول قَطِ قَطِ[٣]. وأما الجنة فيبقى منها فينشىء الله لها خلقاً آخر».

الثانية ـ قال ابن العربي: إن الله تعالى لعموم قدرته وشديد قوّته يخلق الخلق ابتداء من غير شيء، وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئاً من شيء لا عن حاجة؛ فإنه قدّوس

(١) القول الأصح أن الذكور ثلاثة: القاسم وعبد الله (ويسمى بالطيب والطاهر) وإبراهيم. راجع شرح المواهب اللدنية. (٢) قال القسطلاني: «أي يذللها تذليل من يوضع تحت الرِّجل، والعرب تضع الأمثال بالأعضاء ولا تريد أعيانها كقولها للنادم: سقط في يده». (٣) قوله: «قط قط» بكسر الطاء وسكونها فيهما، ويجوز التنوين مع الكسر والمعنى: حسبي حسبي قد اكتفيت.

عن الحاجات سلام عن الآفات، كما قال القدوس السلام؛ فخلق آدم من الأرض وخلق حوّاء من آدم وخلق النشأة من بينهما منهما مرتباً على الوطء كائناً عن الحمل موجوداً في الجنين بالوضع؛ كما قال النبيّ ﷺ: «إذا سبق ماءُ الرجل ماء المرأة أذكرا وإذا سبق ماءُ المرأة ماء الرجل آنثا»[1]. وكذلك في الصحيح أيضاً «إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه الولد أعمامه وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله».

قلت: هذا معنى حديث عائشة لا لفظه خرّجه مسلم من حديث عروة بن الزبير عنها أن امرأة قالت لرسول الله ﷺ: هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء؟ فقال «نعم» فقالت لها عائشة: تَرِبَتْ يداك وألّت[2]؛ فقال رسول الله ﷺ: «دعِيها وهل يكون الشبه إلا مِن قِبَل ذلك. إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه». قال علماؤنا: فعلى مقتضى هذا الحديث أن العلو يقتضي الشبه؛ وقد جاء في حديث ثَوْبان خرجه مسلم أيضاً أن النبيّ ﷺ قال لليهودي: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مَنِيُّ الرجل مَنِيَّ المرأة أذكرا بإذن الله وإذا علا مَنِيُّ المرأة مَنِيَّ الرجل آنثا باذن الله...» الحديث. فجعل في هذا الحديث أيضاً العلو يقتضي الذكورة والأنوثة؛ فعلى مقتضى الحديثين يلزم اقتران الشبه للأعمام والذكورة إن علا مَنيّ الرجل، وكذلك يلزم إن علا مَنِي المرأة اقتران الشبه للأخوال والأنوثة؛ لأنهما معلولاً علَّةٍ واحدة، وليس الأمر كذلك بل الوجود بخلاف ذلك؛ لأنا نجد الشبه للأخوال والذكورة والشّبه للأعمام والأنوثة فتعين تأويل أحد الحديثين. والذي يتعين تأويله الذي في حديث ثَوْبان فيقال: إن ذلك العلو معناه سبق الماء إلى الرحم، ووجهه أن العلو لما كان معناه الغلبة من قولهم سابقني فلان فسبقته أي غلبته؛ ومنه قوله تعالى:

---

(١) روى بالمد وتخفيف النون وبالقصر وتشديد النون.

(٢) قوله: «تربت يداك». معناه: ما أصبت! وهو في الأصل بمعنى صار في يدك التراب ولا أصبت خيراً أي افتقرت، لكن لا يريدون به الدعاء على المخاطب، كما يقولون: قاتله الله؛ إلى غير ذلك. وقوله «وألت»: أي صاحت لما أصابها من شدّة هذا الكلام. وروي بضم الهمزة مع التشديد؛ أي طعنت بالألّة وهي الحربة. قال ابن الأثير: وفيه بعد؛ لأنه لا يلائم لفظ الحديث.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي بمغلوبين قيل عليه: علا. ويؤيد هذا التأويل قوله في الحديث: «إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة أذكرا وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل آنثا». وقد بنى القاضي أبو بكر بن العربي على هذه الأحاديث بناءً فقال: إن للماءين أربعة أحوال: الأوّل أن يخرج ماء الرجل أولاً، الثاني أن يخرج ماء المرأة أوّلاً، الثالث أن يخرج ماء الرجل أوّلاً ويكون أكثر، الرابع أن يخرج ماء المرأة أوّلاً ويكون أكثر. ويتم التقسيم بأن يخرج ماء الرجل أوّلاً ثم يخرج ماء المرأة بعده ويكون أكثر أو بالعكس؛ فإذا خرج ماء الرجل أوّلاً وكان أكثر جاء الولد ذكراً بحكم السبق وأشبه الولد أعمامه بحكم الكثرة. وإن خرج ماء المرأة أوّلاً وكان أكثر جاء الولد أنثى بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم الغلبة. وإن خرج ماء الرجل أوّلاً لكن لما خرج ماء المرأة بعده كان أكثر كان الولد ذكراً بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم غلبة ماء المرأة. وإن سبق ماء المرأة لكن لما خرج ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة كان الولد أنثى بحكم سبق ماء المرأة وأشبه أعمامه بحكم غلبة ماء الرجل. قال: وبانتظام هذه الأقسام يستتب الكلام ويرتفع التعارض عن الأحاديث، فسبحان الخالق العليم.

الثالثة ـ قال علماؤنا: كانت الخلقة مستمرة ذكراً وأنثى إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخنثى فأتِيَ به فِريضَ العرب ومعمّرها[1] عامرَ بن الظَّرِب فلم يدر ما يقول فيه وأرجأهم عنه؛ فلما جَنّ عليه الليل تنكّر موضعه، وأقَضَّ عليه مضجعه، وجعل يتقلّى ويتقلّب، وتجيء به الأفكار وتذهب، إلى أن أنكرت خادمُه حاله فقالت: ما بك؟ قال لها: سهِرت لأمر قُصدت به فلم أدر ما أقول فيه؟ فقالت ما هو؟ قال لها: رجل له ذكر وفرج كيف يكون حاله في الميراث؟ قالت له الأمَة: ورّثه من حيث يبول؛ فعَقَلها وأصبح فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين. وجاء الإسلام على ذلك فلم تنزل إلا في عهد عليّ رضي الله عنه فقضى فيها. وقد روى الفَرَضِيُّون عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ أنه سئل عن مولود له قُبُل وذَكَرٌ من أين يورّث؟ قال: من حيث يبول. وروى

(١) في ابن العربي: «ومعتمدها». ويقال أنه عاش ثلثمائة عام.

أنه أتى بخنثى من الأنصار فقال: «ورّثوه من أوّل ما يبول». وكذا روى محمد بن الحنفية عن عليّ، ونحوه عن ابن عباس، وبه قال ابن المسيب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد، وحكاه المزني عن الشافعي. وقال قوم: لا دلالة في البول؛ فإن خرج البول منهما جميعاً قال أبو يوسف: يحكم بالأكثر. وأنكره أبو حنيفة وقال: أتكيله! ولم يجعل أصحاب الشافعي للكثرة حكماً. وحكى عن عليّ والحسن أنهما قالا: تعد أضلاعه، فإن المرأة تزيد على الرجل بضلع واحد. وقد مضى ما للعلماء في هذا في آية المواريث في ﴿النّساء﴾[1] مجوّداً والحمد لله.

الرابعة ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: وقد أنكر قوم من رؤوس العوام وجود الخنثى، لأن الله تعالى قسم الخلق إلى ذكر وأنثى. قلنا: هذا جهل باللغة، وغباوة عن مقطع الفصاحة، وقصور عن معرفة سعة القدرة. أما قدرة الله سبحانه فإنه واسع عليم، وأما ظاهر القرآن فلا ينفي وجود الخنثى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء﴾. فهذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه؛ لأن القدرة تقتضيه. وأما قوله: ﴿يَهَبُ لمن يشاء إناثاً ويَهَبُ لمن يشاء الذكور. أوْ يزوّجهم ذُكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عَقِيماً﴾ فهذا إخبار عن الغالب في الموجودات، وسكت عن ذكر النادر لدخوله تحت عموم الكلام الأوّل، والوجود يشهد له والعِيان يكذب منكره، وقد كان يقرأ معنا برِباط أبي سعيد على الإمام الشهيد من بلاد المغرب خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية؛ فربُّك أعلم به، ومع طول الصحبة عقلني الحياء عن سؤاله، وبودّي اليوم لو كاشفته عن حاله.

[٥١] ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

(١) راجع ٥/ ٦٥ فما بعدها.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلاَّ وَحْياً﴾ سبب ذلك أن اليهود قالوا للنبيّ ﷺ: ألاّ تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيًّا كما كلمه موسى ونظر إليه؛ فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك. فقال النبي ﷺ: «إن موسى لن ينظر إليه» فنزل قوله: ﴿وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وَحْياً﴾؛ ذكره النقاش والواحدي والثعلبي. ﴿وَحْياً﴾ قال مجاهد: نَفْثٌ يُنْفَث في قلبه فيكون إلهاماً؛ ومنه قوله ﷺ: «إن روح القُدُس نَفَث في رُوعِي[1] إنّ نَفْساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب. خذوا ما حَلَّ ودَعُوا ما حَرُم». ﴿أوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى. ﴿أُو يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ كإرساله جبريل عليه السلام. وقيل: ﴿إلا وحياً﴾ رؤيا يراها في منامه؛ قاله محمد بن زهير. ﴿أو من وراءِ حِجاب﴾ كما كلم موسى. ﴿أو يرسل رسولاً﴾ قال زهير هو جبريل عليه السلام. ﴿فَيُوحِيَ بإذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ وهذا الوحي من الرسل خطاب منهم للأنبياء يسمعونه نطقاً ويرونه عياناً. وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحي على النبيّ ﷺ. قال ابن عباس: نزل جبريل عليه السلام على كل نبيّ فلم يره منهم إلا محمد وعيسى وموسى وزكرياء عليهم السلام. فأما غيرهم فكان وحياً إلهاماً في المنام. وقيل ﴿إلا وحياً﴾ بإرسال جبريل ﴿أو من وراء حجاب﴾ كما كلّم موسى ﴿أو يرسل رسولاً﴾ إلى الناس كافّة. وقرأ الزهري وشيبة ونافع ﴿أو يرسلُ رسولاً فيوحِي﴾ برفع الفعلين. الباقون بنصبهما. فالرفع على الاستئناف؛ أي وهو يرسل. وقيل ﴿يرسل﴾ بالرفع في موضع الحال؛ والتقدير إلا موحياً أو مرسلاً. ومن نصب عطفوه على محل الوحي؛ لأن معناه وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي أو يرسل. ويجوز أن يكون النصب على تقدير حذف الجار من أن المضمرة. ويكون في موضع الحال؛ التقدير أو بأن يرسل رسولاً. ولا يجوز أن يعطف ﴿أو يرسل﴾ بالنصب على ﴿أن يكلمه﴾ لفساد المعنى؛ لأنه يصير: ما كان لبشر أن يرسله أو أن يرسل إليه رسولاً، وهو قد أرسل الرسل من البشر وأرسل إليهم.

---

(١) الروع (بالضم): القلب والعقل. والروع (بالفتح): الفزع.

الثانية ـ احتج بهذه الآية من رأى فيمن حلف ألا يكلم رجلاً فأرسل إليه رسولاً أنه حانث؛ لأن المرسل قد سُمّي فيها مكلّماً للمرسَل إليه، إلا أن ينوي الحالف المواجهة بالخطاب. قال ابن المنذر: واختلفوا في الرجل يحلف ألاّ يكلم فلاناً فكتب إليه كتاباً أو أرسل إليه رسولاً؛ فقال الثَّوْري: الرسول ليس بكلام. وقال الشافعي: لا يبين أن يحنَث. وقال النَّخَعيّ: والحكم في الكتاب يحنث. وقال مالك: يحنث في الكتاب والرسول. وقال مَرّة: الرسول أسهل من الكتاب. وقال أبو عبيد: الكلام سوى الخط والإشارة. وقال أبو ثور: لا يحنث في الكتاب. قال ابن المنذر: لا يحنث في الكتاب والرسول.

قلت: وهو قول مالك. قال أبو عمر: ومن حلف ألا يكلم رجلاً فسلم عليه عامداً أو ساهياً، أو سلّم على جماعة هو فيهم فقد حنث في ذلك كله عند مالك. وإن أرسل إليه رسولاً أو سلم عليه في الصلاة لم يحنث.

قلت: يحنث في الرسول إلا أن ينوي المشافهة؛ للآية، وهو قول مالك وابن الماجشُون. وقد مضى في أول ﴿سورة مريم﴾[1] هذا المعنى عن علمائنا مستوفًى، والحمد لله.

[٥٢] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾.

[٥٣] ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي وكالذي أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك ﴿رُوحاً﴾ أي نبوّة؛ قاله ابن عباس. الحسن وقتادة: رحمة من عندنا. السُّدّي: وحياً. الكلبي: كتاباً. الربيع: هو جبريل. الضحاك: هو القرآن. وهو قول

(١) راجع ١١/٨٦.

مالك بن دينار. وسمّاه روحاً لأن فيه حياةً من موت الجهل. وجعله من أمره بمعنى أنزله كما شاء على من يشاء من النظم المعجز والتأليف المعجب. ويمكن أن يحمل قوله: ﴿ويسألونك عن الروح﴾ على القرآن أيضاً ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ أي يسألونك من أين لك هذا القرآن، قل إنه من أمر الله أنزل عليّ معجزاً؛ ذكره القُشَيْري. وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ أي لم تكن تعرف الطريق إلى الإيمان. وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الإيحاء متصفاً بالإيمان. قال القشيري: وهو من مجوّزات العقول، والذي صار إليه المعظم أن الله ما بعث نبياً إلا كان مؤمناً به قبل البعثة. وفيه تحكّم، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به. قال القاضي أبو الفضل عياض: وأما عصمتهم من هذا الفن[1] قبل النبوّة فللناس فيه خلاف؛ والصواب أنهم معصومون قبل النبوّة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك. وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك؛ كما عُرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام. قال الله تعالى: ﴿وآتيناه الحُكْمَ صَبِيًّا﴾[2] قال المفسرون: أعطى يحيى العلم بكتاب الله في حال صباه. قال معمر: كان ابن سنتين أو ثلاث؛ فقال له الصبيان: لم لا تلعب فقال: أَلِلعب خُلقت! وقيل في قوله: ﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾[3] صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين، فشهد له أنه كلمة الله وروحه. وقيل: صدقه وهو في بطن أمه؛ فكانت أمّ يحيى تقول لمريم إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك تحية له. وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله: ﴿لا تَحْزَني﴾ على قراءة من قرأ ﴿مَنْ

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) آية ١٢ سورة مريم.

(٣) آية ٣٩ سورة آل عمران.

تَحْتَها﴾، وعلى قول من قال إن المنادي عيسى ونصّ على كلامه في مهده فقال: ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نَبيًّا﴾. وقال: ﴿فَفَهَّمْنَاها سليمانَ وَكُلاًّ آتينا حُكْماً وَعِلْماً﴾[١] وقد ذكر من حُكم سليمان وهو صبي يلعب في قصة المرجومة وفي قصة الصبيّ ما اقتدى به أبوه داود. وحكى الطبري أن عمره كان حين أوتي الملك اثني عشر عاماً. وكذلك قصة موسى مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل. وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[٢]: أي هديناه صغيراً؛ قاله مجاهد وغيره. وقال ابن عطاء: اصطفاه قبل إبداء خلقه. وقال بعضهم: لما ولد إبراهيم بعث الله إليه مَلَكاً يأمره عن الله تعالى أن يعرِفه بقلبه ويذكره بلسانه فقال: قد فعلتُ؛ ولم يقل أفعل؛ فذلك رشده. وقيل: إن إلقاء إبراهيم في النار ومِحنته كانت وهو ٱبن ست عشرة سنة. وإن ٱبتلاء إسحاق بالذبح وهو ٱبن سبع سنين. وإن ٱستدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ٱبن خمس عشرة سنة[٣]. وقيل: أوحِي إلى يوسف وهو صبي عند ما همّ إخوته بإلقاءه في الجُبّ بقوله تعالى: ﴿وأوْحَيْنَا إليهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾[٤] الآية؛ إلى غير ذلك من أخبارهم. وقد حكى أهل السِّيَر أن آمنة بنت وهب أخبرت أن نبينا محمداًﷺ ولد حين ولد باسطاً يديه إلى الأرض رافعاً رأسه إلى السماء، وقال في حديثهﷺ: «لما نشأت بُغِّضت إليّ الأوثان وبُغِّض إليّ الشعر ولم أهُمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمني الله منهما ثم لم أعد». ثم يتمكن الأمر لهم، وتترادف نفحات الله تعالى عليهم، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوّة في تحصيل الخصال الشريفة النهايةَ دون ممارسة ولا رياضة. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أشُدَّهُ وٱسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً﴾[٥]. قال القاضي: ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نبّيء وٱصْطُفِي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك. ومستند هذا الباب النقل. وقد ٱستدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله.

---

(١) آية ٧٩، سورة الأنبياء. (٢) آية ٥١ سورة الأنبياء.

(٣) في «الأصول»: «خمسة عشر شهراً» راجع ٧/ ٢٥.

(٤) آية ١٥ سورة يوسف. (٥) آية ١٤ سورة القصص.

قال القاضي: وأنا أقول إن قريشاً قد رمت نبينا عليه السلام بكل ما ٱفترته، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها وٱختلقته، مما نص الله عليه أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعييراً لواحد منهم برفضه آلهتهم وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه. ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلوّنه في معبوده محتجين، ولكان توبيخهم لـه بنهيهم عما كان يعبـد قبلُ أفظع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركه آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل؛ ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليـه؛ إذ لو كان لنُقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا ﴿ مَا وَلَّٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِم التي كانوا عَلَيْهَا ﴾ كما حكاه الله عنهم.

الثالثة ـ وتكلم العلماء في نبينا ﷺ؛ هل كان مُتَعَبِّداً بدين قبل الوَحْي أم لا؛ فمنهم من منع ذلك مطلقاً وأحاله عقلاً. قالوا: لأنه يبعد أن يكون متبوعاً من عُرف تابعاً، وبَنَوْا هذا على التحسين والتقبيح. وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره عليه السلام وترِك قطع الحكم عليه بشيء في ذلك، إذ لم يُحِل الوجهين منهما العقل ولا ٱستبان عندها[1] في أحدهما طريق النقل، وهذا مذهب أبي المعالي. وقالت فرقة ثالثة: إنه كان متعبداً بشرع من قبله وعاملاً به؛ ثم ٱختلف هؤلاء في التعيين، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلهـا؛ فلا يجوز أن يكون النبي على دين منسوخ . وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم؛ لأنه من ولده وهو أبو الأنبيـاء. وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى ؛ لأنه أقدم الأديان. وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بدّ أن يكون على ديـنٍ ولكن عيـن الدين غير معلومة عندنا. وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتنـا؛ إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة، وإن كان العقل يجوّز ذلك كلّه. والذي يُقطع به أنه عليه السلام لم يكن منسوباً إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضي أن يكون واحداً مـن أمته ومخاطَباً بكل شريعتـه ؛ بل شريعته مستقلة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جلّ وعز. وأنه

(١) في «الأصول»: «عندهما».

ﷺ كان مؤمناً بالله عز وجل، ولا سجد لصنم، ولا أشرك بالله، ولا زنى ولا شرب الخمر، ولا شهد السامر[١] ولا حضر حلف المطر[٢] ولا حلْفَ المطيَّبين[٣]؛ بل نزهه الله وصانه عن ذلك. فإن قيل: فقد روى عثمان بن أبي شيبة حديثاً بسنده عن جابر أن النبيّ ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع مَلَكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه؛ فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد؟ فالجواب أن هذا حديث أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدًّا وقال: هذا موضوع أو شبيه بالموضوع. وقال الدّارَقُطْني: إن عثمان وَهِم في إسناده، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يلتفت إليه؛ والمعروف عن النبيّ ﷺ خلافه عند أهل العلم من قوله: «بُغِّضت إليّ الأصنام» وقوله في قصة بحِيرا حين استحلف النبيّ ﷺ باللّات والعُزَّى إذ لَقِيَه بالشام في سَفْرتِه مع عمه أبي طالب وهو صبيّ، ورأى فيه علامات النبوّة فاختبره بذلك؛ فقال له النبيّ ﷺ: «لا تسألني بهما فوالله ما أبغضت شيئاً قطُّ بُغْضَهُمَا» فقال له بَحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه؛ فقال: «سل عما بدا لك». وكذلك المعروف من سيرته عليه السلام وتوفيقِ الله إياه له أنه كان قبل نبوّته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلِفة في الحج، وكان يقف هو بعرفة؛ لأنه كان

---

(١) الموضع الذي يجتمعون للسمر فيه.

(٢) كذا في «الأصول». (٣) في «الأصول»: المطيب». قال ابن الأثير: «أصل الحلف المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق. فما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات، فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام بقوله صلوات الله عليه: «لا حِلْف في الإسلام». وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيبين وما جرى مجراه فذلك الذي قال فيه الرسول ﷺ: «وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة» يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق؛ وبذلك يجتمع الحديثان، وهذا هو الحلف الذي يقتضيه الإسلام. والممنوع منه ما خالف حكم الإسلام».

ويلاحظ أنه قال ﷺ: «شهدت غلاماً مع عمومتي حلف المطيبين». اجتمع بنو هاشم وبنو زهرة وتَيم في دار ابن جدعان في الجاهلية وجعلوا طيباً في جَفنة وغمسوا أيديهم فيه وتحالفوا على التناصر والأخذ من المظلوم للظالم؛ فسموا المطيبين. وقال عليه السلام: «شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت». قال ابن الأثير؛ يعني حلف الفضول. (راجع نهاية ابن الأثير مادة حلف. طيب. فضل).

موقف إبراهيم عليه السلام. فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبراهِيم﴾(١) وقال: ﴿أنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهِيم﴾(٢) وقال ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين﴾ الآية. وهذا يقتضي أن يكون متعبّداً بشرع. فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدّين؛ على ما تقدّم بيانه في غير موضع وفي هذه السورة عند قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾(٣) والحمد لله.

الرابعة ـ إذا تقرّر هذا فٱعلم أن العلماء اختلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي ما الْكِتابُ وَلاَ الْإِيمَانُ﴾. فقال جماعة: معنى الإيمان في هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه؛ ذكره الثعلبي. وقيل: تفاصيل هذا الشرع؛ أي كنت غافلاً عن هذه التفاصيل. ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع؛ ذكره القشيري: وقيل: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان؛ ونحوه عن أبي العالية. وقال بكر القاضي: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام. قال: وكان قبل مؤمناً بتوحيده ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل؛ فزاد بالتكليف إيماناً. وهذه الأقوال الأربعة متقاربة . وقال ابن خزيمة : عنى بالإيمان الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيضِيع إيْمَانَكُمْ ﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس؛ فيكون اللفظ عاماً والمراد الخصوص. وقال الحسين بن الفضل: أي ما كنت تدري ما الكتاب ولا أهل الإيمان. وهو من باب حذف المضاف؛ أي مَن الذي يؤمن؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما. وقيل: ما كنت تدري شيئاً إذا كنت في المهد وقبل البلوغ . وحكى الماوردي نحوه عن عليّ بن عيسى قال : ما كنت تدري ما الكتاب لولا الرسالة، ولا الإيمان لولا البلوغ. وقيل: ما كنت تدري ما الكتاب لولا إنعامنا عليك، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك؛ وهو محتمل. وفي هذا الإيمان وجهان: **أحدهما** ـ أنه الإيمان بالله، وهذا يعرِفه بعد بلوغه وقبل نبوّته. **والثاني** ـ أنه دين الإسلام، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوّة.

(١) آية ١٣٥ سورة البقرة.
(٢) آية ١٢٣ سورة النحل.
(٣) آية ١٣ من هذه السورة.

قلت: إنه ﷺ كان مؤمناً بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه؛ على ما تقدّم. وقيل: «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان» أي كنت من قوم أُمّيّين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان، حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ المُبْطِلُونَ﴾[1]. روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما. ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ قال ابن عباس والضحاك: يعني الإيمان. السُّدِّي: القرآن. وقيل الوحي. أي جعلنا هذا الوحي ﴿نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ﴾ أي من نختاره للنبوّة؛ كقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاء﴾[2]. ووحّد الكناية لأن الفعل في كثرة أسمائه بمنزلة الفعل في الاسم الواحد؛ ألا ترى أنك تقول: إقبالك وإدبارك يعجبني؛ فتوحّد، وهما اثنان. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ أي تدعو وترشد ﴿إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ دين قويم لا اعوجاج فيه. وقال عليّ: إلى كتاب مستقيم. وقرأ عاصم الجَحْدَرِيّ وحَوْشب ﴿وإنك لتُهْدَى﴾ غير مُسَمَّى الفاعل؛ أي لتُدْعَى. الباقون ﴿لتهدي﴾ مسمى الفاعل. وفي قراءة أُبَيّ ﴿وإنك لتدعو﴾. قال النحاس: وهذا لا يقرأ به؛ لأنه مخالف للسواد، وإنما يحمل ما كان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير؛ كما قال: ﴿وإنك لتهدي﴾ أي لتدعو. وروى معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وإنك لتَهْدِي إلى صراط مستقيم﴾ قال: ﴿ولكل قوم هاد﴾. ﴿صِراطِ اللَّهِ﴾ بدل من الأوّل بدل المعرفة من النكرة. قال عليّ: هو القرآن. وقيل الإسلام. ورواه النوّاس بن سمعان عن النبيّ ﷺ: ﴿الَّذي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ملكاً وعبداً وخلقاً. ﴿أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأمُورُ﴾ وعيد بالبعث والجزاء. قال سهل بن أبي الجعد: احترق مصحف فلم يبق إلا قوله: ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ وغرق مصحف فأمّحَى كله إلا قوله: ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾. والحمد لله وحده.

---

(١) آية ٤٨ سورة العنكبوت.
(٢) آية ١٠٥ سورة البقرة.